



من الشرق والغرب

أصل المجتمعات المتحضرة

تأليف

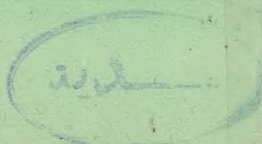
رشتون كولبورن

مراجعة

ترجمة

محمود فتحي عمر

لعمى الطيبي



الفصل
الأول

الإنسان
المتحضر
وتاريخه

للمجتمعات المتحضرة من العمر ، ما يقرب من ستة آلاف وخمسمائة من السنين . ولا مجال للشك في أن الحضارة هي أعظم عمل اجتماعي أنجزته البشرية حتى الآن . وعلى حسب المقياس الذي نستخدمه في هذه الدراسة للتفريق بين المجتمعات ، يوجد أربعة عشر مجتمعا متحضرا ، أو أكثر من هذا الرقم بقليل إذا ما أحصينا بعض أشكال اجتماعية صغيرة ، ومن بين هذه المجتمعات الأربعة عشر الآن أربعة مجتمعات متميزة تماما ، كما توجد بقايا للمجتمعات قليلة في أشكال ظاهرة أو غير ظاهرة .

وقد قصرنا هنا كلمة « متحضر » على المجتمعات الكبيرة حتى يمكن ادراك مفهومها على الفور كما قصرنا كلمة « حضارة » على الدرجة العالية من التراث الانساني .

وأقدم مجتمعين متحضرين هما المجتمع المصري ، والمجتمع العراقي ، ومن المحتمل أن تكون حضارتهما تلك قد نشأت في وادي نهر النيل ووادي دجلة والفرات على التوالي قبل ميلاد المسيح بخمسة آلاف عام .

وقد نشأ المجتمع الهندي باديء الأمر في وادي نهر السند . حيث يجري النهر مخترقا إقليم السند وإقليم البنجاب ، وفي واد جاف مجاور لنهر السند يطلق عليه اسم وادي « مهران العظيم » .

أما المجتمع الكريتي نسبة الى جزيرة كريت الذي امتد الى صقلية وجزر الهلوبيز وما وراءها فقد نشأ حوالي عام ٣٠٠٠ ق م ، أو قبل ذلك ببعض الوقت .

أما المجتمع الصينى فقد نشأ فى « وادى النهر الأصفر » وعلى روافده فى شمالى الصين حيث يمر النهر بين « شنسى » و « شاتسى » مختزقا اقليم « هونان » ، وليس يعرف على وجه التحديد متى نشأ ذلك المجتمع ، ومن المرجح أن يكون قد نشأ فى النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد .

وثمة مجتمعان آخران فى العالم الجديد ؛ هما : مجتمع أمريكا الوسطى الذى نشأ فى مكان ما داخل منطقة عريضة تبدأ فى الشمال بولايات المكسيك وفيراكروز ، وجوانجاتو ، وميشوكان وجزء كبير من المكسيك يمتد الى جهة الجنوب والشرق ، وهندوراس البريطانية ، وجواتيمالا ، وهندوراس وجزء من سلفادور . وأصبح من الواضح أن ذلك المجتمع قد انتشر كثيرا داخل هذه الرقعة من الأرض منذ الأيام الأولى لوجوده .

ونشأ مجتمع « الأنديز » - على الأغلب - فى وديان الأنهار الثلاثة التى تحتاز الجزء الشمالى من صحراء بيرو الساحلية ، وهى أنهار شيكاما وموش ، وفيرو وأنهار أخرى .

وامتد هذا المجتمع الى وديان ما يقرب من خمسة وثلاثين نهرا تخترق الصحراء صوب الجنوب ، كما امتد الى أعالي سلسلة جبال الأنديز وقد نشأ هذان المجتمعان خلال الألف الثانى قبل الميلاد ومجتمع أمريكا الوسطى فى بدايته ، ومجتمع الأنديز فى نهايته .

واستنادا الى آراء « تويتى » و « الفريد ويبر » أستطيع أن أسمى هذه المجتمعات السبعة « بالمجتمعات المتحضرة الأولى » ، اذ أنها أقدم المجتمعات المتحضرة ويعالج هذا الكتاب كيف نشأت هذه المجتمعات السبعة المتحضرة ؟ ، وبمعنى آخر كيف بدأت الحضارة الانسانية ؟ .

لقد نشأت هذه المجتمعات فى ظروف خاصة جدا ، أهمها تغير المناخ فى مناطق معينة عند نهاية العصر الجليدى الأخير (البليستوسين) وهذه المناطق هى اليوم صحراء جرداء ، وقد دفع تحولها الى هذه الحالة الجافة بعض البشر من سكانها الى سلسلة طويلة من التغيرات الثقافية والاجتماعية ، وإلى الهجرة فى اتجاهات مختلفة ، ترتب عليها كلها تكوين المجتمعات المتحضرة .

أما الفصل الثانى فهو عرض لتغيرات المناخ ، ونشأة ثقافة العصر

الحجرى الوسيط (الميزوليثى) وانتشارها ، ويعرض للزراعات البدائية
التي سبقت تكوين « المجتمعات المتحضرة الأولى » .

أما الفصلان الثالث والرابع فيتضمنان فصلا « فزيوغرافيا »
طبيعيًا للمجتمعات السبعة وبيانات أركيولوجية تلقى ضوءًا على كيفية
استقرار المجتمعات في أماكنها تلك .

ومن الاعتبارات ذات الأهمية الكبرى في شأن أصل هذه المجتمعات
الصعوبة التي واجهها سكان البقاع التي قامت فيها إذ لم تكن تلك البقاع
مأهولة بالسكان بشكل منتظم قبل أن يقد عليها مؤسسو المجتمعات
السبعة أو أسلافهم المباشرين الذين رسخت أقدامهم هناك .

واعتقد أنه خلال عملية الهجرة والاستيطان تكونت ديانات جديدة
في البقاع التي سكنتها هذه المجتمعات .

ويتضمن الفصل الخامس تمحيصًا لصحة ذلك الرأي ، كما يتضمن
الفصل الافتتاحي مناقشة تمهيدية للأساس الذي يقوم عليه افتراض
نشوء الأديان منذ قيام تلك المجتمعات ، ويعد هذا الفصل في حقيقة الأمر
تحضيرًا لمادة الكتاب الرئيسية بشكل أكثر مما اعتدنا أن يكون عليه
فصل التمهيد ، ذلك لأنه من الضروري أن نعرض الظروف التي نشأت
فيها هذه المجتمعات وحقيقتها ، غير أن أيا من هذه الموضوعات ليس
معروفًا لنا معرفة تامة ، كما أنه ليس ثمة اتفاق بين الباحثين حول ما هو
معروف عنها ومن الضروري لتوضيح ذلك بطريقة مثمرة أن نلم سلفًا
بمحتويات الفصول التالية كلما سنحت الفرصة لذلك ، ولن نحاول
أن نلقى بافتراضات جديدة لاتجد ما يبررها فيما بعد في ثنايا الكتاب .

وربما كان كل من المجتمع الهندي والصيني قد مر في ثلاث دورات
متعاقبة من النشوء والازدهار ، ثم الانهيار ، غير أنه من المحتمل أن يكون
المجتمع الصيني قد مر في دورتين فقط ، وما حدث في القرون الأولى
بالنسبة لهذا المجتمع ما زال غامضًا ، ونحن نستخدم كلمة « دورة »
في هذه الدراسة دون أن يكون لها لدينا مضمون ميكانيكي ، أو معنى
رياضي بل باعتبارها كلمة عامة تعبر عن حركات الصعود والهبوط المميزة
للتطور التاريخي للمجتمعات المتحضرة .

وتخلت المجتمعات الثلاثة التي قامت في الجزء الغربي من العالم
القديم عن أماكنها لمجتمعات جديدة ، وبرغم أن المجتمع المصرى والمجتمع

العراقي قد مرا في دورتين معروفتين فمن المرجح أن يكون المجتمع المصري قد مر في شبه دورة ثالثة ، والمجتمع العراقي في دورة ثالثة بالفعل ، تطور فيها شكل الحضارة الى حد يحدو بى أن أغير اسم تلك الدورة الى « المجتمع الايراني » .

والواقع أن توالى الدورات في مجتمعات الجزء الغربى من العالم القديم قد شكل مسألة معقدة تعقيدا كبيرا بفعل عدد من المؤثرات كان اقواها اتصال هذه المجتمعات في امتدادها بغيرها مما أدى الى التشابك والتداخل ، وغالبا ما كان ذلك مصحوبا باستخدام القوة ، فى نطاق واسع وكان من بين نتائج هذا كله توحيد التراث ، وإعادة تشكيكه بين مجتمعين أو أكثر ، وظهور حضارات جديدة ليس ثمة مبرر لأن نطلق عليها أيا من أسماء الحضارات التى انحدرت عنها .

ولقد كان لمجتمعات العالم الجديد مجريات تتميز حتى عصرنا الحاضر بالبساطة اذا ما قورنت بمجريات مجتمعات الطرف الغربى من العالم القديم ، وهى بسيطة اذا ما قورنت بمجريات المجتمع الهندى والمجتمع الصينى .

ان مجتمع الأنديز ومجتمع أمريكا الوسطى لم يبقيا مدة أطول من الدورات الأولى ، وكان كل مجتمع منهما يحتك بالمجتمع الآخر برغم أنهما لم يكونا متجاورين ، ولذلك لم يكن هناك تغلب من مجتمع على آخر ، وقد مر كلاهما بدورى الصعود والازدهار ، ثم أخذا فى الانهيار وقبل ظهور دلائل الانتعاش قضى الاعتداء الغربى على المجتمعين . ومهما يكن من الأمر فانه ينبغى أن نلاحظ أن هذا لايعنى بالضرورة انقراضهما فى التشكيلات الاجتماعية ، ان مثل هذه المسألة قد ظهرت فى العالم القديم وان الاحتكاك الحاد بين المجتمع الغربى ومجتمعات العالم الجديد قد يكون له نتائج خاصة ربما تظهر فى المستقبل .

وإذا كان كل مجتمع أولى متحضر قد تكون باندماج عدد كبير من المجتمعات البدائية فى ظل نوع خاص من البيئة ، فاننا نستخدم هنا اصطلاح « التكتل » للدلالة على عملية التشكيل ، ووجدت عدة أنواع كثيرة من المجتمعات البدائية فى تاريخ البشرية ، وقد اعتمد علماء الانثروبولوجيا استخدام اصطلاحات مثل « العامة والداهما » لتدل عليهم جميعا ، غير أننا فى هذه الدراسة سوف نستخدمها بقدر قليل .

ولقد كانت المجتمعات البدائية التى هى جزء من أصل المجتمعات

المتحضرة من أعظم المجتمعات حضارة فى وقتها ، وكانت تلك المجتمعات تتكون من عشرات أو مئات وربما آلاف الأشخاص فى بعض الأحيان ، ينتظمون على أساس من القرابة على الأقل فى حالة الاستقرار ، وكان فى وسع هذه المجتمعات أن تعيش فى قرى ثابتة ليضع سنين ، غير أن أولئك الذين ضمتهم المجتمعات الأولى المتحضرة ، أو الذين كانوا كذلك الى عهد قريب ، كانوا جميعا من المهاجرين الذين نزحوا من الاماكن الأخرى الى تلك البقاع التى قامت فيها المجتمعات المتحضرة ، وكان جميع أولئك أو معظمهم على وجه التقريب من الذين مارسوا الزراعة .

كان جميع أولئك المهاجرين يعتمدون اعتمادا كبيرا على زراعة الحبوب واختلفت أنواع الحبوب التى كانوا يزرعونها من منطقة الى أخرى ولا سيما القمح والشعير فى المنطقة الغربية من العالم القديم والهند وظهر نوع أو أكثر من الذرة ، وربما ظهر الشعير والارز فى الصين كما عرفت الذرة فى العالم الجديد ، وعرفوا جميعا الحضرات أيضا غير أن اعتمادهم عليها كان يختلف اختلافا كبيرا بين حالة وأخرى .

وفى الواقع اذا استثنينا اعتماد المهاجرين الكبير على زراعة الحبوب فان جهودهم المشتركة كانت متباينة تباينا كبيرا من جماعة الى أخرى . وهكذا لم تكن جماعة واحدة قادرة على عول قراها وسد حاجاتها . تلك القرى التى احتلوها قبل أن يهاجروا الى أماكن جديدة فى المجتمعات المتحضرة - فى المكان ذاته والى وقت غير محدود وذلك بسبب انهالك الأرض بالفلاحة المستمرة . وكانت المدة التى تضطر القرية بعدها للترحال تختلف اختلافا كبيرا بين قرية وأخرى ، ويرجع هذا ، على الخصوص الى نوع التربة كما يرجع أيضا الى طرق الزراعة المتغيرة . ولقد زاد عدد سكان معظم القرى زيادة سريعة الى حد ما ، غير أن معدل الزيادة فى السكان كان متباينا تباينا عظيما بالنسبة للمناطق المختلفة .

وكان فى وسع أقسام من السكان الذين يتزايد عددهم أن يتجمعوا من وقت لآخر غير أن الزيادة المضطردة كانت تتطلب توسعا عاما ، كما أنها أدت الى هجرة مستمرة وخطيرة حتى لقد اضطر بعض السكان الى الارتحال كل ثلاث سنوات ، على حين كان أغلبهم ينتقلون بين فترات متقاربة قد تصل الى جيل أو أكثر .

وقد عرف جميع سكان القرى الفخار ولكنه كان يختلف اختلافا كبيرا فى نوعه وان كان جيدا فى معظم الحالات . كما أنهم صنعوا القماش

المغزول والمنسوج وأدخلوا تغيرات على أساليب الغزل والنسج ، وبقينا أنه لم يكن لديهم جميعا حيوانات مستأنسة ، فمثل هذه الحيوانات فى العالم الجديد كانت قليلة جدا ، أو غير موجودة على الإطلاق فى العالم القديم ، فقد اختلفت أنواع تلك الحيوانات بين منطقة وأخرى وإن كانت كثيرة العدد فى المنطقة الغربية ، وانصرف جميع أهل القرى للصيد واستمروا فيه بعد أن ظهرت المجتمعات المتحضرة . ولكن درجة اعتمادهم على لحوم الصيد كغذاء لهم كانت تتفاوت تفاوتاً عظيماً ، وقد تنوعت مساكنهم وإن كان ذلك أمراً غير بالغ الأهمية بالنسبة لبحثنا الراهن .

وكان لجميع المجتمعات البدائية معتقداتها عن العالم الطبيعى الذى عاشت فيه . وكانت تلك المعتقدات تتطلب وجود قوى مسيطرة خافية على الانسان ، ولكنها مفيدة جداً وعلى استعداد للتدخل إذا ما أتى الانسان أموراً على غير هواها ، وبقينا فإن المجتمعات كلها كانت تهتم اهتماماً عظيماً بحالة القوى المسيطرة وموقفها وبخاصة من نمو النباتات التى يزرعونها .

وعاش سكان (العصر الميسوليثى) والعصر (الباليوليثى) حقيقة فى وادى « كوم امبو » آلاف السنين ، وعاش سكان العصر الباليوليثى (العصر الحجري القديم) بالقرب من «الهندوس» عند «روهرى» و «وسكر» شمالي السند ، وأنه يبدو من المعقول أن ننظر أن سكان العصر الباليوليثى (الحجري القديم) وسكان العصر الميسوليثى (العصر الحجري الأوسط) كانوا يفتقرون الى الأساس الثقافى الذى بدأ منه خلق المجتمع المتحضر ، مهما كانت البيئة التى عاشوا فيها جذابة أو منفرة .

وسوف نعرض للزراعة فى هذا الكتاب على حدة (فى الفصل الثانى) باعتبار أنها مفتاح الابداع الانسانى الذى مهد للحضارة ، على حين لا تعتبر الحضارة فى ذاتها مجرد مجموعة من لمسات الثقافة .

وثمة تحذير ، وهو أن مجتمعات متحضرة قد نشأت داخل بيئات طبيعية خاصة جداً ولكن ذلك لا يعنى أنه فى كل مرة كانت تصل فيها جماعات زراعة الحبوب البدائية الى بيئة كهذه وكان ينشأ عن ذلك قيام مجتمع متحضر .

وهناك أيضاً درجات بين الذين اكتشفوا الحبوب وربما لا يصل بعضهم الى مستهل الحضارة . وإذا كان الأمر كذلك فثمة ما يدعو الى الاعتقاد بأن أساليبهم فى الزراعة لم تكن على الوجه المرضى .

وربما يكون هناك أيضا اختلاف كبير بين الأماكن المتعددة حتى بين الوديان المختلفة للأهوار ، والتي نشأت فيها المجتمعات المتحضرة ، ومثل هذه الانجازات الأولية قد تكون مطلوبة لدى بعض البقاع دون البقاع الأخرى .

والجمل بهذه الفترة أمر يمكن قبوله بسهولة غير أننا نضع افتراضات معينة كبداية لتبديد هذا الجمل . واحد هذه الافتراضات هو ان الناس الأوائل الذين هجروا أماكنهم القديمة الى أماكن ذات نوع خاص نشأت فيها المجتمعات المتحضرة ، من المحتمل أن يكونوا قد فعلوا هذا لأن حياتهم كانت مهددة بالخطر ، ومن المحتمل أيضا أن يكونوا قد هاجروا في حالة ثورة عارمة . واطن أنه يمكن أن نسلم على الأقل بأنه كانت هناك دوافع قوية للهجرة ، وأن المهاجرين على سبيل المثال لم يكونوا أناسا استطاعوا أن يعيشوا معيشة طيبة في موطنهم القديم وكما رأينا فعلا أن الهجرة كانت تحدث في وقت الجفاف ، ولهذا كان احتمال تعرضهم للفناء أكبر .

وثمة رأى آخر يرى أن الهجرة من الموطن القديم الى الموطن الجديد لم تكن سهلة ، وإن الهجرة كانت تتم تحت تأثير مخاوف ساذجة .

ويكاد يكون من المحقق أن بعضهم قد تعرض للكوارث ، وإن بعض جماعات قد فقدت بأكملها في الصحارى وفنيت في الطريق ، غير أن هذا قد يكون ذا أهمية فقط بالنسبة للمجتمعات المتحضرة أصلا ، إذا ما كانت تلك المعلومات قد وصلت الى تلك الجماعات الأخرى التي استطاعت الوصول الى موطنها الجديد بشيء من النجاح .

أما الرأى الثالث فهو يرى أن الهجرة في حاجة الى تنظيم اجتماعي يختلف عن تنظيم المجتمع المستقر ، بل يختلف عن المجتمع المستقر الذي يتوقع أن يهاجر بين وقت وآخر . وقد يكون هذا قليل الأهمية في نتائجه في حالة الهجرات القصيرة ، وقد كانت بعض الهجرات قصيرة وربما قد أضعفت لحد ما الروابط القديمة التي كانت تربط المجتمعات البدائية ، وربما كان للقادة عند الهجرات سلطة أكبر من المتقدمين في العمر من شيوخ العائلة أو القبيلة (١) .

(١) انظر للمؤلف Feudalism in History ١٩٥٦ - الجزء الثالث .

والرأى الرابع يرى أنه لم يكن من السهل الإقامة في المواطن الجديدة على أية حالة ، وهذا يرجع للافتراض الذى سبق أن افترضناه وهو أن الشعوب التى كانت تعيش معيشة أبسط من سواها لم يكن فى وسعها أن تغير كثيرا منها ، وربما تكون قد استوطنت فى تخوم هذه البقاع الجديدة ، وليس فى داخلها تماما كما يظهر ذلك من دراسة الحالات المعروفة فى التاريخ ، وقد بنى هذا الرأى على قدر طيب من الأدلة .

وسوف تعالج مثل هذه الأمور وتدرس دراسة خاصة فى الفصلين الثالث والرابع ، ولكننا هنا فى حاجة فقط الى أن نضيف أن تلك الظروف التى أطاحت بالموطن الجديد ، مهما كان الاختلاف فيما بينها من حالة الى أخرى ، لا يمكن أن تكون قد خففت المخاوف وأنواع القلق والحيرة التى كنا نظن أن المهاجرين قد عرفوها قبل هجرتهم وإبانها حتى لو كانت الظروف تبعث على خلق الآمال فى نفوسهم الى جانب تلك المخاوف أو كانت تلك الظروف الجديدة قد غدت تغذية فعالة الآمال التى سبق وجودها بالفعل ، ولم تكن تلك الظروف فى الوطن الجديد من النوع الذى يشجع انحلالها ، اذ ما كان قد اتخذ أى نظام متطور خاص فى الهجرة من شأنه أن يعمل على تحسينها .

وأخيرا بعد كل ما افترضناه من هذه الآراء المتنوعة عن المخاوف والآمال فانه يمكن أن نطرح قضية تبين أن تطورات جديدة دينية من المحتمل أن تكون قد نشأت فى أذهان المهاجرين قبل أن يتركوا مواطنهم القديمة وإبان هجرتهم وبعد استقرارهم الجديد ، ومن الممكن أن نجد سنداً يدعم تلك القضية فى الأساطير الباقية ، وفى المصادر المختصة بالآثار القديمة ، وسوف نعرض تلك البيانات فى الفصل الخامس . كما أن الأمثلة المشابهة تؤكد تلك القضية .

وأظن أن أكثر الروايات تشابهاً هى الحركات الدينية التى حدثت بين البدائيين فى الأزمنة الحديثة عندما تعرضت حياتهم للخطر . وقد حدث كثير من الحركات الدينية هذه فى أمريكا الشمالية عندما كان « الهنود » هناك يرحلون تحت نير الاستعمار الغربى (٢) .

وقد حدثت بعض الحركات الدينية الأخرى من عهد قريب جدا فى

(٢) انظر Wilson Dallam Wallis واشنطن ١٩٤٣ فى كتابه (Messians, their role in Civilization)

جزر الباسفيكي في أثناء حرب سنة ١٩٤١ مع غزو القوات المسلحة (٣) •

وقد نشأت في تلك الحالات أنواع من القيادات لم تكن رجعية تماما بل لم تكن هكذا قط ، ولكنها بدلا من ذلك قد حاولت أن تجمع بين العادات الجديدة والقديمة ، ومع أن مثل تلك العادات الجديدة في هذه الحالات ، كانت غالبا تؤخذ عن الدخلاء المتحضرين ، ويحتمل البدء بها مباشرة من ممارسة لم يتعلموها اذ لم يكن أناس يتعلمون منهم ، كما حدث للمستوطنين الأوائل في البقاع التي وجدت فيها المجتمعات المتحضرة الأولى •

ويميل الانسان المتحضر تماما مثل سواء الى الاعتصام بحبل الدين عندما يواجه كارثة من الكوارث الكبرى ، وقد نشأت الديانة الجديدة أو أعيد انشاء الديانة القديمة في كل مجتمع متحضر كان يواجه أنواعا متعددة كل منها مزاجم لسواها وتنافسها ، ومن الواضح تماما أن تلك الديانة قد أدت دورا في احياء المجتمع المتحضر ، أو في قيام مجتمع متحضر جديد ، وان الأمثلة المقارنة لقيام مجتمعات متحضرة واضحة وفي متناول اليد •

وقد جاء الدين أو الجزء الأكبر منه ، الى العالم المتحضر عن طريق الانسان البدائي وتلك حالة شاذة نادرة من انتعاش المجتمعات المتحضرة الأخيرة ، ومن الأمثلة الواضحة بهذا الصدد تلك التي تتعلق باليونانيين ، وفي معظم الحالات أخذت بعض مواد لإلاديان الجديدة من المصادر البدائية •

وعند دراسة المجتمع الصيني والمجتمع المصري ، تستطيع أن تخمن تخمينات مقبولة شكلا عن ذاتية بعض القادة وشخصياتهم كما سيجد القارئ في الفصل الخامس ، وبناء على ذلك أعتقد أننا في مأمن من الخطأ عندما نستنتج أن القضية المطروحة لها ما يبررها فقد كان لكل مجتمع أولى متحضر ديانة جديدة ، وذلك عند نشأته أو بعد ذلك بقليل أيا كان وقت أو مكان تلك النشأة ، حتى لو كان المجتمع قد نشأ من عناصر قديمة ، وقام القادة الأفراد بدور كبير في شئون المجتمع •

فاذا ما كان الأمر كذلك فانه يلقي اذن مرة ثانية ضوءا من الأرجحية

(٣) راجع Margaret Mead في كتاب (New Lives for Old) نيويورك ١٩٥٦

على الاقتراحات التي أوردناها فيما سبق عن الظروف التي ترك فيها المستوطنون الأوائل أوطانهم السابقة في البيئات المتحضرة وظروف هجراتهم ، والأحوال التي وجدوها في أوطانهم الجديدة عندما وصلوا اليها .

كيف يختلف المجتمع المتحضر عن المجتمع البدائي ؟

من الممكن أن نقدم اجابات معينة سهلة على هذا السؤال ، وان كانت لا توجد اجابة واحدة منها ، ولا هذه الاجابات كلها مجتمعة تعتبر الاجابة الكاملة الشاملة . اننا سنقدم في هذه المرحلة العاجلة من هذا البحث قائمة سريعة مختصرة عن الاختلافات المعروفة أكثر من سواها ، وسنعود مرة أخرى في نهاية الكتاب اليها .

ان أول وأسهل اجابة هي أن المجتمع المتحضر أكبر كثيرا من المجتمع البدائي بمئات او الوف المرات ، ويمكن القول أيضا بأنه أكثر تعقيدا ، ولكن هذه الزيادة في التعقيد ، انما هي مجرد ضرب من ضروب الفروق الأخرى التي يعد الاختلاف في الحجم أحد هذه الفروق الرئيسية . وبعض الاختلافات الأخرى ومعظمها أيضا أصبحت مجرد اختلافات كمية : فان المجتمع المتحضر يكتسب معرفة عن العالم الطبيعي أكثر من المجتمع البدائي ، ويمتلك أجهزة أكبر ويمتلك ثروة أضخم بالنسبة لكل فرد من السكان وهلم جرا .

وهناك بعض الصعوبات حول معظم المقاييس التي كان من المألوف استخدامها لتمييز المجتمع المتحضر عن المجتمع البدائي فليس من الصحيح مثلا أن نقول ان جميع المجتمعات المتحضرة قد عرفت « الكتابة » حتى لو كان من الصحيح القول أنه لم تكن هناك كتابة عند أي مجتمع بدائي (٤) .

ولم يكن عند مجتمع (الأنديز) أية طريقة صحيحة للكتابة ، كما كانت هناك مناطق في مجتمع أمريكا الوسطى نادرا ما مارست الكتابة بشكل جدي ، وفضلا عن ذلك فان الكتابة قد ظهرت في أزمنة مختلفة

(٤) حاول «هين - جلدزن» أن يثبت في بحثه أن جميع حروف الكتابة في العالم القديم يمكن ارجاعها الى شعب عرف الفخار الرمادي والاسود المصقول وعاش في الجزء الشرقي من آسيا الصغرى منتشرا من تلك البقعة الى جهات كثيرة في النصف الاخير من الألف الرابع قبل الميلاد ، غير أن «ديرنجر» وغيره يشككون في ان اختراع الحروف كان نملا في مجتمع العراق الا انني اظن ان مثل هذه الحروف قد اخترعت في مجتمع ما بين النهرين (العراق) .

جدا في التطور التاريخي لمجتمعات متحضرة مختلفة . لقد تطورت الكتابة في مجتمع العراق ببطء في زمن الولايات الصفري عندما لم تكن الادارة تمثل مشكلة عويصة على أنه في المجتمعين المصري والكرتي استعملت الكتابة بسرعة نسبيا عندما وجدت المجتمعات التي تسعى الى الوحدة (٥)

اننا اذا اقتفينا أثر الكتابة لنرجع الى أصلها فانه من المحتمل أن يؤدي بنا هذا البحث الى ابتكارات في فن تقوية الذاكرة ، فهناك علامات عن الصيد حفرت على الأشجار أو الاحجار وعلامات على القدور ، ورسوم تقليدية على الأشياء تشير الى أماكن الاجتماعات وما الى ذلك ، وكل هذه قد وجدت في المجتمعات البدائية ، ويكاد يكون من المؤكد أنه مازال صحيحا القول بأن المجتمعات البدائية لم تعرف الكتابة ، غير أن الذي حدث في معظم تلك المجتمعات المتحضرة وليس في كلها أنها من نوع واحد ، تقوم فيها العلامات بنقل معلومات بسيطة ثم نمت كليا حتى برز نوع آخر ، ولا بد أن نقول ان تغير الكم أدى الى تغير في الكيف ، وهذا هو موضوع الأهمية الحقيقية بوجود الكتابة في معظم المجتمعات المتحضرة ، ولعدم وجودها في المجتمعات البدائية .

ويدلنا الفصل على وجود المدن والعواصم في المجتمع المتحضر وليس في المجتمع البدائي ، وقد يحدث في بعض الأحيان أن يزعم المؤلفون أمورا لا يستطيع قبولها ، فمن المحتمل أنه لم يكن هناك مدن في المجتمعات البدائية قبل أن توجد المجتمعات المتحضرة وان كان هذا القول لا يعتبر حقيقة يقوم عليها دليل ، وربما وجدت قرى كبيرة في الشرق الأدنى قبل ظهور الحضارة به (٦) . ومن مجتمع أمريكا الوسطى التي الشك على التمييز بين المجتمع المتحضر والمجتمع البدائي ، وذلك لأنه من الواضح أنه في جزء «ما» من ذلك المجتمع وكان جزءا متقدما لم يكن فيه ما يمكن أن يوصف حقا بأنه «مدينة» ولكن معظم المجتمعات المدنية كانت بها « بلدان » وقليل من المجتمعات كان بها عدد قليل من

(٥) فيما يتعلق بمجتمع العراق والمجتمع المصري راجع H. Frankfort في مؤلفه « مولى الحضارة في الشرق الأدنى » لندن ١٩٣٩ (ص ٢٩ - ٥٠ صفحة ١٠٥ - ١٠٨).

(٦) ثارت مناقشة بين «كالين كينيون» و«روبرت بريدود» وآخرين حول ظروف وتاريخ استيطان «أريحا» في ثورات مبكرة وليس بين بقاياها أية أوان فخارية يؤكد «كالين» ان جريكو عرفت الحضارة وينكر «تشايلد» انها كانت في مستوى «المدنية» ويرى «بريدود» بحفظ انها كانت «قرية كبيرة» .

هذه البلدان ان لم تكن خلوا منها تماما ، وتندرج من هذا الى القول بأن أساس الحضارة يكمن فى هذه الحقيقة التى تقضى بأن المجتمع «بلادا» وهى حقيقة تتطلب كثيرا من الفحص والتمييز (٧) ، ان عددا من القرى فى المراحل الأولى من تطور المجتمع المتحضر قدر لها أن تنمو فتصبح « مدنا » قد بدأت عادة فى زمن مبكر تماما لتظهر فيها خصائص المدينة، ومن ثم كانت تصلح فى تشخيص ظهور الحضارة ، ولكن الحضارة فى واقع الأمر كانت فى كل الحالات قبل أن تظهر المدن الصغيرة .

وثمة تمييز واضح بين المجتمعات المتحضرة والبدائية وهو ليس فارقا من حيث الكم فقط فان المجتمعات المتحضرة كلها خاضعة لحركة دورية من النشوء والانهياء فى غضون تطورها . ولكن لا توجد حركة مماثلة تحدث فى تطور المجتمعات البدائية ، ان الايقاع المتوقف على الفصول يؤثر طبعاً على جميع المجتمعات البدائية ولكن الحركات الدورية للمجتمعات المتحضرة ذات فترات زمنية تقدر بألف السنة .

ولقد أبان « سوروكين » أكثر من أى باحث آخر أهمية هذه الحركات (٨) .

ويحلل « سوروكين » الدورة الى ثلاثة أطوار يميز فيما بينها على حسب اصطلاحاته الخاصة . أما هذه المراحل الثلاث فلا تتطلب دراسة وثيقة فى هذا الكتاب ولكننا سنأتى على ذكرها فى الوقت المناسب . وهى عصر الايمان وعصر العقل و « عصر الانجاز » (٩) .

وثمة عاملان كميان على درجة كبيرة من الأهمية يدخلان ضمن هذا التفاوت فى التطور بين المجتمعين المتحضر والبدائي ، وهذان العاملان بمثابة اختلاف عظيم فى معدل التغيير وفى التحكم فى البيئة الطبيعية . ولا يكاد يكون قد حدث تغيير فى كثير من المجتمعات البدائية لآلاف السنين

(٧) هذا ما يوحى به كتاب «الانسان يصنع نفسه» لـ «ج . تشابلد» نيويورك ١٩٥١ وكتاب « ماذا حدث فى التاريخ » لـ فرانكفورت نيويورك ١٩٤٦ .

(٨) راجع كتاب (Social and cultural dynamics) لـ «سوروكين» نيويورك ١٩٤١ .

(٩) يستخدم «سوروكين» اصطلاحات علم النفس والاجتماع فى ابحاثه من الحضارة ، ويرى ان هذه المراحل الثلاث حدثت فى تطور الحضارة الاغريقية الرومانية والحضارة الفريسية ، وانا أطبق هذا الفهم على جميع الحضارات ويرى «فيلكو» ان هناك عمورا أخرى « كمصر الالهة ، وعصر الإبطل ، وعصر الانسان » .

على حين أن المجتمعات المتحضرة لا تبقى دون تغيير حتى لعدة قرون ، وعلى وجه العموم تستطيع المجتمعات البدائية أن تبقى دون تغيير طالما تساعدنا بيئاتها على ذلك . ولكن إذا تغيرت بيئاتها ذاتها فإنه ينبغي على هذه المجتمعات أن تتلاءم مع التغيير والا هاجرت أو اندثرت ، وأنه لأمر استثنائي للإنسان المتحضر أن يتراجع أمام التغير الذي يحدث في بيئته هذا وإن كان قد حدث ذلك فعلا وهو ينجح عادة في جعل بيئته تتلاءم معه . كما أنه لم يحدث للإنسان أن مجتمعا متحضرا قد اندثر سواء كان ذلك لأسباب تقع في بيئته أو عن طريق أى سبب آخر . فإنه في أسوأ الظروف يتحول الى مجتمع متحضر جديد .

اذن في المجتمعات المتحضرة صفة ما تفتقر اليها المجتمعات البدائية وهذه الصفة من شأنها أن تدفع التطور بسرعة وأن تسيطر على البيئة الطبيعية وتعتبر عن نفسها في حركة النمو والانهايار الدورية .

ويميز « كروبير » في محاضرة له بمناسبة ذكرى (هكسلي) عام ١٩٤٥ بين أسلوب حضارة ما ومحتواها الثقافي والقيم التي تصل اليها من وقت لآخر . (١٠)

ولن نهتم كثيرا بالقيم في هذه الدراسة فإنها حتى لو كانت كافية في حضارة منذ نشأتها فإنها لم تتطور الا قليلا في ذلك الحين ومع هذا فإننا نهتم أساسا بالأسلوب والمضمون .

بما أن أسلوب الحضارة ينظر اليه من ناحيته الجمالية فهو يظهر في كل ما ينتجه المجتمع أو يقوم به بتفوق في فنونه وكذلك في فكرته وسياسته ومؤسساته وتقاليده وفي جميع طرقه .

وأنه من الممكن أن نكيف أسلوب المجتمع وأن نشرحه ونقدر قيمته ومع ذلك لانستطيع أن نصفه عموما فهو بمثابة الأسلوب الصيني لكل ما هو صيني والأسلوب المصري لكل ما هو مصري والأسلوب الغربي لكل ما هو غربي ، يتغير مع الزمان والمكان ومع هذا يبقى ظاهرا دائما باعتباره نتاجا للمجتمع ذاته ، ويستطيع كل من عرف أسلوب أى مجتمع متحضر أن يميزه أينما وجد لأنه علامة على شخصية المجتمع . ولهذا فإن الأربعة عشر مجتمعا المتحضرة التي سردناها فيما تقدم يمكن تمييز بعضها عن

(١٠) راجع A. L. Kroeber في مؤلفه (طبعة التراث) شيكاغو ١٩٥٢ - محاضرة من هكسلي ، نشرت بجريدة المعهد الملكي للانثروبولوجيا بعنوان : (Style and civilization)

بعض بالأساليب الخاصة بكل منها . فهذا هو معيار الكيان الفردي الذى نستخدمه فى هذا الكتاب وإن جميع الآراء والبراهين التى تتجاهل أو تقلل من قيمة هذه الحالة من الكيان الفردي لا يمكن قبولها باعتبار أنها خاطئة .

إن المضمون الثقافى للحضارة هو ما يسميه اختصاصيو الانثروبولوجيا ملامح الثقافة أو أشكالها المركبة ، مثل الحرف والنسج وصناعة الفخار ، ولامح نظرية مثل الكهانة والسحر والفن وربما كثير من الأشياء المجردة والغامضة التى لا يتيسر للعلماء تمييزها بسهولة ولامح الثقافة ومركباتها يمكن أن تنتشر من مجتمع لآخر بين المجتمعات المتحضرة والبدائية كالحال بين المجتمعات المختلفة .

إن كل مجتمع يخلق ميزة من ميزات الثقافة أو يتلقاها من مجتمع آخر يطبع علامة أسلوبه ذاته على نتائج تلك الميزة ، ومن هنا يبدو نتائج المجتمعات مختلفا لمدة وجيزة ، فيما عدا أن يكون المجتمع قد اكتسب الميزة حديثا .

ويمكن أن يحمل الانتشار مركبات كبيرة أو ملامح صغيرة من مجتمع الى آخر وعلى حسب ما يقول به كروبير (١١) فإن الانتشار يمكن أن يحمل مجرد « باعث » من مجتمع الى آخر أعنى فكرة شاملة دون أى تفاصيل ، ويمكن أن يكون ذلك الانتشار حتى فى العالم كله إذا ماترك له وقت كاف ، وإن كان من النادر حدوث انتشار على نطاق العالم فى أزمنة ما قبل التاريخ المتأخر التى يعنى بها هذا الكتاب ، وكثيرا ما يكون من الصعب أن نعرف : هل يعزى ظهور ميزة بعينها فى مجتمع معين الى الانتشار أو الى اختراع مستقل ؟ ولكنى أميل الى ترجيح الانتشار حيث هناك شك .

إننا قد بلغنا فى بحثنا حتى الآن الى أن نتعلم قليلا عن المجتمع من وجود ثقافة لها ميزات خاصة حتى معظم المميزات لا تبين : هل المجتمع كان متحضرا أو بدائيا ؟ إن وجود الكتابة والمدن يبعث اقتراحنا بقيام الحضارة ، ولكنه لا يقيم الدليل على ذلك ، والقاعدة العامة أن الميزة الخاصة أو « المركبة » لا تحمل فى ذاتها أى معلومات عن مجتمع له تلك الميزة الخاصة ماعدا ما يتعلق بوجوده هو ذاته فى التراث وفى حالة

(١١) راجع مؤلفه الذى اشرنا اليه سابقا . (Nature of culture)

نمو المجتمع بسرعة وتحركه تاريخيا في دورات النشوء والانحسار
يكون المجتمع مجتمعا متحضرا •

ويمكن تمييز أى مجتمع سواء أكان متحضرا أم بدائيا عن طريق
أسلوبه •

وينبغي أن نفترض أن المضمون التراثى منذ تأسيس المجتمعات
السبعة الأولى قد جلبه المستوطنون من المهاجرين الى هذه البقاع ومع هذا
فالقريب الى المنطق أن المؤسسين سرعان ما أوجدوا عدة خبرات خاصة
لازمة للنوع الجديد من الحياة التى ينمونها فى البقاع التى أوجدوها
لأنفسهم ، وكانت هذه الخبرات تحتل مكانا هاما فى التراث ، وقد تلقوا
الملامح والأشكال التى تفشت من المجتمعات المتحضرة والبدائية على
السواء من وقت لآخر ، ولكن لا يوجد أى دليل على أن أى مجتمع من
المجتمعات السبعة قد بدأ كمجرد مستعمرة كاملة بضمون ثقافتها
والأسلوب والقيم الفطرية أو الكامنة التى جاءت من مجتمع متحضر آخر
بل على العكس فانه يوجد دليل واضح على أن كل مجتمع قد بدأ بشكل
مستقل وأوجد أسلوبه المتميز الذى يختلف عن أسلوب أى مجتمع آخر
اختلافا ظاهرا للعين المجردة •

وتأكدت البداية المستقلة لأربعة مجتمعات من المجتمعات السبعة
المتحضرة الأولى بالأدلة التى قدمها علماء الآثار عن هجرة الشعوب
واستيطانها فى المواضيع التى اختاروها ، كما أن الاستدلال على هجرات
مماثلة واستيطان مماثل أمر من الصعب تأييده بالنسبة الى ثلاثة
المجتمعات المتحضرة الباقية •

وهناك اعتقادات باطلة رائجة حول هذه الأمور الأساسية ، وهذه
الاعتقادات تنهار من تلقاء ذاتها عندما تصل بها الى نتائجها المنطقية ومن
الضرورى أن تمضى مع هذه الاعتقادات حتى تتبين صفاتها •

ومن بين هذه المذاهب المذهب الذى ذكره «السير مور يترهويلر»
ومفاده أننا نجد أصل المجتمع الهندى فى مجتمع العراق ، إنه يبدو
لأول نظرة أنه مذهب ممتع لأن هويلر يقدم رأيه بقوله : ان الآراء لها

أجنحة (١٢) ويقول ان فكرة الحضارات جاءت الى بلاد الهند من أرض
النهرين التوأمين (العراق) (١٣) .

وعند الفحص نجد أن الفكرة تتحلل الى سلسلة من الأفكار
المختلفة : فكرة الكتابة وفكرة البصم وغيرها من الأفكار ، والفكرة المجردة
فقط هي التي يشترك فيها المجتمعان في كل حالة على حين تختلف
تفاصيل التطبيق ولا حاجة بنا للاعتراض على هذه الحجة باعتبار أنها
مجرد حجة لاقامة نظرية وذلك لأنها أثارت فكرة الانتشار عند «كروبير» .

غير أن تطبيق هويلر للنظرية خطأ ، فان فكرة الحضارة عنده انما
هي تركيب معقد جدا من آراء معنوية بحتة تتعلق كلها ببعضها ببعض
وهي على هذا تكون صعبة التصديق وهو يفترض أنها قد جلبت من
العراق وغرست في الهند تماما كما يجيء أى شيء من البلاد الأم الى
المستعمرات (١٤) .

وأمر كهذه ليست قليلة الوقوع في التاريخ ولكنها عندما كانت
تحدث فإن (الوطن) لم يكن يتلقى من الوطن الأم الأفكار وخصائص
الثقافة وحدها بل كان يتلقى أيضا أسلوب البلاد الأم - وهذه حقيقة ذات
أهمية كبيرة .

ولما كان الأسلوب الهندي يختلف تماما عن أسلوب العراق (١٥)
فإن الفكرة تفقد أهميتها .

وثمة رأى زائف آخر ذو أهمية محققة وهو ما يذهب اليه ج .
تشايلد . أن هذا الرأى يسمح بوجود أصل مستقل لكل من مجتمعات
الوادي الثلاثة . المجتمع المصري . والمجتمع العراقي . والمجتمع الهندي
ولكنه يعرض الفكرة على أن تلك المجتمعات في عهد حكم الملوك والكهنة
قد ادخرت الثروة الفائضة من المواد الغذائية التي أنتجها الفلاحون كي

(١٢) انظر هويلر في مؤلفه (Archaeology and the transmission of Wheeler ideas)
١٩٥٢ صفحة ١٥٨ .

(١٣) راجع أيضا The Cambridge History of India كنموذج ١٩٥٣ فصل
The Indus Civilization

(١٤) راجع هويلر في مؤلفه (إيران والهند فيما قبل الاسلام) وكتاب (الهند حتى عام
١٠٠٠ قبل التاريخ مجموعة Pelican

(١٥) كما يقرّر: Mallowan في عرضه لكتاب هويلر بعنوان (Antiquity) عام ١٩٥٠ .

يصبح رأس مال لجميع النواحي الاقتصادية التي يحتاج إليها المجتمع المتحضر ، ومن بين هذه النواحي التجارة مع المجتمعات الأخرى للحصول على المواد الخام التي كانت تفتقر إليها تلك الوديان في جميع الحالات ، وهكذا حصلت المجتمعات الأخرى التي كانت بدائية في أول الأمر على رأس مال أولى لذاتها ، وبهذا أصبحت قادرة على تحويل ذاتها الى مجتمعات متحضرة . ويقول ج . تشايلد أن هذه ليست من قبيل نظرية (الشبيه يلد الشبيه) ومن المحقق أن المجتمع الكريتي وغيره من المجتمعات الأخرى التي جاءت فيما بعد كانت تختلف عن أسلافها الشهيرة أكثر من اختلاف تلك المجتمعات فيما بينها . واننا حتى اليوم نستخدم التقويم المصري وتقسيم اليوم والساعة الذي عرف في بلاد العراق (١٦) على عهود السومريين ، والثروة الثقافية بها من الناحية اللفظية رنين ماركس ، غير أنه في واقع الأمر تعتبر التقاويم وما على شاكلتها ملامح من الثقافة ضمن المعنى الانثروبولوجي العادي لذلك الاصطلاح ، على حين أن القول بانتقال الثروة الثقافية من مجتمع قديم الى مجتمع جديد ليس من قبيل حالة (الشبيه يلد الشبيه) فهو تسليم بطريقة مهذبة بأن افتراض خصائص ثقافية ليس كل ما يحدث عندما يتكون مجتمع جديد . وفي الواقع فإن هذا الرأي لا يدخل ضمن الخدمات الجليلة التي أداها ج . تشايلد للتاريخ، إذ أنها لا تضيف الى معلوماتنا شيئا جديدا بل انها تحذف أكثر من أن تضيف .

وفوق ذلك فإن هذا الاعتقاد ليس من قبيل عملات المذهب المادى الصعبة فانه عندما يحل رأس المال الثقافى محل رأس المال المالى فإن ماركس يكون قد انقلب معيساره ، ويكون هيجل قد استرد جولته وهذا على حد تعبير « كروفورد » فى رثائه لجوردون تشايلد .

ومع ذلك فإن عقيدة تشايلد تبدى بالفعل اهتماما كبيرا بالأمور المادية لأنها فى آخر الأمر عقيدة تتطلب بحكم الضرورة طبوغرافيا معينة لا تنظر فى أوصافها المميزة الرئيسية لأصل المجتمعات المتحضرة أى « طبوغرافيا » وديان النهر العظيم .

وسنقيم الدليل فى هذا الكتاب على وجود احتمال قوى بأن العامل الطبوغرافى كان أكثر تغيرا من هذا ، وعلى ذلك فإن اشتراك العقل

(١٦) برغم أن ج . تشايلد يزعم أنه ماركسي فانه كان رجلا عظيما حقا كما كان مفكرا أصيلا في تفكيره الى الحد الذى يمكن أن يقال انه لا مثيل له .

البشرى فى خلق المجتمعات المتحضرة الأولى كان عاملا أعظم أهمية من العامل الطبوغرافى .

وينبغى أن نلاحظ أن كلا من (تشايلد) و (هويلر) يؤيدان عن غير قصد ما أدركه (كروبير) من أن المضمون الثقافى هو كل ما تشتمل عليه الظواهر الطبيعية للحضارة . وتشايلد يفعل ذلك عندما يسلم بأن (الشبيه لايلد الشبيه) وعندما يبحث هويلر فى جعل الحضارة مجرد فكرة وكلاهما يدرك ادراكا غامضا الاختلافات الحيوية ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك أنه اختلاف فى الأسلوب .

ويظهر أمامنا « روبرت هين جلدن » فى حاشيته أسفل إحدى الصفحات بقوله : ان الحضارة عبارة عن « ملامح من الثقافة » وأن الحضارات كلها واحدة ونشأت فى الشرق الأدنى من العالم القديم . وهو يعتقد أن كل شئ يعنيه باعتراضه على أنه لا يقصد أن يقدم نظرية بسيطة كالتى قدمها « اليوت سميث ويرى » (١٧) .

وقد قام هين - جلدن بعمل قيم حينما أظهر نظرية الانتشار فى الشرق الأدنى (١٨) كما بين بعض هذا الانتشار بالإشتراك مع «جوردون ايكهولم» تحت عنوان (من العالم القديم للعالم الجديد) (١٩) .

وأيا ماكان الأمر ، ففى اعتقاده أنه لم يظهر أى شئ حول أصل أى مجتمع من المجتمعات الأولى المتحضرة ، بل أنه على عكس ذلك لم يجلب على هذه المسألة سوى التهويش (٢٠) .

وفى واقع الأمر ليس من الضرورى هنا أن نتابع هين جلدن الى أكثر من هذا . فانه يختلف عن هويلر وتشايلد ، فهو لم يدرك اختلافات الأسلوب ويظن أنها مجرد اختلافات فى التفاصيل ليست بذات أهمية . ان الانتشار لاشأن له بأصل المجتمعات المتحضرة الأولى ولا دخل له

(١٧) راجع مجلة Diogenes المجلد ١٢ صفحة ٨١ - ٩٩

(١٨) راجع China, die ostkaspische Kultur und die herkunft der Schrift

(١٩) راجع Memoirs of the society for American archacology

المجلد ٩ سنة ١٩٥٢ (صفحة ٧٢ - ٨٩)

(٢٠) راجع An early archacological site near Panuco, Vera Cruz

فيلادلفيا ١٩٥٢ - الجزء الخامس ابتداء من صفحة ٥٣٩ .

بأى مجتمع من المجتمعات المتحضرة ، ان الانتشار الذى حمل معه ملامح التراث وبخاصة للمجتمعات المتحضرة الأولى لم تكن له أية علاقة بأصلها لأنه قد حدث بعد نشأتها بالفعل ، والانتشار الذى كان هاما بالنسبة للمجتمعات المتحضرة الأولى هو الانتشار الذى حدث قبل نشأتها ، ونشر معه كثيرا من خبرات العصر الحجري الوسيط كل أنحاء العالم وعددا من التجارب الزراعية الأولى فى مناطق كبيرة . كانت المهارة الثقافية للشرق الأدنى من العالم القديم ذات أهمية كبيرة ، ولكن لم يكن لها أى أثر مباشر على أصل المجتمعات المتحضرة بالطريقة التى يعتقدونها هين - جلدن *

أما ابتكارات الشرق الأدنى فى العصر الحجري الوسيط والاختراعات الزراعية فى الشرق الأدنى وفى الأجزاء الأخرى من العالم فسوف نعرض لها فى الفصل الثانى .

(*) رأى الكاتب هنا هو أحد الآراء ويعارضه فيه كثير من علماء الحضارة (الترجمة)

الفصل
الثاني

المجتمعات
الزراعية
الأولى

ظل جزء من البشرية ردحا من الزمان
قراءة ألف سنة أو أكثر قبل ظهور
المجتمعات الأولى المتحضرة قائما قبل انقلاب مناخ العالم
الذى أعقب العصر الجليدى الأخير فى الحقبة الجيولوجية
الرابعة (١) •

وكان الجزء المشار اليه يشمل المناطق التى كانت
أهلة بالناس - وهى مناطق الشرق الأدنى والأوسط من
العالم القديم ، وربما امتدت تلك المناطق من حدود
الصحراء غربا الى إيران شرقا •

لقد كانت تلك البلاد فى سبيل تقدمها من الجفاف
الطويل ، كما تقدم - بقدر ما تسمح به المرحلة الجديدة
من المناخ الذى كان آخذا فى التحسن • لقد أدخل
هؤلاء الناس سلسلة كاملة من طرق المعيشة خلال
نضالهم من أجل البقاء ، وتلك الأساليب الجديدة فى
المعيشة هى التى كان الباحثون يطلقون عليها العصر
الميسوليثى (الحجرى الوسيط) والعصر الزراعى •

وفى واقع الأمر ، كونت هذه الاختراعات سلسلة
غير متقطعة ، وبلغت الأعمال ذروتها فى نهاية هذه
السلسلة (٢) •

وجاءت الذروة مع تطور زراعة الحبوب البدائية ،
وهى من أنواع الزراعة المبكرة جدا ، بل ربما كانت
أقدمها فعلا • وهذا العمل العظيم قد وضع الشعوب
التي قامت به فى المقدمة بالنسبة للنضال الذى شنته
ضد التلف الطبيعى فى مناطقهم ، ولكن لم يمض طويل

(١) راجع Dating the Past F.R. Zeuner لندن ١٩٢٦ صفحة ١٤٥ •

(٢) وجدت فترات دون شك قبل هذه الفترات •

وقت بين بداية النضال ونهايته حتى بدأت تظهر الجماعات المتحضرة الأولى .

لقد قيل في الفصل الأول : ان تلك المجتمعات البدائية التي كانت تشغل بالزراعة تعتبر أساسا لجميع المجتمعات المتحضرة ، غير أن الزراعة كانت فقط ذروة اختراعات العصر الحجري الوسيط ، والمجتمعات الزراعية تضم معظم الاكتشافات التي ترجع للعصر الحجري الوسيط خصوصا حرف ذلك العصر .

وهذه الحرف تعتبر أيضا جزءا من التداخل بين المجتمعات المتحضرة لما يبدو هذا واضحا وضوحا تاما من الحقيقة التي تقضى بأن معظم أدواتنا اليدوية ، حتى اليوم هي أدوات العصر الحجري الوسيط مع استخدام الحديد أو الصلب مكان الحجر أو العظم أو الخشب .

ولقد حلت الاختراعات البدائية الزراعية التي ترجع الى العصر الحجري الوسيط الواحدة مكان الأخرى ، كسلسلة من الموامة مع البيئة . وهي تشغل بلا ريب وتكون عصرا خاصا في العمل البشرى وخط السير في الحياة ، فإذا كانت هناك عصور سابقة لها ذات طبيعة عامة فإن الأعمال العظيمة التي قامت بها كانت تقل كثيرا عن هذه الأعمال الى حد أنه يمكن أن تعتبرها متعلقة بنوع أدنى . ان موامة العصر الميسوليثي والزراعي المبكر تظهر من الموامة مع البيئة التي قد تكون قد وصلت الى أعلى درجة ممكنة ، ومن المعقول أن نعتقد أن تجربة عمل التغيرات الثقافية تدريجيا كى تطابق تغيرات البيئة المنتظرة قد أصبحت جزءا من الثقافة ذاتها . وأن ثقافة المجتمعات المتحضرة تتباين تباينا حادا مع هذا النوع من الثقافة .

ان نظرة واحدة الى خريطة العالم القديم تبين منطقة صحارى غير متقطعة ممتدة من الشرق الى الغرب بعرض نصف الكرة الأرضية الشمالى كذلك نجد الصحراء فى أقصى مكان من جهة الغرب ، أما « جوبى » فى أقصى مكان لجهة الشرق . وبين الشرق والغرب صحراء ليبيا والصحراء العربية وشبه صحراء ايران وصحراء النار فى الشمال الغربى من الهند . وصحراء كاراكوم وتكلا مكان شمالى ايران والهند ومناطق الاستبس فى شمالى كاراكوم .

وفى هذه الصحارى أو بالقرب منها نشأت مجتمعات (وادى النهر) الأربعة المتحضرة الأولى فى العالم القديم ، كما أن الصحارى لها علاقة

وثيقة أيضا بالظهور السابق الطويل المستمر لمجتمعات العصر الميسوليثي والمجتمعات الزراعية الأولى ، ولم تكن الصحارى ذاتها من أصل واحد منتظم كما يظن من تسلسلها عرضا على الخريطة فقد كان العامل المشترك في وجودها هو الرياح الشديدة الجفاف السائدة التي تهب من الشمال بعرض المساحات الشاسعة من الأراضي والبحار الباردة (٣) ولكن فيما خلا ذلك كانت تلك الصحارى تختلف اختلافا كبيرا فيما بينها فكانت « جوبي » وتكلامكان وكاراكوم وايران من الصحارى الباردة ، وربما كانت أقل جفافا عند أعلى درجة من التجمد مما كانت في معظم الأزمنة الأخرى (٤) أما صحراء « ثار » فهي صحراء غامضة (٥) .

ان جميع الصحارى الغربية سارت في تذبذب غير معروف يعد من أعظم ما أصاب صحارى الشرق ، لقد ظلت الصحارى الغربية قائمة غير أننا نجد أنها قد انكمشت بشكل ظاهر عند درجة التجمد القصوى ، وانحصرت في المناطق التي هي أقل جفافا ، من أقاليم السافانا والاستبس وذلك لأنها كانت تتلقى الأمطار من رياح المحيط الاطلنطي التي تمر في الوقت الحاضر فوق أوروبا وتتخطى منطقة الصحراء (٦) .

لم تكن أقصى درجة للثلوج الأخيرة عظيمة وكذلك لم يكن تأثيرها عظيما ، ومع هذا فإن الأطراف الشاسعة للصحارى الغربية وجميع الواحات فيها قد أصبحت وقتئذ أكثر اتساعا عما كانت عليه ، وعلى ذلك فإن الطرف الشمالي من صحراء ليبيا وجزءا كبيرا من الصحراء كان بها مساحات كبيرة مأهولة بالشعوب التي تعيش من وراء الصيد والشعوب التي تميل للتجمع والحياة الاجتماعية .

وعلى ذلك فعندما انحسرت الثلوج وقلت الأمطار انكمشت أطراف الصحراء وحواشيتها والواحات وتعرضت الشعوب التي كانت تعيش فيها للخطر بشكل كبير .

أما في حالة ايران التي بأقصى الغرب من الصحارى الباردة فإنها تختلف عن ذلك ، ويتبين من دراسة حديثة قام بها « بوبك » أن مياهها كانت أوسع امتدادا في عصر التجمد الثالث مما هي عليه اليوم وأكثر أهمية

(٣) راجع E. Antevs في The last glaciation بنيويورك ١٩٢٧ صفحة ٢٤ - ٢٥

(٤) راجع « انغر » في مؤلفه السابق صفحة ٤٠ - ٤١ .

(٥) راجع Arid Zone Research باريس ١٩٥٥ (صفحة ٢٥)

(٦) راجع C.E.P. Books في مؤلفه « تطور المناخ » لندن - نيويورك ١٩٢٥ صفحة

اذ أنها تحملت الجفاف لبضعة آلاف من السنين فأصبحت أكثر جفافا مما هي الآن ، على حين كانت الصحارى المجاورة للغرب تزول أمطارها (٧) ويرجع « بريك » فترة الجفاف في إيران من حوالي ٩٠٠٠ الى ٤٠٠٠ قبل الميلاد وما هو أبعد من ذلك وهكذا فربما يكون الجفاف قد بدأ هناك بعد أن بدأ في الجزء الغربى بزمان أطول .

وتدلنا مصادر أخرى على أن جميع الصحارى الباردة شرقى إيران عانت من الجفاف في الوقت السابق نفسه كما عانته إيران ، ومع هذا فإنها فى الأزمنة التى سبقت ذلك أصبحت أكثر رطوبة لعدة آلاف من السنين الى درجة كبيرة وهكذا بدأ الجفاف هناك بسبب ظرف رطوبة استثنائى (٨) ان الحجة بأنه كان لا يزال فى هذه المنطقة أو تلك مطر عند التقاء المجتمعات المتحضرة أو عند التقاء سابق فى المجتمعات البدائية المتقدمة ليس معناها بالضرورة أن الحياة قد استمرت على حالتها التى كانت عليها فى الماضى ، ان بيت القصيد هو أنه برغم وجود أمطار كثيرة هناك فى هذا الوقت أو ذاك فإنه كانت هناك أمطار أقل مما كانت من قبل ، ما لم يكن بالامكان أن يتقرر بطريقة حاسمة أنه كانت فى زمن أو عدة أزمنة حركات عكسية بعيدة الانتشار وهذا مالم يثبت حتى الآن . (٩)

وإذا كانت هناك ذبذبات أقل مما كانت فى ذلك الحين فإن الشعوب التى كانت تعيش فى ذلك الاقليم لابد أنها كانت تحت ضغط مستمر . وفى ظروف الضغط هذه فى منطقة الشرق الأدنى بدأت الصناعات الجديدة الخاصة بالصيد فى العصر الميسوليثى ، كما بدأت الزراعة فيما بعد والتي ظلت فى تحسن واطراد . وكان هذا سلسلة بسيطة من الأثر والتأثير (١٠) بدأت فى الصحارى الغربية التى نشأ فيها الجفاف من قبل وكان أشد قسوة (١١) .

(٧) راجع H. Bobek فى مؤلفه ١٩٥٢ Klima und Landschaft

(٨) ان الدليل الوحيد الذى قدمه « بريك » هو برهان جيولوجى محلى ، وشرحه الوحيد للظاهرة الطبيعية التى يشير اليها الدليل هو تحسن فى درجة الحرارة بمرحلة دائمة بعد التجمد فى أوروبا وإيران - وربما فى الصحارى التى الى الشرق ، غير ان النتائج المستخلصة فى المناطق الثلاث كانت مختلفة جدا .

(٩) راجع بوبك فى مؤلفه الذى أشرنا اليه فى الحاشية رقم ٧ ص ٢٢ - ٢٣ .

(١٠) راجع Agricultural origins of Dispersals Carl O. Sauer نيويورك ١٩٥٢ ص

٢٠ - ٢١ .

(١١) انظر حاشية رقم ٢٨ من هذا الفصل .

وثمة احتمال بأن بعض خبرات ذات أصل خارجي استعملت في منطقة الشرق الأدنى ، وفي رأيي أنه ليس هناك أى احتمال يبرر القول بأن المركز الرئيسي للأحداث كان فى أى مكان آخر غير الشرق الأدنى .

وبالطبع تختلف الأحداث الرئيسية فى إيجاد خبرات جديدة متتالية لفترة طويلة لتمكن الناس من البقاء ولكن حدثت بجانب هذه الحوادث الرئيسية سلسلة هامة جدا من الحوادث الثانوية ، كانتشار شعوب العصر الحجري الوسيط ، والشعوب الزراعية بخبراتها الجديدة الى جميع الاتجاهات فى الكرة الأرضية ، واننا نهتم باتجاه واحد من هجرة الشعوب فى العالم كله ، وبالهجرة التى حدثت شرقا وشمالا (١٢) ومع هذا هناك هجرات أخرى كانت لها أهميتها أيضا كالهجرة الى أوروبا التى كانت أكثر استعدادا لقبول المهاجرين كلما قل استعداد الشرق الأدنى والهجرة الى افريقية الاستوائية وربما الهجرة الى شرقى الهند وجنوبها والهجرة الى الجنوب الشرقي من آسيا .

وينبغى أن نفترض أن المهاجرين الأوائل قد تجمعوا عند حدود الصحارى ولا سيما الجبال والغابات الاستوائية حيث كانت لا تزال هناك الأمطار . وترتب على تركيز الناس فى الجبال حوادث جديدة مستكون موضع دراستنا بعد قليل .

ولقد كانت حركة الهجرة الرئيسية الى الشمال والشرق أطول وأهم جميع الهجرات ، وربما كان ذلك لأن معظمها قد حدث فى الدور الذى كانت الصحارى الباردة تمر فيه بعصر الجفاف ، ولهذا تم فيها الاستيطان أو بالقرب منها ولكن فى جزء محدود . واننا نعرف أن الاستيطان قد تم فى هذه الصحارى فى وقت ما وهذا ما تدل عليه بقايا المستوطنين . وربما كانت تلك البقايا للمهاجرين الأوائل الذين وصلوا قبل أن تشتد قوة الجفاف فى الصحارى الباردة ، ومن المحتمل ألا تكون الهجرات قد تعدت مناطق الاستبس فى أوروبا وآسيا التى شمالى إيران وكازاكوم ، ومن الواضح أن ملايين عدة من المهاجرين لم يدخل منهم أحد شمالى الصين (١٣) بل انه بدلا من ذلك اتجه المهاجرون الى جهة الشرق والشمال وأخذوا معهم عددا كبيرا من السكان الجدد ، وغالبا ما كانوا خليطا من المنول وظلوا

(١٢) ان بقايا العصر الحجري فى «سفتيانجة» بمنغوليا وقسم كبير من سيبيريا تدل على

الهجرة الى الشرق فى العالم القديم .

(١٣) انظر مؤلفه Loehr صفحة ٥١ .

يواصلون سيرهم عبر آسيا الى أقصى الطرف الشمالى الشرقى منها ، ثم ساروا الى العالم الجديد ، كما أن الهجرة لم تتوقف هناك لأن الضغط كان يتزايد من خلفها ، وأخيرا أصبحت القارتان الأمريكيتان أهلتين بالسكان ، وعلى ذلك فإن الثقافة التى حملت الى العالم الجديد كان تراث العصر الحجري الوسيط أساسا حتى لو أطلق على الفنون والصناعات الجديدة اسم العصر الحجري الأخير أو العصر الزراعى الأخير وذلك لأن الهجرات الكبيرة التى تمت فى العصر الحجري الوسيط هى التى جاءت بالجزء الرئيسى من سكان العالم الجديد .

ويسود شعوب العالم الجديد التوتر الذى عرف عند شعوب البحر الأبيض المتوسط ، كما نجد مميزات النمط الأرمي واضحا بين الشعوب الأمريكية الأولى فى كولومبيا وسانتو (١٤) ومن الواضح إذن أن بعض أولئك الذين حملوا فنون العصر الحجري الوسيط الى العالم الجديد قد جاءوا من المنطقة التى اخترعت تلك الفنون . غير أن الجهد الذى قام به المنغوليون هو الجهد الأكبر وهذا يعنى حتمية الاتصال والاختلاط بين المنغول وشعوب آسيا الغربية فى ظروف ضغط السكان الشديد ، وربما فى مكان ما فى المنطقة الباردة المنغولية فى سيبيريا شمال الصين .

ونعود الى أطراف الصحارى الغربية من العالم القديم ، ولا سيما الطرف المرتفع من الصحراء السورية والجزء الغربى من إيران حيث الأمطار تنزل حتى اليوم بكميات تكفى أن تعمل عددا كبيرا من السكان ، ففي هذه الأماكن وجد اللاجئون القادمون من الصحارى المتراصة أول مكان يتوقعون الحياة عنده برغم الجفاف هناك ، ومن المعقول أن يصبح تراكم السكان فى هذه المنطقة خطيرا ، ومن المعقول أيضا أن هذه الحالة ظلت هكذا ردحا طويلا من الزمن ، وأن الهجرة الى جهة الشمال الشرقى والشمال الغربى التى تمت بدرجة متزايدة برهان أكيد على ضغط السكان الناشئ من الداخل ، وقد بلغت أعلى درجة من نسبة السكان فى العصر الحجري الوسيط ، وكانت بنسبة شخص لكل ميل مربع (١٥) ، وكان هؤلاء السكان على درجة عالية من المهارة . ولا بد أن المستوى عند طرف الصحراء

(١٤) راجع Eric S. Thompson فى مؤلفه The rise and fall of Maya civilization

تورما اوكتا ١٩٥٤ الطبعة الثالثة

راجع ج. تشايلد (١٩٥٠)

(١٥) راجع ج. تشايلد (١٩٥٠) Town Planning Review

الغربية كان منخفضا وقد تكون نسبته (٥٠ و) ولابد أن طرف الصحراء كان يزدحم بسرعة .

هذه هي الظروف التي تطورت فيها الزراعة في هذه المنطقة ، وليس من المحقق أن الزراعة نشأت فعلا هناك وان كان هنالك احتمال لهذا ، وربما تكون فكرة الفلاحة وفكرة استئناس الحيوانات قد جاءتا أو جاءت احدهما من منطقة بعيدة نحو الجنوب الشرقي .

والشيء الواضح هو أن الممارسة المشتركة للفلاحة وتربية الماشية اما أن تكون منقولة أو مخترعة في المنطقة حيث تنبج الى تداخل جديد في التراث الذي يقدر له مستقبلا عظيما ، وأن الأرض النواة لهذه المنطقة هي الأراضي التي تكونت فيها أشكال مركبة جديدة من التراث ، وربما كانت هي المرتفعات الوسطى من سلاسل الجبال التي تمتد شمالا ونحو الشرق من فلسطين الى الأناضول الشرقية ، فالقوقاز وإيران وأفغانستان على كلا الجانبين للهند وكوش حتى الحد الأقصى من الشمال الغربي للهند ثم الى تركستان . (١٦)

ان النباتات والحيوانات التي وجدت أصلا في تلك المرتفعات قد دخلت جميع المجتمعات الزراعية التي نشأت في المرتفعات ذاتها ومن ثم انتشرت الى الأراضي المتاخمة غربا الى أوروبا وإفريقية الشمالية .

وبالطبع فان المرتفعات التي في سفوح التلال المتاخمة والأراضي المستوية ينظر اليها كوحدة جغرافية واحدة في تطور الزراعة في المراحل الأولى .

وسوف نطلق على هذه الوحدة هنا « المنطقة الزراعية للعالم الغربي القديم » وكان بتلك المنطقة أنواع متعددة كثيرة من النباتات ذات الأوراق والنباتات ذات الجذور والخضراوات والفاكهة ، أما الحبوب الأولى الهامة فهي الشعير والقمح وربما وجدت بعض الحشائش الأخرى في زمن مبكر أما حيوانات تلك المنطقة فكانت الماشية والخنازير والأغنام والماعز . وتدخل الكلاب بالطبع ضمن هذه المجموعة وان لم تكن من الحيوانات التي تؤكل . لقد ارتبطت الكلاب بالإنسان منذ بداية هذا العصر ان لم يكن قبل ذلك . وأيضا كانت أهمية الخضراوات والفاكهة فان الحبوب كانت

(١٦) انظر الحاشية ٢٠ من هذا الفصل .

اعظمها أهمية • فعليها اعتمد الانسان بدرجة كبيرة فى سبيل بقائه ، ومن المحتمل أن تكون حيواناته الأليفة قد اعتمدت عليها كذلك •

وقد نشأ كل نوع من هذه الأنواع المختلفة من النباتات فى أجزاء مختلفة من المنطقة الغربية الزراعية ، وهذا يصدق على أنواع الحيوانات المختلفة على رغم قلتها ، وربما يكون الشعير وهو أحد أنواع الحبوب المبكرة جدا قد جاء من خارج هذا الاقليم ، وهذا الأمر قد ينطبق على الخنازير ، وأميل الى الاعتقاد بأن الأفغانستان والهند الشمالية الغربية والهند وتركستان (١٧) قد تكون هى الطرف الذى فى أقصى الشرق من هذا الاقليم وقد أضاف هذا الركن الى ثقافة ذلك الاقليم مقداراً أقل بكثير من الأجزاء البعيدة الى الغرب ، ونجد قائمة الخضراوات والفاكهة التى وضعها (فافيلوف) الثقة الروسى بالنسبة للطرف الشرقى أقل من غيرها من الأجزاء الأخرى ، وقد كان للطرف الشرقى حيو به الخاصة به ولكنها كانت من ال ٤٢ نوعا ذات الكروموزومات المتشابهة والتى توجد فى مرحلة متأخرة من استنبات الحبوب فى العصور الأولى (١٨) واننى فى الواقع أمضى الى حد القول بأن الزراعة الغربية المتشابهة فى العالم القديم لم تنشأ فى الطرف الشرقى من ذلك الاقليم ، ولكنها انتشرت اليه من مكان بعيد غرب ذلك الاقليم وقد زرعت نباتات قليلة جديدة محلية معروفة للطرف الشرقى (١٩) •

واننى مع هذا لا أظن أنه من المفيد أن نسعى الى تحديد نواة الاقليم بأكثر من هذا القدر • (٢٠) فإذا ما حددنا الاقليم الذى كان نواة للزراعة الغربية على هذه الصورة فإننا نجد امتداده فى بلاد الحبشة (٢١) ومن المؤكد أن لهذا الاقليم فروعا أخرى فى مناطق انفصلت عنه ونقلت زراعتها واستثناس الحيوانات عبر الصحراء أو البحر (٢٢) •

أما المناطق الأخرى التى فى اتجاه الغرب فليس لها أهمية تذكر

(١٧) المراكز التى حددها (فافيلوف) ليست مفصلة بشكل كاف ،

(١٨) أصل ال ٤٢ نوعا من أنواع الحبوب الكروموزمة كان وسيظل مسألة تخمينية .

(١٩) ان التحديد المقترح يشبه كثيرا التحديد الذى ذكره عند الاقليم الغربى ،

(٢٠) انظر R. Linton فى (شجرة التراث) صفحة ٩٢ - ٩٣ .

(٢١) تعتبر الحبشة عند (فافيلوف) مركزا لأصل الشعير .

(٢٢) يعتقد (بريدود) أن بلاد الغرب فى افريقية الشمالية كانت لهما من تلك الفروع

وكذلك افريقية الغربية .

ونحن لا نوليها هنا اعتبارا لأنه ليس ثمة مجتمع أولى متحضر كان ذا صلة بهذه المناطق ، وقد كان المجتمع المصرى على صلة باقليم الحبشة الذى يجب أن نوليّه عناية لهذا السبب .

ولقد تم استيطان مصر ببطء ، وجاء الذين استوطنوها ردحا طويلا من الزمن من أقصى الجنوب فى افريقية (٢٣) وفيما وراهما من بلاد النوبة والحبشة وقد أحضرت هذه الشعوب معها الشعير والقمح وزرعتهما فى الوادى ، كذلك بجوار بحيرة الفيوم ، ومما يثبت هذا ما أتت به من ماشية ، وليس من المهم نوع الأغنام لأن الأغنام لم تكن معروفة أصلا فى افريقية فلا بد أن تكون هذه الشعوب قد جاءت بهذه الأغنام من آسيا الى افريقية (٢٤) .

وعلى ضوء كل هذه البراهين لا يوجد ثمة شك فى أن الزارعين البدائيين كان لديهم الشعير والقمح والأغنام وجاءوا بها واستوطنوا الحبشة قبل قيام المجتمعات المتحضرة بزمان طويل . لقد وجدوا هناك بلادا مرتفعة لا تختلف فى جملتها عن الاقليم الزراعى الغربى غير أنهم لم يجدوا كل صفات الاقليم الغربى .

ان الاقليم الحبشى الزراعى صغير لحد كبير فمن أين أتوا إذن ؟ من الممكن أن يكونوا قد جاءوا من الخليج الفارسى . لقد رحلوا بالقرب من الشاطئ مراعين اتجاه الريح التى تهب فى وقت من السنة طوال الطريق حول الساحل الغربى ولكن كان فى وسعهم أن يأتوا برا ، اما عن طريق الساحل الغربى الى المنطقة التى تعرف الآن (باليمن) ، ومن ثم عبر مضيق باب المندب الى ارتريا ، والاحتمال الراجح هو أنهم قد جاءوا من طريق فلسطين الى سورية وساروا الى الساحل الغربى من بلاد العرب حتى اليمن (٢٥) .

ولم يكن القسم البشرى الذى عاش فى اقليم الصحراء الغربى من

(٢٣) من المتفق عليه بشكل عام أن جميع الشعوب الاولى التى استوطنت مصر قد وفدت علينا من افريقية (راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب) .

(٢٤) انظر ج . تشايلد (ضوء جديد على أقدم شعوب الشرق) لندن ١٩٥٢ (صفحة ٢٦) .

(٢٥) من المحتمل أن تكون الجماعات البدائية التى اعتادت الحياة فى الاراضي المرتفعة قد انحدرت جنوبا الى الساحل الغربى .

العالم القديم فى أثناء عصر الجليد هو الجزء الوحيد المعرض للتغيير الطبيعى
إبان انخفاض الجليد .

وينقص كميات الثلوج الكبيرة ارتفع مستوى المحيطات فى جميع
أنحاء العالم ولم توجد الثلوج الذائبة فى بعض الأماكن طريقا سريعا إلى
البحر ففاضت على بلاد واسعة ، وقد حدث أن تجاوزت المياه وغطت أماكن
أخرى ومن هذه الأماكن التى تجاوزتها فى الجنوب الشرقى من آسيا
وما وراء ذلك — البلاد التى تعرف الآن باندونيسيا (٢٦) .

ونجم عن انكماش رقعة الأرض بفعل زحف المياه أن تجمعت الدوافع
إلى طرق جديدة من أجل البقاء .

ويبدو أن كارثة الجنوب الشرقى من آسيا ليست من النوع الذى
يمكن مقارنته من حيث القسوة بتلك الكارثة التى نجمت عن الجفاف
الذى حدث فى الصحارى الغربية والصحارى الشرقية فى العالم القديم ،
ومن المحقق أن « كارل سور » يعتقد أن فنون العصر الحجري الوسيط
قد نشأت فى الجنوب الشرقى وإن كان لا يوجد أى دليل يؤيد هذا الاعتقاد
فى حين توجد أدلة متوافرة كما رأينا تؤيد الفكرة القائلة بأن تلك الفنون
قد نشأت فى الصحارى الغربية وما حولها (٢٧) .

وبطبيعة الحال فإن التهديد الذى تعرض له جنوب شرقى آسيا
كان أقل من التهديد السابق ، ذلك لأنه لم يوجد أى تغيير هام فى المناخ ،
ويمكن مراقبة تخطى البحار لحدودها ، ويمكن التكهن به ولا يمكن أن
يكون قد أثر فى أى وقت على مثل تلك المناطق الواسعة التى تأثرت بالجفاف
فى الأقاليم الصحراوية ، وليس هناك ما يبرر افتراض وجود نزوح كبير
من جنوب شرقى آسيا فى وقت ما كالحال فى الصحارى الغربية ، ولكن
يوجد ما يحملنا على الظن بأن الازدحام فى جنوب شرقى آسيا وصل أخيرا
إلى درجة دفع الناس إلى الفلاحة وقد ظهر نوع من الزراعة يمكن تمييزه
عن سائر الأنواع الأخرى فى الأقليم الزراعى الغربى ، ولا شك أن ثمة
نوعا أقدم من هذا قد ظهر فى الأقليم الشرقى (٢٨) .

(٢٦) إن خليج سيام الحالى الممتد عبر بحر الصين الجنوبى إلى بورنيو وبحر جاوة بين
بورنيو وجاوة وما وراء ذلك لا يزيد مساحته عن ١٠٠ قامة (القامة ٦ أقدام)

ومعظم هذه المنطقة أقل من ذلك بكثير .

(٢٧) راجع Proceedings of the American Philosophical Society

١٩٤٨ (صفحة ٧٤ — ٧٥) .

(٢٨) راجع Saucer — Agricultural Origins صفحة ٢٤

وفي واقع الأمر أنه غير معروف تماما : هل كانت الزراعة الشرقية او الغربية هي السابقة للأخرى أو أية منهما نابعة من الأخرى ؟ فإن الاختلاف الأساسي بينهما هو أن أحدهما كانت هي النباتات ذات الجذور والفاكهة، والأخرى تشتمل على الحبوب أساسا وهذا يوحي بأنهما كانتا من أصل منفصل ، وعلى ذلك تكون مسألة الأسقية الزمنية ليست مسألة بذات بال ، وفي تحليلنا الأخير نجد أنه لا بد أن تكون هناك علاقة بين الزراعة الشرقية والغربية ما دامتا تنتميان إلى العصر الحجري الوسيط ، وهذا العصر في رأيي قد امتد نحو الجنوب الشرقي من الصحاري الغربية وانتشر الذين عاشوا فيه في جميع الجهات الأخرى .

إن الافتراض الأكثر احتمالا هو أن الزراعة الشرقية كانت الملاذ الطبيعي للعصر الحجري الوسيط في المنطقة الاستوائية حيث وجدت بعض خضراوات من ذات الجذور مثل (تارو واليام) وهي نباتات تشبه البطاطا وغيرها من الخضراوات ذات الجذور وكانت لا تزال نباتات برية قبل أن تزرع كما كانت الزراعة الغربية من الناحية الأخرى هي الملاذ الطبيعي للعصر الحجري الوسيط في الموطن الأصلي من الشرق الأدنى حيث وجدت أنواع كثيرة من العشب البري قبل أن تستخدم في الزراعة (٢٩) .

ومع هذا هناك خيط دقيق يمكن الاعتماد عليه كدليل ، وهو يوحي بأن الزراعة الغربية قد اشتقت من الزراعة الشرقية وتفرعت عنها ، وعلى هذا تكون الزراعة الشرقية سابقة على الزراعة الغربية ، وفحوى البرهان هو أن الشعير وهو أقدم أنواع الحبوب المعروفة في إقليم الزراعة الغربي قد أخذ لزعه في بداية الأمر في أواسط هملابا أو في شرقيها تلك المنطقة التي كانت على صلة بإقليم الزراعة الشرقي أو بجزء منه (٣٠) .

وعلى ذلك يمكن أن نضيف فكرة من قبيل التخمين وهي أن الانتقال من زراعة النباتات - ذات الجذور إلى زراعة الحبوب قد حدث في الإقليم الشرقي ، وقد حدث توسع في تلك الفكرة إلى درجة مقبولة تقضي بأن يظن أن الأرض قد زرع في وقت ما في الإقليم الشرقي ، وأن زراعة الشعير

(٢٩) تعتبر شعوب فلسطين من الشعوب الزراعية ومع هذا فقد صنعوا مناجل متقنة جدا لاستخدامها في حصاد القمح البري والحشائش .

(٣٠) يرى تلك النظرية أن الزراعة التي قامت بها القبائل اعتمدت على أنواع قليلة من الحبوب قد وجدت في الجنوب الشرقي من التبت على أنواع قليلة .

المبلل التي ظهرت في وقت مبكر في شمالى الصين (٣١) قد يكون أصلها من الشرق ، أما الأسانيد الأخرى فهي أكثر غموضا وضعفا ومنها أن الكلاب والخنازير قد استؤنست أولا في الاقليم الشرقى * ومن ثم فانه من المحتمل أن يكون الاقليم الشرقى قد أنتج بعض اصناف جديدة أيضا من بينها الحبوب .

غير أن هذا الموضوع من السخف يمكن أن مقدار الشعير الذى وجد في هملايا ضئيل جدا وليس كله في حالة نمو ، لقد كان الشعير المزروع في شمالى الصين من أصل شرقى ولا يوجد ثمة سبب يلزم أن الاحتفاظ بالكلاب والخنازير يدل على ابتكارات أخرى .

أنا حقيقة نهمل على وجه التقريب كل شيء يتعلق بأصل الزراعة جهلا مزريا فانا لا نعرف : هل زراعة « الجذريات » قد سبقت زراعة الحبوب أو أن عملية الانبات وتلك الخبرة الخاصة باقليم الزراعة الشرقى قد سبقت عملية بذر البنذور وهى الخبرة الخاصة بالاقليم الغربى ، وإن كان بعض الباحثين يثيرون أفكارا حول هذين السؤالين (٣٢) ؟ كذلك فانا لا نعرف كذلك : هل كانت بعض أنواع معينة من الفاكهة أو الخضراوات ذات الاوراق وذات السنن والبندق والجوز سابقة على الحبوب أو متأخرة عنها . ، ولا نعرف الترتيب الزمنى لعمليات التسميد والرى البسيط واستئصال الاعشاب الضارة والتوليد الانتقائى وإن كانت هناك نظريات مقنعة تتعلق بترتيب هذه العمليات كلها أو بعضها .

إن ما نعرفه فعلا — وذلك ما يمكن أن نتبينه من الدراسة المقارنة للزراعة التي لاتزال تباشر حتى اليوم — هو أن زراعة الحبوب كانت أعظم الابتكارات الزراعية ومهما كان أصل زراعة الحبوب أو الزمن الذى زرعت فيه فانا قد أفادت الجنس البشرى أكثر من غيرها من ضروب الفلاحة ، وبعد زراعة الحبوب وبذر البنور جاءت الزراعة والزيادة العظيمة فى السكان والتوقف عن العمل والراحة الموسمية التي تمتع بها سكان الاقليم الغربى الزراعى ، فاذا ما كان اقليم الزراعة الغربى قد وقف على هذه الخبرة أولا فانه يكون بذلك قد نال الاسبقية فى الزراعة مهما كان الذى حدث من قبل .

أنا نعرف معرفة مؤكدة ، كذلك ، أن اقليم الزراعة الغربى قد

(٣١) سيرد ذكر ذلك بالتفصيل فيما بعد .

(٣٢) مرشنا بعض هذه الآراء في الحاشية رقم ٢٩ .

وصل الى الاسبقية في استئناس الحيوانات وقد عرف الاقليم الزراعى الشرقى من العالم القديم الحيوانات الاليفة والحيوانات التى يحتفظ بها لافراض دينية والكلاب والخنازير والطيور .

على ان هذه الحيوانات التى ذكرناها لم يكن لها اهمية كبيرة بالنسبة لغذاء الانسان ان لم يكن لا اهمية لها على الاطلاق ، كما لم تكن ذات علاقة كبيرة بالزراعة ان لم تكن لا علاقة لها على الاطلاق .

وكل الاحتمالات توحى بأن استئناس الحيوانات فى الاقليم الغربى كان امرا ثانويا بالنسبة للزراعة ، ولا توجد سوى ادلة اركيولوجية قليلة تؤيد هذا الاحتمال الآن ، غير ان الحجة القديمة التى تفترض ان الانسان الزراعى كان قادرا على استئناس الحيوانات عن طريق تغذيتها بالفائض من حقوله او بتركها ترعى بقايا الحبوب فى الحقل ما زالت هذه الحجة على درجة من الاهمية (٣٣) .

وتنطبق هذه الحجة فقط على اقليم الزراعة الغربى ، ذلك لانه كانت هناك حيوانات اليفة ترعى أكثر مما كانت عليه وهى حيوانات برية .

ان الزراعة غير الاقتصادية فى الاقليم الشرقى من العالم القديم قد دانت للشعوب التى مارستها ولم تصبح مطلقا اساسا لمجتمع متحضر . والحيوانات التى جاءت لتدعم المجتمعات المتحضرة يمكن تربيتها من حيث استئناسها من الغرب الى الشرق مع وجود تفاوت كبير بينهما فقد كان فى الاقليم الغربى من العالم القديم كما ذكرنا أربعة حيوانات تؤكل - الأغنام والماعز والخنازير والمواشى ، ومن الأرجح أن اقليم الصين لم يكن به سوى الكلاب والخنازير فى بادئ الأمر ، ولم يكن فى العالم الجديد أى نوع حتى قيام المجتمعات المتحضرة هناك ، وبعد قيامها كان بها أنواع قليلة .

وقد استرعى « رالف لينتون » الأنظار الى الأهمية القصوى لهذه الاختلافات (٣٤) فانها تتعلق بمصادر البروتين والشحم التى فى الغذاء

(٣٣) أثبتت الاكتشافات التى قام بها « بريد وود » فى أقصى شمالى العراق وجود عظام انواع متشابهة لحيوانات وأن أكثر من ٥٠٪ من هذه العظام لحيوانات قابلة للاستئناس ، وفى قرية « جارمو » وجدت عظام لحيوانات برية يسود عمرها الى ما بعد عمر الحيوانات (فى شمالى العراق) الى ألف سنة .

(٣٤) راجع Ralph Linton فى مؤلفه The Maya and their Neighbours

سنة ١٩٤٠ - (صفحة ٣٣ - ٣٥)

الانسانى ، ولما كان الانسان يمكنه ان يبقى دون (النشا) الذى يحصل عليه من الحبوب ولكنه لا يستطيع ان يبقى دون بروتين وشحم ، فلهذا يبدو ان استئناس الحيوانات كان هاما جدا بالنسبة لبقاء البشرية وبالنسبة للزيادة العظيمة فى عددها والتى جعلتها الزراعة القريبة ممكنة عن طريق فلاحه النباتات .

ولم يكن الامر فى الواقع على هذه الصورة :

أولا - لأن بعض النباتات ولا سيما الفول واللوبياء والفاصوليا تعطى هى أيضا المواد البروتينية والدهنية .

ثانيا - أن الفلاحة تستنفد وقتا أقل من جمع الحيوانات ولهذا السبب فهى تتيح للناس ان يقوموا بها أكثر من صيد الحيوانات والأسماك .

ثالثا - ان الحيوانات ذاتها تعيش على المحصولات النباتية .

ومع ذلك فان هذه الاشتراطات تترك الزراعة الغربية ومايصاحبها من استئناس للحيوانات فى مكانة عظيمة اذا ماقورنت بأنواع الزراعات الأخرى ، وفى الحق لقد زادت الزراعة الغربية من تفوقها لأن الزارع الغربى قد طور صناعة الالبان ومستخرجاتها التى حسنت الاقتصاد الحيوانى (٣٥) فى حين بقيت صناعة الالبان غير معروفة فى الاقاليم الزراعية الأخرى ، وليس هناك ترجيح معقول بالنسبة الى أيها كان أقدم أنواع الزراعات . هل هى الزراعة الشرقية أم الغربية ؟ فليس عندنا بالطبع أى تاريخ نعرف منه بدء كل من النوعين ، وإيا كان الامر فمن المحتمل أن تكون كلتاها قديمة جدا (٣٦) .

كذلك فانه من المحتمل أن تكون أقدم التجارب الزراعية قد تمت فى فترة ليست طويلة بعد العصر الحجري الوسيط ، إذ أن تجارب العصر الحجري الوسيط الزراعية متماثلة جدا بحيث يخطئ الانسان فى التمييز بينها فى طبيعة العصور المتعاقبة والمحدودة تمهيدا قاطعا فى عصر ما قبل التاريخ .

اننا نعرف مثلا أن الرى بصورته الاولى قد عرف فى العصر الحجري

(٣٥) « شجرة التراث » « لنون » صفحة ٦٤ .

(٣٦) Economic Annuals and Human Cultures كمبردج ١٩٣٦ صفحة ١٣٦ .

الوسيط في غربى أمريكا الشمالية دون أن يكون مصحوبا بأى لون من ألوان الفلاحة ، وهاهى ذى تجارب خاصة بأقامة السدود على القنوات الصغيرة وتحويل مياهها الى حيث تنمو خضراوات برية صالحة للأكل ، وتجارب كهذه يمكن أن ترجعها الى العصر الحجري الوسيط في فتراته الاولى في الشرق الادنى من العالم القديم عندما كان المهاجرون في التخوم المرتفعة من الصحارى لهم دون شك دراية كبيرة بمجارى الانهار الصغيرة ، كما كانت احتياجاتهم لتحسين موارد المياه الطبيعية كبيرة ، وذلك عندما يعترها النقص فلم تعد تكفى النباتات البرية التى كانوا يأكلونها .

أما عن تواريخ التطور الكامل فاننا لسنا احسن حالا فى معرفة اقليم الزراعة الشرقى عنه فى معرفة الأمور في بدايتها .

اننا نعرف عن الاقليم الغربى أن ثقافة الفأس وبذر الحبوب مع وجود الحيوانات الرئيسية المستأنسة الاربعة قد وصلت اليه حوالى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد وليس هناك ما يدعونا لافتراض أنها وصلت قبل ذلك بعدد كبير من القرون (٣٧) .

ويحتمل أن تكون الزراعة في الصين الشمالية قد قامت بشكل منفصل يتأثر بالجفاف التام كما حدث للزراعة في الاقليم الغربى من العالم القديم ، ويمكن أن يكون الاقليم الشمالى من الصين في ذلك الحين قد ضم ستيكبانج ومنغوليا وبعض أراضى سيبيريا والصين الشمالية الأصلية وهى أقصى الجزء الشرقى من الصحارى الشرقية وجزء كبير من الأراضى التى شمالها علاوة على الصين الشمالية ذاتها ، وكانت أجزاء كبيرة من هذا الاقليم عند نشأة هذه الزراعة في الاصل - وهى تعد الآن صحراء أو مناطق جرداء - مأهولة بالسكان وتزخر بشعوب العصر الحجري الوسيط التى جاءت من الاقليم الغربى ، وكانت هذه أعظم حركة هجرة تجاه الشرق والشمال ، واننا اذا راعينا حجم هذه الهجرة وطول استمرارها فلا بد أن تكون قد ضاعفت من الضغط على السكان في الاقليم الشمالى من الصين (٣٨) .

ان الصحارى الشرقية تختلف عن الصحارى الغربية في أنها لم

(٣٧) وربما تكون بعد سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد كما يستدل من آثار جارمو ، ولكننى اشك.

أن يكون هذا قد تم في عصر ركود أساليب الفلاحة .

(٣٨) ارجع الى حاشية رقم ١٢ .

تفقد الرطوبة منذ بداية انهيار الجليد . وكانت هناك سلاسل جبال كثيرة وكبيرة جدا في الصحارى الشرقية وقد أوجد الذوبان السنوي الضخم أبان انحسار الجليد موردا من المياه الصيفية أكبر بكثير من درجة التجمد العالية ، ومن ثم فإن التغير في الصحارى الشرقية لآلاف عدة من السنين بعد ذروة الجليد كان مناقضا لما حدث في الصحارى الغربية التى كانت تفقد ما حصلت عليه من أمطار .

وقد شعر الناس بذروة التأثيرات فى الأراضى المتاخمة للجبال الشرقية والشمالية من التبت أى الصين الشمالية جنوبى ستيكبانج الذى أصبح مغمورا بالمياه الى درجة كبيرة (٣٩) وقد عاد النهر الأصفر فيفيضانات سنوية ضخمة بعد أن تجذبت مياهه وتماست عند منابعه ، وفاقت فيضاناته فيضانات الأنهار العظيمة التى فى الغرب .

لقد ارتفعت درجة الحرارة صيفا فى الصحارى الشرقية ، كما ارتفعت فى كل الاماكن وظلت الحالة كما هى حتى حوالى ٩٠٠٠ الى ٨٠٠٠ قبل الميلاد عندما بدأت تصلح الموارد العظيمة من الرطوبة (٤٠) وعند نقطة التحول هذه التى لم ترتب عليها حادث هام له مثيل فى الغرب كانت موارد المياه قد بدأت تتناقص بطريقة ثابتة ، وظلت تتناقص حتى عام ٢٠٠٠ ق. م. ، تقريبا ان لم يكن الى ما بعد ذلك . ان الأراضى التى استصلحت وأصبحت أهلة بالسكان أخذت تعود تدريجيا الى ما كانت عليه ، فى حين أن مناطق ستيكبانج وشمالى الصين سرى اليها الجفاف بدرجة جعلتها أهلة بالسكان وان كان السكان قد أخذوا يتناقصون بالتدريج بعد ذلك ، وكان نقص عدد السكان فى ستيكبانج بدرجة أكبر من شمالي الصين .

ومن الممكن فى هذه الظروف أن تكون الفلاحة قد بدأت بشكل مستقل فى اقليم شمالي الصين ، وان كان هذا الاحتمال ليس كبيرا ، فإذا ما كانت الفلاحة قد بدأت على هذا الشكل فيكون هذا قد تم فى تاريخ مبكر من الازدحام العظيم الذى نشأ فى الإقليم نتيجة تدفق سكان العصر الحجري الوسيط من الغرب (٤١) ، أو حدث بعد ذلك التاريخ

(٣٩) هذا رأى Loehr (صفحة ٤١)

(٤٠) اننى أتبع هنا الأرقام التى وضعها «بوبك» بالنسبة الى إيران ، ويمكن أن نفترض أن التفسير قد حدث الى مسافة ما لجهة الشرق قليلا إذ أن التفسير قد انتشر طبعاً في كل العالم .

(٤١) انظر Sauer فى Environment and Culture during the last deglaciation

نتيجة ازدهام السكان وبسبب الجفاف الذى حدث حوالى ٩٠٠٠ أو ٨٠٠٠ قبل الميلاد . ويبدو أن الرأى الأخير أكثر احتمالا ، ولكننا حتى الآن نستطيع أن نقول أن الأكثر احتمالا هو أن بعض الخبرات الزراعية سواء اكانت مبكرة أم متأخرة قد جلبها المهاجرون من الغرب الى اقليم الصين الشمالية ، وهذا الاحتمال الأخير يتفق مع الافتراض الذى آمنناه وهو انه لا يوجد تمييز حاد فى الزمن بين ابتكارات العصر الحجري الوسيط والابتكارات الزراعية ، واننا لا نرى فى الواقع أية فائدة من انعام النظر فى فكرة المنشأ المنفصل للزراعة الصينية ، وسوف نعرف فيما بعد أنها كانت متميزة عن غيرها تمييزا واضحا الى درجة بعيدة ، وأنها كانت مخالفة لزراعات العالم القديم الأخرى ولم تكن الزراعة الصينية معروفة الا قليلا حتى عصر المجتمع المتحضر ، وقد تكون مختلفة جدا فى فتراتها الاولى وكان حدودها المبكر على وجه اليقين فى سنكيانج وعلى الاغلب فى اقاليم منقوليا القابلة للزراعة والتي تشمل واحة (جوبى) غير أننا نجهل تلك المرحلة تماما اذ لم يثر على أى سجل اركيولوجى (٤٢) .

وان آخر مالدينا من وثائق هو عن زراعة شمالى الصين الأصلية. التى لم يكن به قط سكان العصر الحجري بالمعنى المعروف الضيق . ولكن كان بها سكان أصليون من الزراعيين الذين انتقلوا الى هذه الأرض. عندما أصبحت أهلة بالسكان ، وقد حدث هذا بعد أن حل الجفاف على الاقليم بأسره لمدة طويلة . وكان من جراء ذلك أن جف شمال الصين. وأصبح قابلا للزراعة ، وبعد أن جفت جوبى لدرجة كبيرة دفعت بعدد كبير من السكان الى مناطق الصين المأهولة حديثا بالسكان (٤٣) .

وكانت عندئذ زراعة الحبوب ، وقد وردت الذرة العويجة المعروفة فى قائمة فافليوف باعتبار ان الصين مركزها الأصلي (٤٤) وقد يعنى هذا أن يمتد المركز الى أقصى شمالى ذلك الاقليم ، وقد زرع فى الاقليم كما لاحظنا وفى فترة مبكرة الشعير والحبوب والشوك ومحبصول آخر من محاصيل المجتمع المتحضر ، ولم تكن تبدو كنبات غربى ، ذلك لان

(٤٢) انظر Archaeological Researches in Falke Bergman Sinkeang

ستوكهولم ١٩٣٩ صفحة ٣٦ - ٣٧

(٤٣) Lochr ٥٢ صفحة

(٤٤) فافليوف فى Origin, Variation من ٢١

الحبوب والشوك بكل أنواعها كانت تزرع مبجلة كالارز وكان الارز ذاته في الصين المتحضرة القديمة أيضا (هذا اذا ما كان التقرير الذى وضع عن مستعمرة يانج تشورتسم صحيحا) (٤٥) .

ومن الحقائق التى لا يمارى فيها أن الارز اذا ما كان قد وجد فلا بد أن يكون قد أتى من الجنوب من الاقليم الذى يطلق عليه « الاقليم الشرقى الزراعى من العالم القديم » ومن المحتمل أن يكون الشعير قد أتى أيضا من هناك ، ويضع فافيلوف فى قائمته بعض أنواع الغاب الهندى والجيرزان أو بعض أنواع الفاكهة وقليلًا من الخضراوات الأخرى التى يمكن أن تكون من أصل شرقى .

وهنا يقوم تساؤل هل كانت الزراعة الصينية قد انحدرت أصلا من الاقليم الشرقى أو من الاقليم الغربى فى العالم القديم ؟ ولا يمكن الإجابة من هذا السؤال إذ أن كل الشواهد قد وردت عن فترة متأخرة ، وفضلا عن ذلك فإن زراعة الاقليم الشرقى ليست زراعة حبوب فى حين أن الزراعة الصينية زراعة حبوب ، ولهذا يعود بنا الى مسألة الاشتقاق الغربى ، فحتى الشعير المبلل يمكن أن يكون من أصل غربى .

وهناك احتمال كبير فى أن أصل الزراعات المهاجرة من الاقليم الغربى لزراع الحبوب الأوائل ومعهم محصول من الحشائش المختلطة . وهذا مما يتفق مع وجهة النظر العامة فى أن هذا الخليط من الحشائش قد يشتمل على جميع الأشياء حتى (السرنحو «الأذرة الصفية») ، أن وجهة نظر فافيلوف عن أصل نباتات معينة ليست نهائية، وهذه النباتات قد تشمل القمح والحشائش الأخرى التى كانت لا تعيش فى مناخ الاقليم الشمالى الشرقى ، أما العشب البسرى المحلى فقد دخل عن طريق الزراعيين سواء بقصد أو غير قصد واحتل مكانة هامة ، ولكن لا يوجد أى أساس قوى لهذا الراى .

ويمكن القول بأن الزراعة الصينية غالبا ما أخذت النباتات أوالمهارة الفنية عن كلتا الزراعتين الشرقية والغربية فى العالم القديم ، ولكن فضاء معلوماتنا الحالية لا يمكن الجزم بتحديد أيهما أسبق فى إعطاء الزراعة الصينية دفعة البدء ، هل هى خبرة الزراعة الشرقية أو الغربية ؟

وفى زراعة العالم الجديد شأنها شأن الزراعة فى شمالى الصين يبرز

١٩٤٣) G. Andersson (أبحاث ما قبل التاريخ لحياة الصين)

سؤال أمامنا هو : هل كانت هاتان الزراعتان هما أول ما وجد أو أن الانسان وصل اليهما فضلا عن زراعة أو زراعات أخرى ؟ فإذا ما كانت زراعة شمالي الصين أو زراعة العالم الجديد قد جاءتا من أنواع زراعة أخرى هي زراعة العالم القديم فإن هذا يعقد المسألة أمامنا ؟ إذ كيف اذن تم خبرات الزراعة وفكرتها من العالم القديم الى العالم الجديد في الوقت الذي كانت فيه زراعات العالم الجديد موجودة ، وهذا الزمن هو الف السنه الخامس قبل الميلاد ؟ وربما تكون هذه الزراعة قد وصلت بحرا عبر الاقيانوس أو عن طريق بحرى مختصر كمضيق «بهرنيغ» أو عن طريق البر من شمالي شرقى آسيا الى الاسكا ، لأنهم الممكن أن تكون الثلوج في أزمئة العصر الجبرى الوسيط الأولى قد ذابت كلها ووجد جسر أرضى بين القارتين .

وثمة أدلة تؤيد طريقتين ممكنتين لقيام زراعة في العالم الجديد أصلا وتؤيد قيام ابتكارات مستقلة في العالم الجديد أيضا ، وأن كانت هذه الأدلة لا ترجع طريقة على الأخرى ، وسوف تعالج هذه الأساليب والحالات كلها هنا معالجة سريعة ومختصرة ، الا أننا سنتوسع فيها بحيث نبين أن عدة زراعات قديمة قد ساعدت الزراعات الكبرى التي ظهرت أخيرا في أقاليم مختلفة من العالم الجديد ، ومن بين هذه الزراعات الكبرى - الزراعة التي نمت حوالى ٤٠٠٠ قبل الميلاد وهي زراعة القمح والذرة في اقليم امريكا الوسطى وفي الاقليم الذى تشغله الآن فنزويلا وكولومبيا ، وقد وجدت زراعة مبكرة أيضا هي زراعة النباتات ذات الجذور ولا يوجد تاريخ معروف لهذه الزراعات ، ولكن يحتمل أن تكون جميع أنواع الزراعة الأخرى في العالم الجديد قد انحدرت من إحدى هاتين الزراعتين أو منهما معا ، وإذا ما كان الامر كذلك فتكون هاتان الزراعتان أو واحدة منهما قد نشأت عن طريق الانتشار من العالم القديم ، ولا بد أن يكون قد حدث هذا في الالف الخامسة قبل الميلاد أو حتى قبل ذلك ، وهذا يعنى أنها كانت عن طريق عوامل الانتشار البدائية أو عن طريق الجماعات البدائية فعلا ، ذلك لأنه لم يكن حتى ذلك الحين شعوب متحضرة قد تقدمت بدرجة تمكننا من تمييزها عن الشعوب البدائية .

وإذا ما كانت ممارسة الفلاحة قد انتشرت من العالم القديم الى العالم الجديد عن طريق البحر فانه ينبغي أن نفترض أن هذا قد حدث مصادفة ، فقد تكون الشعوب البدائية قد ساققتها تيارات المحيط من مكان الى آخر على طول ساحل ما في العالم القديم وقدفت بهم في آخر

الأمر على ساحل العالم الجديد ، وقد تكون الشعوب البدائية التي قامت بهذه الحركة ، وقد اختزنّت المقادير الكافية من الطعام في قورابها عن وعى منهم كى تتمكن من البقاء طوال الرحلة ، أو تقصد البدء في زراعة هذه الجذور أو الحبوب من جديد في القارة الجديدة .

وقد تكون الشعوب البدائية قد جرفت بها ثلاثة تيارات ، التيار اليابانى وربما يكون قد أخذهم بعيدا عن شواطئ جنوب شرقى آسيا وسار بهم شمالى الباسيفيكي ، ثم أودعهم مكانا ما على ساحل كاليفورنيا ، والتيار الشمالى الاستوائى وربما يكون قد أخذهم بعيدا عن الساحل الشمالى الغربى من افريقية ، والتيار الجنوبى الاستوائى وهو الذى يكون قد أبعدهم الى غينيا أو ساحل الكونغو . وان أى تيار من هذه التيارات كان في وسعه أن يحملهم عبر الاطلنطى ويودعهم ساحل فنزويلا وكولومبيا من أمريكا الجنوبية أو أى مكان على ساحل أمريكا الوسطى .

واننى أعتبر الطريق البرى أو مضيق بهرنج أقل الطرق احتمالا على الرغم من أن بعض العلماء يعتبرونه الطريق الوحيد الذى سلكته الشعوب البدائية وهم في هذا لا يراعون الاحتمالات السابقة بالرة ، وان كان هذا لا ينفى أن مضيق بهرنج هو الطريق الذى سلكه من عاشوا في العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري القديم من العالم القديم الى العالم الجديد ، وقد تدمعت تجارب الفترات المتأخرة من العصر الحجري الوسيط بالزراعة والرى البدائى الذى يمكن أن يجىء عن هذا الطريق ، وبالمثل فان بعض خبرات معينة كصناعة الفخار تعود الى العصر الحجري الأخير ، واننا اليوم لا نجد صعوبة في تصور انتشار الفخار دون زراعة أو انتشار زراعة دون فخار ، ويمكن تصور أن الفلاحين الذين سلكوا طريق بهرنج قد حاولوا بكل تأكيد أن يستقروا ، ولعلمهم فعلوا هذا لعدة مرات وهم على الطريق ، ووجدوا انه لايمكنهم الزراعة في خطوط العرض الشمالية ، وبهذا يكون من المحقق أنهم فقدوا ما لديهم من جذور وبذور في محاولاتهم تلك ، ثم مارسوا أطوار الحياة المختلفة كالصيد وصيد الاسماك والتقاط الاشياء .

أما طرق الحياة الأخرى فاننا لا نكاد نجد لها أثرا في مجرى الاحداث فمثلا اننا نكاد ندرك أن المهاجرين قد تحركوا بسرعة كافية ليسترجعوا أعمال الزراعة بعد أن فقدوا النباتات التى زرعوها ، ولا بد أن هجرتهم قد استغرقت أجيالا عدة ومع ذلك فهناك نظريتان جديرتان بالتأمل حول هذا الموضوع ، وأيا كان الأمر فان النظرية الاولى لم تعرض عرضا جديدا

وكلتا النظريتين تفترض حركة مريعة الى درجة خيالية من آسيا الى امريكا الوسطى أو ما بعد ذلك مباشرة ، ونحن هنالم نبحت هاتين النظريتين (٤٦) .

ويمكن أن نعتبر انهم اجتازوا طرقا بحرية طويلة على أن نضيف فورا انه لم يعثر على أى اثر من نباتات العالم القديم فى اية زراعة من زراعات العالم الجديد فى الفترات القديمة . وانى ارى أن هذا لا يضعف من فكرة الاتصال بين العالمين ، فأيا كان الامر فإنه يوجد احتمال حقيقى بأن زراعة العالم القديم أو زراعة العالم الجديد أو كليهما قد بدأت بنباتات مختلفة عن النباتات المعروفة لنا ، وبهذا الخصوص (وهذا لا يصدق بالطبع على النواحي الأخرى) فإن كلتا الحالتين قد وضعت على الأساس ذاته مثل امكانية العلاقة بين زراعة الصين الشمالية وزراعة العالم الجديد ذات الجذور وتنبهنا تماما الى الأصل الأفريقى فمن المحتمل أن يكون أى تيار من تيارى الأطلنطى قد أودع الشعوب البدائية التى حملها من الساحل الأفريقى - أودعها الساحل ذاته من الأقليم الزراعى فى امريكا الجنوبية الذى عرف زراعة الجذور ، ومن الممكن تماما أن تكون هذه الزراعة فى العالم القديم قد وصلت الى افريقية فى زمن مبكر (٤٧) .

وثمة دليل خاص لعلم النبات يرجع أصل زراعة العالم الجديد الى زراعة العالم القديم ، فهولاء الزارعون قد وجدت بقاياهم على ساحل الانديز ويرجع تاريخ البقايا الى حوالى ٢٥٠٠ قبل الميلاد (٤٨) .

وكان أولئك الناس يعرفون القطن ونباتات (الجناريا) (٤٩) وهذان النوعان من النباتات يرجع أصلهما الى العالم القديم (٥٠) .

على أن تاريخا متأخرا كهذا لا يعنى شيئا على الإطلاق بالنسبة لموضوع أصل الزراعة فى العالم الجديد ، وذلك لاعتبار واضح فإن الشعوب التى نتحدث عنها تشبه الشعب الذى يعيش على الهامش ، والذى يمكن

(٤٦) قال بالنظريتين ، كارل سور فى كتابه Agricultural Origins صفحة ٥٦

(٤٧) Sauer صفحة ٣٤ - ٣٦ Agricultural Origins

(٤٨) انظر الفصل الاول ص ١١ من الاصل الانجليزى

(٤٩) كان يستخدم نباتات كجناريا فى صناعة الكؤوس والفناجين والاطباق عندما وصل الاسبانويون الى العالم الجديد .

Plauts across the Pacific George Carter (٥٠) ١٩٥٣ ص ٦٢ - ٦٦

أن يكون قد تراجع الى هذا الساحل الجذب قبل ضغط شعب آخر أكثر نجاحا من ذلك الشعب ، فإذا كان الأمر كذلك فإن اسلاف تلك الشعوب في الألف الخامس أو ما قبل ذلك ، ربما يكونون قد جاءوا من الجنوب الشرقي لآسيا حيث لم يعد القطن زراعة بوية وحيث رسخت صناعة الصيني من اقداح واطباق ، وذلك عن طريق تيار اليبان الذي أودعهم ساحل كاليفورنيا ، ولم يصل القطن الى افريقية حتى تاريخ متأخر جدا ، وعلى ذلك فتلك الشعوب لم يكن في وسعها أن تأتي عن طريق المحيط الاطلنطي .

ان الجفاف يؤيد نظرية الأصل المنفصل للزراعة المستقلة في العالم الجديد . وقد أثر الجفاف على الاقليم الذي يشغله الآن جنوب غربى الولايات المتحدة وشمالى المكسيك ، وترجع أبحاث « انتيفز » حول تتبع عملية الجفاف من بداية عام ٨٠٠٠ قبل الميلاد تقريبا الى درجته القصوى حوالى ٥٥٠٠ قبل الميلاد ، وظلت الحال هكذا الى حوالى ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

ويطلق « انتيفز » على العصور الألفية الثلاثة والنصف الاخير « الجذب الطويل » (٥١) حتى لو كان لا مثيل لهذا العصر ، والتواريخ محققة في المنطقة الصحراوية من العالم القديم ، أنه من الصعب أن تقاوم انطبعا بأن هذا التحلل في المناخ عندنا بمثابة العامل الرئيسى لكل من تطور الزراعة ، ثم فيما بعد ظهور المجتمعات المتحضرة أو على الأقل المجتمعات المتحضرة الأولى التى نشأت في العالم الجديد .

وهنا يمكن أن يثبت أن الممارسة الأولية للفلاحة قد جرى بها من آسيا قبل أو فور أن أصبحت تأثيرات الجفاف قاسية ، وربما كانت هي الممارسة الأولية التى وجدت باقية على ساحل الأنديز بعد ذلك بعبدة آلاف من السنين ، أو يمكن أن يثبت أن زارعى النباتات الجدرية من الساحل الافريقى قد القى بهم على شواطىء فنزويلا وكولومبيا ، حوالى ذلك الوقت ، وأن بعض نسلهم قد تحركوا شمالا وانتقلوا بزراعة الحبوب تحت تأثير الجذب المتزايد ، أو ربما قد حدث شيء آخر مختلف تماما لا نجد مايشير اليه في البيانات المعروفة في الوقت الحاضر ، وما زال من العسير أن نظن بأن تأثير الجذب كان هو التأثير الكبير على الحوادث ،

(٥١) ذكر كارل سور مؤخرا ان تقدم الثلوج الاخير في أمريكا الشمالية في زمن ادنى بكثير مما كان يظن .

كما كان ذلك محققا في حالة اقليم الصحراء الغربية من العالم القديم .

وبطبيعة الحال فانا نستطيع أن نضع فروضا جيدة ، وكثيرا من الشواهد الموجودة عن كيفية بداية زراعة الحبوب في العالم الجديد .

أولا - أننا نعلم تعاقب نوبات الجفاف والرطوبة في وادي المكسيك (٥٢) وهنا يوحى الينا (وان كان لا يمكن أن يثبت) بأن التأثيرات المحلية - وربما كانت تأثيرات الأمطار التي حملتها الرياح الغربية المعروفة من خليج المكسيك - قد عدلت في أوقات معلومة تأثيرات الجذب في الوادي وربما الى مسافات موهلة الى أقصى الجنوب عادة .

ثانيا - أن الدليل على بداية زراعة الحبوب في أمريكا الوسطى قد أصبح الآن كافيا الى حد بعيد وسوف ندرس بعد هنيهة زراعة الذرة ، ولكن أمامنا الآن زراعة نباتات (الدلسيم) لنبحث حبوبه ، لقد بين «جوناثان سور» أن نبات (الدلسيم) ذا الحبوب انما هو من نباتات العالم الجديد في الأصل (٥٣) .

وكانت المناطق التي تعنى بنباتات الدلسيم تشتمل على أمريكا الوسطى ولا يوجد أدنى شك في أن هذه النباتات قد زرعت في تاريخ مبكر (٥٤) ومن الاحتمالات البعيدة، أن نباتا كهذا يمكن أن يزرع في الوقت الذي يكون قد توطن فيه محصول الذرة وأصبح غلة ثابتة .

أما بخصوص الذرة نفسها فإن أقدم البقايا المعروفة من أشكالها المزروعة قد ولجد في (بات كاف) أي في سهول (سان أوجستين) في (نيومكسيكو) وهي ترجع الى أعوام (٤٠٠ - ٣٥٠٠) قبل الميلاد (٥٥) ولكن هذا الاقليم لا يمكن أن يكون هو اقليم منشأ الفلاحة لأن النبات هو نبات الأنجاد والمرتفعات كما يصدق هذا أيضا على الحبوب المزروعة في العالم القديم ، واني لا اظن أنه يمكن أن يوجد أدنى شك في أن زراعة الذرة قد نشأت في الأرض المرتفعة في أمريكا الوسطى ، ومما يؤيد هذا

(٥٢) Selected Papers of International Congress — Paul Sears of Americanists

١٩٥١ ص ٥٧ - ٦١

(٥٣) جوناثان سور « نباتات الدلسيم » - دراسة تاريخها صفحة ٦٥١ - ٥٦٢ .

(٥٤) كارل سور (صفحة ٤٦٧ - ٤٦٨) .

(٥٥) انظر مؤلف Libby صفحة ١١٢

الافتراض الآن احتمال ان تكون الذرة البرية قد نمت في وادى المكسيك منذ امد طويل يقرب من ٦٠ ألف عام مضت (٥٦) .

ان تاريخ بداية الفلاحة ينبغي ان يكون قبل تاريخ «بات كاف» اى ... قبل الميلاد او اقدم من ذلك .

وعلى ذلك يمكن ان نعزى رايًا موجزا هو ان الالاجئين وقد تحركوا نحو الجنوب بعيدا عن المنطقة متجهين نحو الاراضى الحجرية والصحراوية قد لجئوا الى مرتفعات امريكا الوسطى وبدعوا هناك زراعة الحشائش المتنوعة التى تشمل نباتات الدلسيم والذرة . وان الذرة قد أصبحت المحصول المفرد الاكثر نجاحا من المحصولات كلها ، المائلة لشعير وقمح العالم القديم كليهما ، وربما يكون زارعو الحبوب فى العالم الجديد قد اخترعوا تجربة الزراعة لانفسهم ، او ربما قد اخذوا هذه الفكرة من الذين زرعوا نباتات اخرى وان اسلافهم قد جلبوا فكرة الفلاحة من العالم القديم .

وهناك مصدر واحد للفكرة مأخوذ من فلاحى زراعة الجذور التى قامت فى اقليم فنزويلا وكولومبيا من امريكا الجنوبية ، ومع هذا فانه من الممكن جدا الا يكون ذلك هو المصدر ، ففى الواقع ان زراعة الجذور فى اقليم فنزويلا وكولومبيا لم تكن اقدم من زراعة القمح فى امريكا الوسطى . ان سبب تحرك السكان نحو الجنوب من الاقليم (الحجرى-الصحراوى) يمكن ان يكون سببه الازدحام ، ليس فى الاراضى الواسعة التى فى امريكا الوسطى فحسب حيث بدأت زراعة القمح ، بل أيضا وراء الاراضى البرزخية التى لم تكن تستطيع الاحتفاظ الا بعدد قليل من السكان فى اقليم فنزويلا وكولومبيا ، وربما يكون مثل هذا الازدحام فى ذلك الاقليم قد ادى الى ظهور زراعة الجذور هناك ، كما ان ازدحاما آخر نشأ بطريقة اخرى ربما يكون قد ادى الى ظهور زراعة جذور اخرى فى الاقليم الشرقى من العالم القديم .

كانت زراعة امريكا الوسطى اقدم زراعات حبوب العالم الجديد كما ذكرنا وأن الحلود الشمالية من اقليم امريكا الوسطى الزراعى لابد انها كانت فى مكان ما فى شمال وسط المكسيك فى بلاد مرتفعة ، طالما ان

(٥٦) اننى مدبّن البروفسور Junius Bird في تحديده بعدم اخذ هذا الدليل على ملأه .

جميع خضرواتها الهامة وكذلك الحبوب من أصل الاراضى المرتفعة ،
كالحال فى الاقليم الغربى من العالم القديم .

واذا ما اردنا تعيين حدود الاقليم جنوبا فان هذا اصعب بكثير لان
المناخ وجغرافية السكان سيظلان مناسبين تماما لكوستاريكا على الاقل
غير ان المحصولات قد نشأت دون شك فى أمريكا الوسطى ذاتها . ان
الدرة والفول واللوبياء والفاصوليا والقرع قد زرعت معا هناك على رواب
عالية صغيرة من الارض ، وكانت الخبرة فى هذه الزراعة غير متشابهة
تماما لخبرة زراعة القمح فى العالم القديم ، ولكنها ذات اهمية كبيرة من
حيث علاقتها بممارسة الزراعة ذات الجذور فى اقاليم العالم الجديد
نحو الجنوب (٥٧) . ووجد ايضا الفول واللوبياء والفاصوليا وعدد من
انواع الفاكهة وأشياء أخرى متنوعة ، ولم تعرف الحيوانات المستأنسة ،
اذ كان الموجود من هذه الحيوانات قليلا لدرجة كبيرة عن الموجود منها فى
اقاليم العالم الجديد التى القينا عليها نظرة ، ولكن بعضها نقل من اقاليم
أمريكا الجنوبية كما أن الدندى قد وجد فى وقت ما .

ان زراعة الحبوب فى العالم الجديد التى تهتمنا هى من الاقليم
الغربى لأمريكا الجنوبية ومن العسير تحديد حدود هذا الاقليم شمالا
شأنه شأن حدود اقليم أمريكا الوسطى جنوبا ، وربما كان الاقليمان غير
منفصلين ، ولكن الاقليم الغربى لأمريكا الجنوبية له - بدرجة ما - شخصية
مستقلة ، لانه قد أوجد عددا من النباتات المعينة التى زرعت حديثا ، وقد
اتسع الاقليم الى جهة الجنوب بسبب مناخ بوليفيا والارض التى تضم
جميع المرتفعات الوسطى بسلسلة جبال الانديز وارتفاعات أعلى من الوسط
لعدد قليل من مناطق الحضروات ولاشك أنه وجدت أراض عانت من
الجفاف بالقرب من الاقليم فى الوقت الذى بدأت فيه الزراعة هناك .

وكانت الصحراء الساحلية موجودة بلا شك منذ امد طويل ،
وكانت أطرافها دون أدنى شك تمتد نحو الخارج كلما قلت موارد المياه
التي يسببها الدوبان السنوى فى جبال الانديز . والامر الاكثر احتمالا
عن غيره هو ان مساحات عريضة كهذه مثل صحراء سيشورا فى شمالى
بيرو وصحراء «لاتاكاما» فى الطرف الجنوبى من الاقليم ربما تكون مصدر
السكان الذين دفعتهم الظروف للترحال ولكن هؤلاء السكان لم يكونوا
عددا كبيرا جدا . ومن المؤكد أيضا أنه كان قبلهم عدد وافر من السكان

(٥٧) كارل سور فى « الاصول الزراعية » صفحة ٤٥ ، ٧٠ .

الذين كانوا يقيمون في الأراضي المرتفعة ، ووجدوا أن مواردهم من المياه أخذت في النقصان .

غير أن الصعوبة في اكتشاف الظروف المحلية في الاقليم الغربى من أمريكا الجنوبية التى كانت كافية لدفع الناس الى الفلاحة ، إنما هى التى تتمثل فى اتساع رقعة المكان بدرجة أكثر مما يحتاجون اليه كماوى لهم ، وكانت هناك ضرورة الى أولئك السكان تقتضيها الحاجة الملحة اليهم فى ذلك الحين .

وبدأت الغابة الاستوائية فوق الجبال العالية في المنحدرات الشرقية ولا بد أن السكان الذين استطاعوا الوصول الى ذلك المكان كان في مقدورهم بالتأكيد أن يجدوا مقومات الحياة دون ما حاجة الى القيام بتجارب لا جدوى منها . ولا يوجد أدنى احتمال في أن ذلك الاقليم كان أهلا تماما بالسكان ، وربما كانت الجبال ذاتها غير مملوءة بالسكان المشتغلين بصيد الحيوانات والذين عرفوا الجنى ، هذا إذا اكتفينا بالاكشافات الأركيولوجية الناقصة التى أجريت هناك باعتبارها دليلا كافيا .

ومهما كانت معرفتنا قليلة عن الزراعة القديمة في الاقليم الغربى من أمريكا الجنوبية فإنها تحمل إلينا على الأقل ندرا يسرا من التلميحات العامة التى يفاد منها أن الزراعة قد جلبت الى هناك من اقليم أمريكا الوسطى ، ولقد سبق أن اقترحنا أن المستوطنين الزراعيين الأوائل على ساحل بلاد بيرو في أمريكا الجنوبية كانوا من الشعوب التى تعيش على الحدود أو التخوم ودفعتهم الشعوب الأخرى نحو الجنوب ، فإذا ما كان هذا صحيحا فإن هؤلاء السكان قد جلبوا معهم زراعتهم البسيطة من اقليم زراعى أقدم من اقليمهم في أقصى الشمال .

لقد جاء الفخار وجاءت الدرة سريعا من بعده الى هؤلاء الناس ربما عن طريق تدخل أناس غيرهم حوالى العصر الألفى الثانى قبل الميلاد ومن ثم توطدت مجموعة من زراعة الحبوب توطدا تما في الاقليم الزراعى الغربى من أمريكا الجنوبية ، وهذا يوحى إلينا بقوة أن زراعة ذلك الاقليم قد اشتقت من زراعة اقليم أمريكا الوسطى ولا بدعو هذا الى الدهشة لأن علاقة كهذه باقليم أقدم منها من أقاليم العالم القديم شئ منطقي نظرا الى عدم وجود دليل بأن الإنسان في الاقليم الغربى من أمريكا الجنوبية كان ملزما بأن يجد لنفسه موارد طعام جديد أو يهلك .

وإيا كان الامر فإننا نعرف شيئا أكثر قليلا من هذا عن أصل

الزراعة في الاقليم الغربي من أمريكا الجنوبية ، وقد أصبح في هذا الاقليم تدريجا مجموعة من الخضروات وهي - ولو أنها كانت صغيرة - كانت كافية تماما ، ولا شك في أن البطاطس كانت أشهر صنف من هذه الاصناف .

ولقد زرعت أصناف متعددة من البطاطس في مرتفعات الانديز ، ولقد نجحت زراعة البطاطس ونمت ولا تزال تنمو في أمريكا الوسطى الى أقصى الجنوب قبل منطقة بوليفيا (٥٨) ، وأصبح بهذا الاقليم نوعان من الحيوانات المستأنسة هي «اللاما» (وهو حيوان من فصيلة الجمل) و «الالبكا» (وهو نوع من الأغنام) غير أن هذين النوعين لم يؤكلا الا في عدد قليل جدا من الاحتفالات التي تجرى فيها الطقوس الدينية .

وليس من الضروري أن يكون المستوطنون الأوائل على ساحل الانديز والذين احتلوا مكانا هاما في بحثنا هذا هم أقدم الزارعين في الاقليم الغربي بأمريكا الجنوبية أو ربما كانوا كذلك ، وفي حالة وجودهم فليس هناك ما يحمل على الظن بأن الزراعة كانت هناك حوالي عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد أو قبل ذلك التاريخ .

وبهذا يتم تخطيطنا لأصل أنواع الزراعات السبعة الأولى في العالم . خمسة أنواع منها زراعة الحبوب وتضمنتها فيما بعد أبحاث أصل المجتمعات السبعة الأولى المتحضرة ونوعان من الزراعة ذات الجذور التي قد يتضمنها أو ربما لا يتضمنها أصل زراعة الحبوب ، ووجدنا أن الاشتقاق ثابت تماما في حالتين من الزراعات السبع .

وهناك رأى بأن زراعة الحبشة قد اشتقت من الزراعة الغربية للعالم القديم وأن الزراعة الغربية لأمريكا الجنوبية قد اشتقت من زراعة أمريكا الوسطى وهي تعد الزراعة الأقل عمرا بلا شك ، وكل حالة من هاتين الحالتين تعتبر مدينة بمحصولها من الحبوب الخاصة التي تميزت بها وبغيرها من المحصولات الأخرى للزراعات التي هي أكثر تقدما فيها ، وإذا ما بدا من المحتمل أن زراعة الصين الشمالية مدينة بشيء ما لكلتا الزراعتين الغربية والشرقية في العالم القديم فإنه غير مؤكد تماما أنها مدينة بأصلها لأية منهما ، ومن المحقق أنها ليست مدينة لأحدهما بمحصولات القمح الخاصة بها . كما أنه غير محقق أيضا أن زراعات

(٥٨) فالبلوف في « الأصل والتنوع » صفحة ٤١ .

الحبوب الرئيسية في العالمين القديم والجديد وهى الزراعة الغربية في العالم القديم وزراعة امريكا الوسطى مدينة بأصلهما للزراعتين ذات الجذور أو العكس أو ان الزراعة ذات الجذور وزراعة الحبوب قد نشأتا مستقلتين الواحدة عن الاخرى .

واخيرا نسأل : هل العلاقات بين زراعات العالم الجديد والعالم القديم ما زالت غير مؤكدة فحسب أو هى غامضة أو تتناقض مع معلوماتنا الحالية ؟

أما عن رأى الشخصى فهو انه اذا ما وجد دليل كاف يركن اليه عن العلاقات التى هى موضع نظرنا فانه يبين في معظم الحالات لبعض ديون زراعات العالم الجديد لزراعات العالم القديم ، وطبعاً هذا لايعنى الديون بعد الاصول فان ديونا كهذه محققة بالبرهان تماماً ، وكلما زادت المعرفة ، فمن المحتمل ان تبدو من الامور العادية كما انها لا تعنى ان تكون (ديونا) من مادة رئيسية كهذه التى نسميها محصولات اساسية ، وانما تعنى ديونا ترجع في الواقع لاصل الافكار والخبرة الاولى التى يمكن ان تحل محلها ارادة اخرى أكثر تأثيراً ، وربما تخلفها خبرات ونسبات تصبح مناسبة لاقليم من الاقاليم ولكنها لا تناسب الاقليم الذى قام بنقلها ، واننى اتصور ان سكان العصر الحجري الوسيط قد استخدموا كثيراً من العناصر الزراعية من أجل حصولهم على غذائهم وهذه العناصر لم يكشفها علماء الآثار القديمة بين بقايا أولئك السكان حتى الآن .

وقد توصل علماء الآثار القديمة الى بعض هذه البقايا ، وتميزت بعض الفروق بين الزراعات الاولى عن طريق اقتراض هذه العناصر بعضها من بعض ، أكثر من النقل المباشر من زراعة الى زراعة اخرى .

فالذا كان هذا حقاً هو طبيعة العلاقات بين الزراعات الاولى المختلفة فهل ثمة مشابهة فعالة اذن بين تقدم الزراعات ذات الجذور في العالم القديم والجديد بين تطور ثلاث الزراعات الاصلية القديمة ؟ زراعات الحبوب ، وتشابه تعاقب زراعات الحبوب للزراعة ذات الجذور أو العكس في حالتين ومن ثم ظهور مستقل لزراعتى الجذور والحبوب في الحالتين بشكل متماثل ، ان هذه التماثلات لا يمكن تحديدها تماماً بالعلاقات الوثيقة الاصلية بين الزراعات المختلفة ، كما انها لم تتسبب عن مشابهات

البيئة وحدها دلا عن طريق الوحدة الروحية للجنس البشرى (٥٩)
غير أن عقلية الناس المتشابهة عادة - والتي يمكن أن تطلق عليها بصعوبة
الوحدة الروحية - وتمثل في البيئة المتشابهة والتفجرات المتماثلة في
البيئة والاستمرار الحقيقى للتقدم .

هذه العقلية تبدأ بالعلاقات الأصلية فإذا ما أخذت هذه العوامل
مجتمعة فإنها قد تبين جيدا التكرار في « أصل » و « تحسين » الزراعات
الأولى .

(٥٩) هندد كارل سور بالوحدة الروحية للجنس البشرى كما يندد أيضا بقوة تأثيرات
البيئة .

الفصل
الثالث

واديان
النهر

كانت خمسة من الاقاليم الضيقة التى نشأت فيها المجتمعات المتحضرة الاولى فى وديان الانهار وهذه الخمسة هى : المجتمع المصرى والمجتمع العراقى والمجتمع الهندى والمجتمع الصينى والمجتمع الاندزى . وكان تحلل المناخ نتيجة الجفاف فى جميع هذه الحالات الخمس هو السبب النهائى لاتجاء الناس الى وديان النهر ، ولكن هناك عاملان آخران اسهما فى دفع الناس الى التحرك ، واحد هذين العاملين هو الزيادة فى عدد السكان ، والاخر هو انهاكم للتربة فى الاقاليم التى كانوا يستوطنونها من قبل . ويمكن ان نعتبر ان هذين العاملين ثانويان بالنسبة للجفاف بمعنى انهما كانا عرضيين بالنسبة للزراعة ، والزراعة كما نعلم كانت قد تطورت على يد الانسان باعتبارها جزءا من دفاعه القديم ضد الجفاف وقد تفاعلت جميع هذه العوامل الثلاثة - زيادة السكان وانهالك التربة واستمرار الجفاف - تفاعلا وثيقا على دفع البشرية بلا هوادة الى الرحيل من البلاد التى كانت تعتبر المأوى الامين الذى التجأت اليه فى زمنها .

لقد تسرت الزيادة التى حدثت فى اعداد السكان بفضل موارد الطعام التى زادت زيادة كبيرة ، والتى طورتها الزراعة واقتناء الماشية ، وبالطبع فان زيادة موارد الطعام هى التى جعلت البشرية تسترد انفسها فى نضالها ضد المناخ ، وزيادة عدد البشر هى الدليل الحاسم على فترة الراحة هذه ، غير ان الاعداد الرائدة من السكان كانت عاملا دافعا حتما للزارعين البدائيين بجانب كونها عاملا مساعدا فلقد كثرت الايدى العاملة فى المزارع حتى الاولاد كان يمكنهم القيام بآية اعمال مفيدة فى الزراعة ، وقد اكسبت زيادة عدد الناس قوة

ضد الأعداء وضد الإعداء من البشر بالذات دون ماريب ، غير أنها كانت تستخدم أيضا ضد الحيوانات المفترسة الخطيرة ، ومن الممكن أن نفترض أن الزراعين البدائيين قد عرفوا شيئا عن الإزدحام الذي تعرضوا له أخيرا وذلك عند مبادات خبرتهم بزيادة ما تلاتهم ، ولابد أنهم اكتشفوا هذا عندما توطدت هذه الخبرة جيدا وأصبح من الصعب الخروج عليها أو كبحها ، وفي الواقع لم يكن خطرها الكامن وغير المحسوس قد رجح تماما مزاياها الحقيقية .

أما فيما يتعلق بانهاك التربة فلا يوجد أى دليل على أن الشعوب البدائية فى أزمنة ما قبل الحضارة قد بذلت أية محاولة لعمل أى شيء للتغلب على انهاك التربة ماعدا ترك هذه التربة الى أراض جديدة ، وفى الواقع هناك أدلة كثيرة على أنهم تركوا الأرض مرات كثيرة الى حد أننا نفترض أنهم لم يقوموا بأية محاولة على الإطلاق لصيانة الأرض أو أنهم نجحوا فى أية وسيلة لها تأثير ذو قيمة . وكما ذكرنا فى الفصل الأول فإن تأثير تلف التربة لبد أنه كان متنوعا الى درجة كبيرة مع تنوع الصفة الأولية للتربة فى المناطق الزراعية المختلفة ، وربما أيضا مع الاسراف النسبى فى استخدام طرق الزراعة المختلفة ، غير أن جميع الطرق التى كانت معروفة عند جميع الاقاليم الزراعية المختلفة فى ذلك الحين كانت نالفة جدا .

وشعرت الشعوب بتأثير الجفاف عندما بدأت الزراعة ، كما كانت الحال أيضا عندما بدأت الجماعات المتحضرة فى وقت متأخر فى العالم الجديد بكثير عن الجزء الغربى من العالم القديم ووقعت الإزمة فى الجزء الشمالى الشرقى من العالم القديم فى وقت متأخر عن مجيئها فى الجزء الغربى ، كانت هذه الاختلافات تمرى اجمالا الى الفروق فى زمن التغيرات الطبيعية فى الأجزاء الثلاثة من العالم المشار اليه .

وإيا كان الأمر فإن حركة السكان كانت عاملا من العوامل أيضا كالحال بين جزاى العالم القديم . فاللاجئون فى الاقليم الغربى الزراعى لم يبعثوا عن الوديان العظيمة للنهر فى ذلك الاقليم فحسب ، بل ان بعض المهاجرين تحركوا شرقا تجاه اقليم الصين الشمالية ، ولم يمض وقت طويل حتى ضمتهم الصين الشمالية الأصلية فى حوض النهر الأصفر حيث نشأ المجتمع الصينى المتحضر .

كانت الإزمة التى أدت الى خلق المجتمعات المتحضرة هى بذاتها والى درجة كبيرة الإزمة نفسها فى كل اقليم ، لقد تكونت أربعة مجتمعات

مختلفة متحضرة في الاقليم الغربى الزراعى . المجتمع المصرى والعراقى والهندي ومجتمع جزيرة كريب ومع أن الأزمة أوجدت مجتمعا واحدا في كل اقليم في حالة المجتمعات الثلاثة الأخرى ، وقد يكون هذا لأن الزراعة الغربية في العالم القديم والاحتفاظ بالماشية قد أدبا الى زيادة أكبر في السكان عن الزيادة التي جاءت بها الزراعات الأخرى ، ولكن لا يمكن أن نقول : اننا نعرف هذا فربما كان اللاجئين المتعاقبون أقل ، وليس من السهولة الوصول الى شعوب الاقليم الغربى من العالم القديم ، واننى اظن انهم كانوا هناك ، اننا لا نعرف الأهمية النسبية للعوامل الثلاثة ، - زيادة السكان ونهاك التربة والجفاف - في الأقاليم الأربعة وربما كان فى استطاعتنا أن نخمن مما سنذكره عن الديانات فى الفصل الخامس أن الجفاف فى جميع الحالات قد ظهر للشعوب بالنسبة الى كل منها على أنه الخطر المشترك الكبير ، ولا توجد أدنى إشارة الى أن أى شعب من تلك الشعوب حاول مواجهة تزايد السكان عن طريق اتباع عمليات الاجهاض أو تحديد النسل كما فعل بعض البدائيين فى التاريخ .

ومن المحتمل جدا أن يكون الخصب الخاص وتجديد الأرض سنويا في وديان النهر قد أبطلت تماما فى واقع الأمر تأثير انهاك التربة وهذه تكون مصادفة موفقة ، وقد يكون الأمر غير ذلك وربما يكون المهاجرون قد اكتشفوا هذا قبل أن يبحثوا عن مأوى آخر لهم فى الوديان .

وامتقد أن اللاجئين ربما قد عرفوا وجود الوديان بزمان طويل قبل نزوحهم اليها ، وأنهم لم يعمثوا عليها أبان فرارهم اليانيس ولكن وادى النهر لم يكن جذابا فى ذاته فى أية حالة كانت وكان فى كل واد صعوبات هائلة باعتباره موطن للناس العاملين بالزراعة .

ومما لاشك فيه ان هذا هو السبب فى أن الشعوب المختلفة بالزراعة لم تستقر فيها منذ زمن مبكر ، وكانت الوديان فى جميع الاوقات ماعدا فترات الفيضانات مملوءة بالمستنقعات والنباتات الكثيفة النمو والتي كان من الصعب جدا تنقيتها ، ولكن كان لابد من انتزاع هذه الاحراج اذا كان لابد من وجود حقول تكفى الزراعة .

وقد وجد العلماء أماكن لاتزال تبين حتى اليوم الظروف الطبيعية لبعض الوديان قبل أن يخضعها الإنسان لارادته ، فان النيل فى ذلك الوقت كان ينبسط على نطاق أوسع فى البلاد السودانية جنوب بحر الغزال ، أما وديان دجلة والفرات فعلى النقيض من ذلك ، اذ كانت تبدو فى حالتها الأولية ، ولكن على نطاق أضيق وأكثر رطوبة مما كانت عليه

في الاراضى ذوات المستنقعات التى امتدت من شط العرب حيث تحمل تلك القناة المياه الى الخليج العربى (الفارسى) (١) .

ان الوادى الاسفل للنهر الاصفر مايزال كما كان في وقت استيظاته ينعكس في الوادى الأعلى من « يسورى » وهو من روافد نهر يصب في (أمور) على الحدود الشرقية من منشوريا (٢) .

اما في حالة النيل فتحة سند أدبى مستمد من التأكيد الطبوغرافى والاريكولوجى القديم عندما كانت بعض الاراضى البرية ما زالت باقية في الوادى (٣) والسند الاول يعتبر شرحا لوصف طرق الصيد في الوادى الذى تكثر فيه المستنقعات ويبين السند الثانى انواع الطيور والحيوانات التى وجدت هذه الايام فقط على افرع النهر العليا وبالمثل فان حالة «الهندوس» الاولى يمكن ان نعرفها جيدا عن طريق الحيوانات الخاصة ببلاد رطبة وهي قد اختفت الآن وقد وضحت منذ زمن طويل في البقايا المصور التى عثر عليها موهنجو دارو (٤) .

ولقد كان امام الزارعين البدائيين مهمة كبيرة ، اذ كان يتحتم عليهم توطيد انفسهم في بلاد مملوءة بمستنقعات من هذا النوع . ان الفيضان السنوى وحده كان تهديدا لوجودهم وان مواطنهم الاولى كانت تكاد تكون محصورة دائما بأراض أبعد مايمكن حتى لا يصل اليها الفيضان ، هذه الاراضى كانت خالية من المستنقعات الى درجة كبيرة أو أقل من ذلك ، وأيما ماكان الامر فانها كانت خالية من نبات البردى القوى .

وكانت مساحة الاراضى التى كانت رطبة للدرجة تكفى زراعة المحصولات تختلف اختلافا كبيرا على حسب الحالات المختلفة .

وهذه الاراضى كانت جيدة على الدوام ، غير انها كانت تحت تأثير الجفاف الدائم في كل مكان ، ويقضى على هذا الجفاف بعد مدة باستخدام المستوطنين لطرق الزراعة ، وأخيرا اضطر المستوطنون في جميع الحالات

(١) راجع The Geographical Journal ١٩٤٢ (صفحة ٢٤ - ٣٦)

(٢) راجع Toynbee في A Study of history

لندن ١٩٣٤ (صفحة ٣٠٣ - ٣٢١)

(٣) راجع John A. Wilson في The Burden of Egypt

شيكلر ١٩٥١ (صفحة ٧٦ - ٧٧)

(٤) راجع Sir John Marshall في «موهنجو - دابو وحضارة الهندوس لندن ١٩٣١ »

الى أن يتحركوا الى ارض المستنقعات ذاتها ، والجدير بالملاحظة ان المستوطنين عندما كانوا يضطرون الى هذا كانت المستنقعات والفيضانات اقل مما كانت عليه في الأزمنة الغابرة في أثناء وجود الانسان الزراعى . فان الجفاف دفع المستوطنين من مواطنهم القديمة ، ثم من المناطق التى لجأوا اليها مؤقتا ، وكان يعمل دائما على نقص الفيضانات السنوية والمستنقعات التى فى الوديان الداخلية تقصا مستمرا . واثق لتجد تدرجا معينا محققا فى حركة المستوطنين الى الوديان الداخلية . . لقد كانوا فى بدء الأمر يستدرجون تحت تأثير انحسار المياه ، ثم يعودون فينكمشون بانكماش ملائمتهم المؤقتة .

ومن المحتمل انهم اضطروا على الفور الى عمليات المصارف والمجارى واقامة السدود والحواجز . وإيا كان الأمر فان هذه المهام قد انجزت ، ويعتبر انجازها فى كل حالة نجاحا وظفرا . فانه قدم الحل المناسب لمشكلة المياه ، وفى الوقت ذاته قدم حلا لمشكلة تلف التربة وانهائها ، ذلك لان الفيضان يجلب كل عام طبقة جديدة من التربة من الغرين الذى يحمله ، وبهذا لم تعد الأرض منهكة بالمعنى الحرفى ، ولم تكن كذلك خصبة الى درجة خيالية ، غير انه كان عليهم فى بادىء الامر ان يتعلموا : كيف يتركون الفيضان يغمر الأرض ، وكيف يبقون فى امان منه ، وكيف يحتفظون بالحيوانات ويربونها كما يحتفظون بامتعتهم مألوفة من خطر الفيضان . . . وبعد ذلك كان عليهم تصريف المياه بعد اخصابها للتربة وترك الحقول معدة لبذر البذور ، بل انهم استطاعوا أن يجدوا الحلول لمشكلة السكان لزم من طويل وللدرجة تتيح للمجتمعات المتحضرة ان تكبر وتنمو ، وان تجد طرقا جديدة بأكملها لتوسيع مواردها المادية التى يمكن أن تدعم الجنس البشرى .

وصوف نراجع الظروف المادية عند قيام كل مجتمع من هذه المجتمعات التى نشأت أصلا فى وديان الأنهار . ولنبدأ بالمجتمع المصرى . ومصادر معلوماتنا عن هذا المجتمع ثلاثة :

أركيولوجية وجيولوجية وميثولوجية ، والمصدران الاولان يتضمنان البيانات المألوفة التى تستخدم عند الدراسات المتعلقة بأصل المجتمعات المتحضرة وسيضاف اليها كما هو الأمر مادة كل البيانات التى جاءت فيما بعد والتى لها ثمة علاقة بأصول هذه المجتمعات ، ولن تستخدم البيانات الميثولوجية فى هذا الفصل فحسب ، بل فى سائر فصول الكتاب الباقية أيضا . وفى اعتقادى ان هذا المصدر من المعلومات لم يستغل

استغلالا كافيا (٥) . أما الأساطير التي سوف نتعرض لها في هذا الفصل ، فهي على الخصوص ، أساطير الخلق والتكوين .

اننا نعلم أن جميع أساطير الخلق المصرية تبدأ بالمياه « الهيبولية » . وتحدثنا إحدى الأساطير عن إله كان في ذاته هو الأرض التي نشأت من المياه ، وعن إله آخر صنع الإنسان على صورته ، وهو يسد جميع احتياجات الإنسان بإبعاد وحش المياه الهائل عنه .

وهناك عدة أساطير تصور المياه الهيبولية بأنها « الالهة نون Nun » والتي من مادتها خرجت الحياة .

وهناك أسطورة أخرى تصور « رابية أولى » خلق عليها إله الشمس « الأم » نفسه ومن ثم خلق بقية الكون (٦) .

ويبدى « هنرى فرانكفورت » في عرضه العام لأصول الحضارات في الشرق الأدنى - رأيا يتلخص في أن بعض المستعمرات الأولى والقديمة جدا والتي تكونت في وادي النيل قد أقيمت على رواب وسط المستنقعات والأراضي الموحلة (٧) . وهو يعتقد أن روابي كتلك الروابي قد تكونت بمثابة ضفاف للنهر عن طريق رواسب الغرين مع التراب الذي تحمله الرياح ، إلا أن النهر ، بعد مرور فترة من الوقت ، يشق الشاطئ الذي تكون على هذه الصورة تاركا المجرى القديم أرضا موحلة وتاركا الشاطئ سلسلة من الروابي تقف فوق كل من النهر والمستنقع (٨) .

ويستطرد فرانكفورت قائلا : « كانت جميع آثار هذه المستعمرات في الوادي الأصلي قد اختفت منذ زمن طويل ، إنها لم ترسب فحسب ، بل جرفت المياه أيضا بفعل التغيرات التي حدثت في طريق النهر ، وهذا يوضح لماذا نجد أثر المستعمرات الأولى على حافة الوادي وسفوح الجبال وفي أسفل الجروف العالية (جروف الصحراء العالية) ثم يبدأ انخفاض الوادي » (٩) .

(٥) بعض موارد الأساطير التي سنعالجها ترجع إلى الأئمة البدائية .

راجع « Historical Tradition and Oriental Research — H. Breasted » .

(٦) راجع ولسون وآخرين في The intellectual adventure of ancient man .

(١٩٤٦ م) (٤٥ - ٥٥)

(٧) هنرى فرانكفورت في « مولد الحضارة في الشرق الأدنى » ص ١ .

(٨) لا يذكر فرانكفورت إذا ما كان يتمثل الأساطير أممه وهو يدلي بهذا الرأي !

(٩) راجع « فرانكفورت » في « مولد الحضارة » ص ١ .

ثم يعتقد فرانكفورت أنه - وإن لم يكن يوجد الآن أى دليل على المستعمرات الأولى مباشرة فى الوادى - فإن مستعمرات كهذه قد تكونت ، وإن أقدم المستعمرات التى لدينا دليل أركيولوجى على وجودها لم تكن هى وحدها المواطن القديمة جدا دون سواها •

أما بخصوص المستعمرات التى تحتفظ بتاريخها فإنها فى مجموعتين: المجموعة الأولى : من هذه المستعمرات ، فى الشمال وهى الاقليم المعروف بالوجه البحرى •

والمجموعة الاخرى : الى جهة الجنوب فى منتصف طريق النيل فى اقليم صعيد مصر « مصر العليا » وكان أحد هذين الموطنين خارج الوادى تماما • وكان هذا الجزء بجانب بحيرة الفيوم ، تلك البحيرة الكبيرة التى وجدت فى وقت ما على الجانب الغربى من النهر بحوالى ٢٥ ميلا ، وعلى مسافة ١٣٠ ميلا من ساحل الدلتا فى الوقت الحاضر (١٠)

وكانت على الشاطئ الشمالى الغربى من بحيرة الفيوم ، قرية كبيرة مبعثرة أو ربما كانت مجموعة من القرى الصغيرة المترابطة ، وكانت قرية أخرى على مسافة تزيد عن ٥٠ ميلا أقصى الشمال بالقرب من « بنى سلام » التى على مسافة ميل واحد أو أكثر قليلا من مصب رشيد الآن (١١) •

أما المجموعة الاخرى من المستعمرات الاولى فهى ، معروفة من البقايا المنتشرة على طول الجانب الشرقى من نهر النيل ، عند الطرف الخارجى للوادى فيما بين الحافة الخارجية التى وصل عندها الفيضان والجروف عند نهاية الصحراء المرتفعة • وهى فى الاقليم المعروف الآن بقرى الخوالد وديرتاسا مارا ببلدة البدارى الى الهامية • وتقرب المسافة من ٣٥ من الميل ، ومعظم البقايا التى عثر عليها كانت عبارة عن مقابر قريبة من قرية أو مخيمات •

وببعد مكان هذه المجموعة عن مكان المجموعة الاولى بمسافة ١٥٠ ميلا • ان الاختلافات الثقافية بين المجموعتين ، المجموعة الشمالية والجنوبية على درجة من الاهمية ولكن ليست كبيرة • والمستوى العام للثقافة على درجة واحدة ، وإن كان فى مجموعة الفيوم أفضل قليلا ،

(١٠) ان بركة قايرون الموجودة الآن هى الى حد كبير من مخلفات بحيرة الفيوم بعد ان اكتشفت كثيرا •

(١١) انظر الحاشية رقم ١٧ من هذا الفصل •

وتختلف بعض التفاصيل الخاصة بالفخار والأمور الأخرى ، وكانت الجماعتان - من الشعوب ذات الثقافة المسماة بـ (ثقافة الفاسي) الأصلية ، أما الأواني الفخارية فلم تكن دقيقة بل كانت نماذج بدائية . وقد وجدت الماشية والأغنام والحنازير المستأنسة وربما كانت قليلة العدد ولاسيما في قرى الفيوم ، وكان صيد الحيوانات في المستنقعات عاملا هاما في معيشة السكان . أما الحبوب التي زرعت فكانت القمح والشعير ، ووجدت (الفيوم) في أقاليم كانت الصحراء تجور عليها ولا سيما في الفترة التي قامت فيها المستعمرات وبعدها مباشرة (١٢) ومن المحتمل ألا تكون قد وجدت نباتات على مدار السنة في أي من المكانين ، ولم يكن من المحتم تنقية الصحراء أو تصريف مياه المستنقعات ، ولم يكن لبحيرة الفيوم أي اتصال مباشر بالنيل عندما قامت المستعمرات (١٣) .

وعلى ذلك لم تتأثر (بحيرة الفيوم) بالفيضان السنوي وهذه ميزة جديرة بالذكر بالنسبة للبدائيين الذين لم يكن لديهم خبرة كثيرة ، أو لم تكن لديهم خبرة على الإطلاق فيما يتعلق بالتحكم في المياه ، ولم يكن هذا الوضع متيسرا في (ميرمد) .

وثمة دلائل تشير إلى أنه كانت هناك بركة ماء ربما كانت بمثابة خزان مياه بدائي (١٤) يمتلئ سنويا من فيضان النهر على ما يظن .

وكانت المستعمرة على رابية صغيرة عند (ميرمد) نفسها ، ومن المحتمل أن فرع رشيد كان يجري وقتئذ حيث يجري الآن أو في مكان ما قريب جدا إلى جهة الشرق ، ولا بد أن تكون قد اتخذت بعض الاحتياطات الضرورية إبان الفيضان وإن لم يكن لدينا ثمة دليل على ما كانت عليه تلك الاحتياطات .

أما في صعيد مصر ، فقد عاش بعض سكان البداري (١٥) أو جميع سكان منطقة ديرتاسا بعيدين عن الفيضان ومن المظنون أنهم وأسلافهم من قبل قد عاشوا في منطقة لا يصل إليها الفيضان كما ذكرنا أي في الأراضي

(١٢) راجع (صحراء الفيوم) تأليف كاثون طومسون وجاردنر لندن ١٩٢٤ ص ١٧ .

(١٣) المرجع السابق ص ١٨ .

(١٤) انظر مؤلف المؤرخ Junker ص ١٧٢ .

(١٥) كثيرا ما يطلق اسم أهالي ديرتاسا على السكان الأوائل في صعيد مصر ، ولكنهم منصر غير محدود إلى درجة ما في التاريخ . وغالبا ما يعتبرون منتفرا أصيلا ومميزا عن سكان البداري .

الجافة أو التي جفت تحت سفوح الصحراء المرتفعة . ويرى «فراكتفورت» أنه كان هناك سكان من هذا النوع يعيشون على الروابى داخل المنطقة الموحلة ، ومازال هذا من باب التخمين .

وقد تبلورت الآراء بشكل ثابت في السنوات العشر الأخيرة حول أصل جميع هؤلاء المستوطنين الأوائل ، على أنهم قد جاءوا من الجنوب من النوبة أو من المنطقة التي وراءها . وكانوا من نسل أولئك الذين تحدثنا عنهم في الفصل الأخير وهم الذين تركوا الأقليم الغربي الزراعى قبل قيام المجتمعات المتحضرة في الأصل بزمان طويل وساروا متبعين طريقا ما واستقروا في منطقة الحبشة (١٦) .

وقد يتعلّق هؤلاء الناس فمن المهم أن نذكر أن الحبوب التي أحضروها الى مصر والأغنام وهي الحيوان الوحيد الذى جاؤا به كانت من آسيا في الأصل وليس من افريقية أو بمعنى آخر إن هذه الحبوب والأغنام كانت من أصل أسيوى وليس من أصل افريقى .

ويرجع تاريخ مستعمرات الفيوم الى حوالى ٤٥٠٠ و ٤٠٠٠ . قبل الميلاد (١٧) . وفى تقديرى أنهم ربما كانوا هناك قبل ذلك التاريخ بقرون قليلة أكثر من ٤٥٠٠ ق.م .

وأيا كان الامر ، فإن القمح الذى أخذ من مخازن الحبوب فى الوقت المضار اليه ربما لا يكون أول قمح قام أهالى الفيوم بزراعته . اننا لانعرف متى زرع أهل البدارى القمح ولكننا نعرف متى زرعه سكان نقادة الأوائل الذين خلفوا أهل منطقة البدارى وكانوا يشبهونهم شبيها عظيما ، ومن المحقق أنهم انحدروا منهم فيما بين ٤٠٠٠ و ٣٥٠٠ ق.م (١٨) .

ويستنتج من ذلك أن أهالى البدارى وأهالى ديرتاسا كانوا معاصرين لسكان الفيوم ، وهذا افتراض ظل قائما لمدة طويلة وإن كان بعض العلماء يظنون أنهم عاشوا قبل ذلك التاريخ بخمسة قرون أو أكثر من التاريخ الذى توصلنا اليه .

(١٦) تحدثنا فيما سبق عن هؤلاء الناس .

(١٧) انظر أبحاث Williard F. Libby في Radiocarbon Dating شيكاغو ١٩٥٥

ص ٧٧ - ٧٨ .

(١٨) قام Libby على دراسة هذا الموضوع في مؤلفه السابق ص ٧٨ .

وتم شعب آخر فى (عصر نقادة الثانى) (١٩) وهو شعب قد وفد الى مصر حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م الى نقادة (رقم ٢) رأسا من جنوب غربى آسيا ضمن الاقليم الغربى الزراعى ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد من أى جزء جاءوا من ذلك الاقليم (٢٠) . وبناء على ذلك فإن شعب نقادة الثانى كان مختلفا عن المستوطنين الأولين لمصر وهم شعب نقادة رقم ١ الذين جاءوا جميعا فى بادىء الأمر من افريقية . ولم يكن شعب نقادة فى الرحلة الثانية مجردا من كل صلة بأسلافه ، وقد بدأ الاندماج بين أهالى نقادة رقم ١ ونقادة رقم ٢ .

وقد ذكرنا فى الفصل الاول أن أنماط المستوطنين الثلاثة الاوائل الذين عاشوا فى مصر لم يتركوا أى دليل لعلماء الآثار يفيد وجود مجتمع متحضر يضم سكان الفيوم وسكان البدارى وسكان ديرتاسا ، ومن المؤكد أن المجتمع المتحضر قد بدأ عندما جاء سكان نقادة رقم ٢ وربما قبل ذلك . ويتضح بشكل جلى من السجل الأركيولوجى أن المستعمرات التى وجدت بجوار الفيوم قد اندثرت أو ربما قد هجرها السكان (٢١) والوضع نفسه يقال عن (ميرمد) ولم يكن هناك تغيير كبير ، أو أى تغيير فى الفترة التى وجدوا فيها ، وهذا ما يستدل عليه من نوع الآثار الباقية فى مكان كل منهما .

أما عن بقايا تاسا والبدارى ، فإنه لا يوجد ثمة شك فى وجود تغير بينهما غير أن « برنتون » مكتشف هذه البقايا يقول فى أكثر من مناسبة : إن من الصعب جدا أن تفصل أهالى البدارى عن أهالى تاسا (٢٢) واذن لم يوجد تغير كبير بينهما ، وإن التغير كان بطبيعة الحال نتاج الهجرة الجديدة ، ولم يوجد أى دليل أركيولوجى على ميزة التقدم السريع نسبيا الذى هو من خصائص المجتمع المتحضر . ومن المحتمل ألا يكون انتقال شعب البدارى الى (شعب نقادة رقم ١) يفرض بالهجرة الجديدة ، غير أنه وجدت حالة ركود واضحة بعد الانتقال أو حدوث التغير الى أن جاء غزو (شعب نقادة رقم ٢) وهو (غزو الهكسوس الممالة) .

أما لا نجد سجلات من التاريخ الأركيولوجى لجماعات هذه الشعوب

(١٩) هذا التاريخ الذى ذكره Libby يبدو قسريا جدا من التاريخ المتعارف عليه لتوحيد مصر .

(٢٠) انظر Baumgartل من ٧١ - ٧٤ .

(٢١) ارجع الى آراء كلتون - طمسون وجاودنر .

(٢٢) ارجع الى حاشية رقم ١٥ .

الثلاثة التي استوطنت مصر اذ ذاك ، وهو الدليل الوحيد الذى يمكن أن نعتد عليه كدليل على الأحوال المتحضرة . ولكن هذا ليس معناه عدم وجود مجتمعات متحضرة ، وعلى أية حال ينبغي أن نراعى أيضا الدليل بطريقة أخرى فى بحثنا عن أصل المجتمع المصرى المتحضر . حتى إذا كان الأساس قد وجد فقط بعد وصول العمالة أهل نقادة الذين جاءوا من جنوب غربى آسيا وكان من نسلهم الشعوب الأولى يقينا ، لانهم كانوا لا يزالون بمصر واندمجوا مع سكان نقادة رقم ٢ فى الثقافة والدم ، ولا يوجد أيضا ما يبرر استثناء سكان الفيوم وإن كانت مستعمراتهم التى قامت بجوار بحيرة الفيوم أصبحت خاوية من سكان الفيوم وبنى سلام (التى تبعد بأكثر من ميل قليلا من مصب الدلتا حيث فرع رشيد إلى مكان آخر فى الوادى) .

أما بلاد ما بين النهرين - فلها فى الحقيقة أسطورتها التى تصف بأعظم وضوح وأجمل أسلوب فننى تكوين موطن مجتمع الوادى . وأيا كان الأمر فينبغى أن نعى أن هذه الأسطورة فى شكلها الحال عبارة عن تنقيح متأخر قام به الكهنة المتعلمون . وبالتأكيد كان الوادى الرئيسى موضع تأمل الإنسان الكامل ، قبل زمن الكهنة وإن كانوا قد كتبوا فى عصر التطور ، وحدث عصر الانحطاط فى الواقع عندما ارتد سكان بعض أجزاء الوادى إلى ظروفهم الطبيعية . ومن ثم هناك احتمال أكثر بأن أسطورة ما بين النهرين المسماة (انوما اليش) كانت نتاج لمسة جديدة من أيدي المعلمين الجدد بنموذج فننى رائع . وتفترض أسطورة (انوما اليش) وجود مادة مائية هيولية فى البدء تشتمل على الماء المالح والماء العذب وعنصر آخر (قد يكون السحاب أو الضباب الخفيف) ولم يستطع علماء اللغة تحديده بشكل قاطع حتى الآن ، وكانت هذه العناصر منتزجة معا ، وكثيرا ما كانت تحدث حالة مشابهة لهذه بعض الشيء فى الاقليم حيث يحمل شط العرب وقارون Karun مياه الدجلة والفرات إلى الخليج العربى (الفارسى) وبدأ ظهور الأرض بعد امتزاج هذه العناصر الثلاثة بعضها ببعض ، وكانت الأرض تحمل راسبا من الفرين يحتوى على خليط من الطين (من الماء العذب) والملح (من الماء المالح) ومثل هذا الفرين مازال يرسب الآن عند مصبى شط العرب وقارون .

بعد ذلك جاء تكوين الأفق ، وكان مكونا من العنصرين السماوى والترابى ، كذلك كان يمكن رؤية الأفق من معظم نقاط المراقبة داخل وادى النهر المتدفق على طول الصحراء ، وتكون بعد هذا السماء والأرض كقرصين ضخمين ، كل قرص منها نتاج عنصر من عناصر الأفق ؛ وأخيرا

اضطر كل قرص الى أن يتفصل عن الآخر بفعل الريح الذي نفخهما الى أعلى وأدخلهما الى الكيس الكبير الذي نعيش نحن بداخله وكان جانبه السفلى هو الأرض وجانبه العلوى هو السماء (٢٣) .

وهذه الرواية تمكس بشكل مقرب جدا الاحوال الطبيعية فى الصحراء قبل استيطان الانسان لها حتى أنه يمكن أن نتصور تصورا صحيحا حقيقيا له ما يبرره تماما ، ان الكهنة المثابرين الذين نعرف عنهم أنهم كانوا يبشرون ببشارة منقحة فى العصر الالفى الثانى المبكر قبل الميلاد عندما جمعت أجزاء أسطورة (انوما اليش) بعضها الى بعض بحيث تطابق بدقة وعناية حقائق الطبيعة . ولا نستطيع أن نجزم بأن الكهنة - وهم يشتغلون بالابحاث الكونية - قد استخدموا المواد التى استمدوها من الزمن الحقيقى الذى قامت فيه المستعمرات، اى قبل هذا التاريخ بألفى سنة ، ولكن يوجد احتمال له ما يبرره وهو أن مواد كهذه كانت موجودة ، فاذا ما كانت هذه المواد قد وجدت فتكون أسطورة (انوما اليش) قد اقتبست فى نهاية الامر اذن من تلك المواد ، ذلك لانه مهما كثرت تنقيحات الكهنة واعادة كتابة المواد الكثيرة فانهم كانوا بالتأكيد يريدون الحفاظ على قدسية البشارة .

وأيا كان الامر فان كل ما نعرفه فى الواقع من عملية اشتقاق الاسطورة من الموضوعات القديمة هى أجزاء صغيرة لبقايا ترجمات لتلك الاسطورة فى زمن متأخر وضعت فى فترة ما بين العملل الأصلى والترجمة له .

وقد وطد المستوطنون الاول فيما بين النهرين أنفسهم فى الجزء السفلى من الوادى العلوى وسماروا وربما عند « ياجهوس » وغيرهما من الأماكن (٢٤) الا انهم لم يسهموا فى تأسيس المجتمع المتحضر . وحتى هؤلاء المستوطنين من المحتمل أن يكونوا قد عرفوا شيئا عن التحكم فى المياه (٢٥) . لأنهم قد جاءوا من ايران حيث كانت موارد المياه فى فوران ومن الصعب التحكم فيها . غير أن المجتمع المتحضر قام فى جنوب العراق .

(٢٣) كان هذا زمن اضمحلال مجتمع سابين النهرين فى نهاية الدورة الاولى من تاريخه عند تشييد الديانة من جديد .

(٢٤) يفترض « بيريدود » أن المستعمرة الاصلية عند « سمارا » بالقرب من دجلة والمستعمرة عند « يامهور » على الفرات انها أول مكان للمستوطنين الذين وفدوا من الاراضى الشمالية .

(٢٥) يقول فرانكفورت أنهم اقدم مستوطنين فى وادى النهر .

وقد كشفت أعمال التنقيب هناك عن بعض منشآت الأولى • وأقدم هذه المنشآت المعروفة كانت عند اريدو *Eridu* المعروف الآن باسم (أبو شهرين) الا أن أولئك الذين كانوا في الموضع الذي يعرف الآن باسم (آل عبيد) وعند (أور الكلدانيين) فهم من المستوطنين الأصليين ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من المستوطنين الذين جاءوا من بلادهم • (آل عبيد) و (أور) و (اريدو) كانت كلها مستعمرات بجوار الفرات الذي كان يتجه وقتذاك الى غرب مجراه الحالي •

أما المهاجرون فاما أن يكونوا قد عبروا أراضي الوادي من الشرق الى الغرب ابان اختيار مواطنهم الجديدة أو يكونوا قد سافروا بحرا ، وربما بمحاذاة ساحل البحر عبر الخليج الفارسي لانهم جاءوا بدورهم من ايران (٢٦) • وربما جاءوا من السهل الايراني المرتفع ذاته حيث تقسم الجفاف (٢٧) • والأرجح أنهم جاءوا من الجبال الواقعة في الطرف الغربي للسهل المرتفع (٢٨) • حيث تنحدر مجارى المياه في الفصل المطر وتكون أحواض زراعية فيضانية لمدة معينة ينبغي استغلالها بسرعة وبطريقة فعالة ، ثم تصبح المياه نادرة بقية السنة الى درجة خطيرة • وفي الواقع أن الخبرة التي اكتسبوها ازاء فيضانات الجبال ربما تكون قد أوجبت عليهم فكرة الانتقال ، الى سهول ما بين النهرين الطينية اذا ما عرف السكان شيئا عنها ، وهذا هو ما قاموا به على الأرجح ، وأيا كان مكان موطنهم السابق على وجه التحديد ، وربما يكون البعض قد جاء من مكان وجاء البعض من مكان آخر — فان هؤلاء الناس قد عرفوا جانبا كبيرا من شئون التحكم في المياه (٢٩) وهم بلا شك قد وقوا أنفسهم من النهر في العراق كما عرفوا كيف يستخفونه (٣٠) •

(٢٦) يقول *Stein* انه كان يوجد عدد كبير من السكان الذين عاشوا في ازمنة ما قبل التاريخ وانتجوا الفخار الذي اتجه سمارا •

(٢٧) يعتبر *Bobek* الحد الأدنى لتاريخ الجفاف (٩٠٠٠ - ٤٠٠٠ ق م) وينبغي أن يكون التاريخ الثاني متأخرا جدا عن ذلك •

(٢٨) لم يأخذ *Bobek* بياناته من الجزء الغربي من ايران ولكن من *Elburz* الى الشمال ، وذلك الجزء الغربي من ايران ليس خاليا من المياه ولا اعتقد انه كان كذلك في الالف سنة الخامسة الى الالف الرابعة ق م •

(٢٩) يجد *Stein* بقاياهم في الجبال والاراضي المرتفعة الموقع بالقرب من جهة الفيضان والمصادر الاخرى للمياه ولا بد أن كثيرا من هذه كانت تتطلب صيانة دقيقة •

(٣٠) لاعتقدان ما اكتشفه *Lees* و *Falcon* من الطبيعة الجيولوجية لجنوب ما بين النهرين يقلل من احتمال أن الجزء الأسفل من دجلة والفرات في اقليم (اريدو - أور) كان يتميز بجميع سمات النهر العظيم •

ولا توجد تواريخ لآية مستعمرة من مستعمرات ما بين النهرين ، ولكن المستعمرة الشمالية جارمو Jarmo يمكن ارجاعها - حسب ترتيب الوقائع بطريقة تقريبية الى الزمن الذى وجدت فيه (سامرا) فى القرون الاولى من العصر الالفى الخامس (٣١) . ومن المعقول ان نفترض اذن ان (سامرا) انما ترجع الى القرون الوسطى فى العصر الالفى الخامس وربما كانت بداية ايردو الى ما بعد ذلك بقليل وان (آل عبيد) و (أور) كانوا حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م .

ان اساطير الخليقة فى مصر وبلاد ما بين النهرين بالصورة التى لدينا اليوم عبارة عن نظم مجتمعات لا تزال فيها اراضى الوادى وسط الصحراء لها الكفة الراجحة فى الثقافة العالية بالنسبة لجميع الاراضى الاخرى التى ضمت الى هذا المجتمع ، والامر ليس كذلك بالنسبة لاسطورة الخليقة الهندية ، ان اسطورة الخليقة الهندية باقية فى الريفيدا Rigveda وبعض كتابات البراهمة وامكن اقل أهمية ، ان كتابات البراهمة اعمال متأخرة جدا ، وهى سوفسطائية خصصت لأغراض اكليركية ، وحتى الريفيدا بالصورة التى وصلتنا عبارة عن وثيقة متأخرة اعاد الكهنة كتابتها مرات كثيرة (٣٢) .

وفى الوقت الذى كانت تؤلف فيه هذه الاسفار المقدسة كانت الثقافة السامية فى الهند تنتشر فى شبه الجزيرة أقصى الجنوب، فضلا على ذلك فقد حدثت هوة عظيمة قبل ذلك بقرون عديدة - عند تحول مركز المجتمع من وادى (الهندوس) الى حوض نهر الكنج (٣٣) . حيث كانت المستعمرات غير محصورة بالوديان الفعلية على اية صورة من الصور ، وكذلك لم تكن تتوافر للشعوب الهندية الاوربية التى اندمجت فى المجتمع وقتئذ وجاءت لتلعب دورا عظيما فى تطوره ، لم يكن تتوافر لديها خبرة ايجاد حضارة فى وادى النهر أو فى أى مكان آخر ، بل لقد عرفوا الحضارة من نسل أولئك الذين اوجدوها فى وادى (الهندوس) . غير ان الشعب الهندى الأوربى قد استورد افكاره ذاتها عن الخليقة التى لا صلة لها بوديان النهر ، وضمت هذه الافكار الى ذخيرة التقاليد التى استعان بها الكهنة فيما بعد لوضع علم الكوزمولوجيا (١) وعلم القوانين العامة المسيطرة على الكون) .

(٣١) انظر مؤلفات Libby

(٣٢) انظر (ديانة الهندوس) - مورجان : نيويورك ١٩٣٢ ص ١٥٥ - ١٥٧ .

(٣٣) انتقال دوىي آخر يشبه ما اشرنا اليه فى حاشية ٢٤ من قبل .

ومع ذلك فقد بقي في الاسطورة الهندية الحديثة قدر لا بأس به من المسألة المتعلقة بالماء على الأقل . وأفكار تدل على أن مياه النهر كانت في وقت ما على درجة عظيمة من الأهمية . وينظر الى المياه الأصلية على أنها مصدر لجميع العناصر والأشياء عند بدء الخليقة . وأيا كان الحال فإنها صفة خاصة بالميثولوجيا الهندية . وهى أن الخليقة وجميع المراحل الاخرى لتحسين العالم فقد حدثت بصورة مكررة في سلسلة لا نهاية لها ، وبالتأكيد فإن هذا لا شأن له بأصول المجتمعات في وادى النهر ، بل لا دخل له بكافة أشكال الزخارف التى أدخلت على القصة ، حتى ان المياه الأصلية تحتفظ بما كان من المحتمل أن يكون بديلا لها في الأصل (٣٤) .

ان المعرفة الاركيولوجية المباشرة للاصول المادية في الهند أقل بكثير من مثيلتها في مصر وما بين النهر . وبالدرجة الاولى ، فإن درجة الكشف والتنقيب في الجزء الشمالى من اقليم المجتمع الهندى من الدورة الاولى كان صغيرا وغير منسق ، بينما نجد صعوبة بشكل خاص تجابه اليمن عند البداية في الاقليم الجنوبى . حيث نجد استكشافات أكثر بكثير . والصعوبة هى نتيجة وجود سهل نهري في حوض النهر بسبب كمية الغرين الضخمة التى جلبها « الهندوس » ووزعوها ابان القرون التاريخية العديدة عندما كانت مياهه لا تخضع للتحكم ، وفي الوقت الحاضر نجد أن وادى النهر أعلى من مستوى مسطرة موهنجودارو والمواضع الجنوبية الاخرى ، وان واجب المنقب أصبح عسيرا جدا فى الحقيقة (٣٥) ولا يوجد فى الواقع أى منقب وصل الى القاع فى أى موضع من مواضع الوادى السفلى ، وربما يمضى زمن طويل قبل أن يتمكن أحد منهم من أن يفعل ذلك .

والى جانب هذه المصاعب فى الوادى ذاته ، يوجد تعقيد فى البحث عن البداية الهندية . وأيا كان الأمر ، فإن هذا التعقيد مسألة ذات أهمية كبيرة ، والحقيقة انه فى المنطقة ما بين الجانب الغربى من وادى (الهندوس) الأدنى وللال كيرثار فى بلوخستان ووراء كيرثار نحو الغرب وجدت

(٣٤) في رواية ما من روايات الاسطورة الهندية تقول ان « براهما » قد القى بذره في المياه كما فعل « اتم » في احدى روايات الاسطورة المصرية ... وهذا يمكن ان يكون تراثا عاما للازمنة البدائية .

(٣٥) راجع The Cambridge History of India

تأليف موريمير هوبلر ..

سلسلة كاملة من المستعمرات متمثلة فى قرى زراعية بدائية ظاهريا . وعلى الاقل كانت كذلك قبل ازدهار المجتمع المتحضر فى دورته الأولى . وكل ما نعرفه ان الزراعين البدائيين ربما كانوا قد وطموا أنفسهم فى مكان أبعد شمالا فى أرض لم يكتشفها أحد تقرب منه النهر هناك . وتعتبر أراضى السند اليوم التى يجرى فيها نهر (الهندوس) فى طريقه المنخفض كذلك وأراضى بالوشى من الاراضى الجافة جدا القريبة من طبيعة الصحراء ماعدا وديان (أنهر الهندوس الصغير هناك) ، الا انه يبدو من المؤكد انها كانت بعيدة عن مثل هذه الحالة وقت قيام تلك المستعمرات .

وقد قدمت تفسيرات شتى لهذا التغير ٤ ولكن يبدو من الأرجح ان هناك عاملين قد أثرا أكثر من غيرهما ، وهما التغير فى اتجاه الرياح الموسمية الهندية والاضرار التى لحقت بالأرض بواسطة الزراعين البدائيين كالحال بالنسبة لطبوغرافيا السند (٣٦) . ويكاد يكون البحث عن الأصول الطبيعية للهند لم يبدأ بعد ، وهنا لا نملك الا أن نثير بعض الاسئلة :

هل المتحضرون قد انحدروا من البدائيين الذين كانوا يعيشون فى منطقة (السند وبلوختان) أو دخلوا وادى النهر من اقليم أبعد من هذا شمالا ؟ ويمكن الاجابة على هذا الموضوع فنقول : انهم قد جاءوا من مكان أبعد شمالا وذلك على أساسين :

الاول : هو أن الجزء الجنوبي من هذا الاقليم قد قام بكشفه السير أوريل ستين (٣٧) الى درجة كبيرة ، أما جومدار (٣٨) فلم تكشف عن أى اثر واضح لأسلاف الشعوب المتحضرة (٣٩) .

الثانى : هو أنه فى حقبة المجتمع المتحضر التى نعرفها نجد الفخار كان له لون أحمر ، والآنية الحمراء التى يتميز بها شمالى ايران فى حين

(٣٦) انظر A Wheeler في Prehistoric India من ١٣٢ - ١٦٥٢ .

(٣٧) انظر An archaeological tour in Waziristan and northern Baluchistan

دلهى من ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ .

Exploration in Sind-Memoirs N.G. Majumdar

(٣٨) انظر .

(٣٩) ان السندود فى ايجاد والتى لا يعرف مشيها قد تدل على ان أسلاف الشعوب

المتحضرة قامت بانثالها ..

ان اوائى السند البدائية كانت تنحدر من «جلود البقر» وهى فى منطقة جنوب ايران *

وايا كان الامر فائى لا أعتقد أن المجتمع الهندى قد بدا شمال اقليم البنجاب الذى كانت تتدفق فيه فروع نهر الاندوس ، وائى اشك كثيرا من أن (هزابا) Hassapa المدينة التى يقوم هذا الاقليم عليها كانت مدينة قديمة (٤٠) * وأظن أن المستوطنين قد ولجوا وادى الاندوس ذاته فى بادىء الامر كما كانت عاداتهم بالطبع ، هذا اذا كانوا قد جاءوا من ايران غربا لان نهر (الهندوس) يصب غربا فى مكان أبعد عن مصبات الفروع الكبرى، وفى رأى أنهم قد تحركوا جنوبا على طول نهر (الاندوس) وأدخلوا فى آخر الامر التحسينات على المركز العظيم عند «موهنجودارو» فى حين أنه كانت توجد مراكز أخرى أقدم منها وأبعد الى جهة الشمال على النهر الرئيسى *

فاذا كان هذا هو الذى حدث فإن مستعمرات السند تكون قد شيدت بعد ذلك بواسطة مستوطنى نهر الاندوس ، وهذا هو الأرجح على ما يبدو ، وذلك بما أن أنماط بعض تلك المستعمرات كانت قد تأثرت بالحضارة فى مرحلة متأخرة ، وبدا الناس ينتجون الفخار والأشياء الأخرى التى تبين ذلك التأثير (٤١) . ويتضح تماما انتشار المجتمع المتحضر فى هذا الاقليم ولا سيما على طول الساحل الشمالى الغربى الى (مكران) ، وان لم يكن قد شمل جميع البدائيين فى اقليم السند وبلوخستان على أية صورة من الصور حتى ولو كان جميع المستوطنين الجدد الذين جاءوا من ايران وأفغانستان لينتفعوا بالتجارة من المصادر الأخرى التى كانت تعولهم والتى اقتضاها وجود المجتمع المتحضر *

اننا نسلم بأن هذه صورة للتمعن والتفكير فى الاصل المادى للمجتمع الهندى ، ولكنها تبين سبب الحقائق الرئيسية المعروفة ولا تتناقض مع احداها على قدر ما أستطيع أن أحكم ، ولهذه الصورة وان كانت للتأمل والتفكير أهمية فى بحثنا الحالى لانها تشتمل على وجود قدر كبير من

(٤٠) من المحتمل ان تكون دولة كبيرة قد ازدهرت فى الدون المنخفضة للحضارة .

(٤١) لا يوجد لدينا سجلات تبين المراحل التكوينية ، ومن المرجح أن تكون ثقافة امرى تالية أو معاصرة لمرحل التكوين فى الثقافة المتحضرة ، ولما كانت هذه هى الثقافة البدائية السائدة أكثر من سواها حسب الظاهر على الشاطئ الغربى من الهندوس السفلى فإن هذا يدل على ان البدائيين قد وطلدوا انفسهم فى الاراضى الواقعة غرب الوادى بعد ان بدأ المجتمع المتحضر فى الوادى ذاته .

الاختلاف في الأصل والطريق المبكر لاجتماع متحضر اولى تأسس في وادي النهر ، سواء اكان النهر يجري داخل صحراء أم لا يجري ، فاذا كان الأمر الأخير ، فانه يكون للمجتمع المتحضر جيرانه من الشعوب البدائية .

ويمكننا أن نضيف افتراضاً آخر لذلك الافتراض الذي قدمناه وهو ان نفترض أن السند وبلوختان وان كانا قديما غير متحجرين أو صحراويين كما هما الآن فانهما قد أعلا عدداً صغيراً من السكان ، ولم يكونان على درجة كبيرة من الخصوبة ، ويبدو أن حياة أولئك السكان كانت الى حد ما عارضة بالنسبة لحياة المجتمع المتحضر الذي كانت اغلب اتجاهاته نحو أعالي النهر ، وعلى طول الساحل ، وربما تفسير جنوباً الى كتش وكيثارار ، كما تسير في الشمال الغربي الى ماكران .

والآن نرجع على الصين ، لقد امتد المجتمع الصيني شأنه شأن المجتمع الهندي الى الخارج عن قاعدة الوادي الأصلي بنسبة كبيرة ، غير ان الدليل الميثولوجي ليس كدليل المجتمع الهندي . يتكون تماماً من بقايا عصرية وسجلات ترجع الى أزمنة تحرك المجتمع بعيداً عن واديه الأصلي وترجع جميع شواهد المجتمع الصيني على وجه التقريب الى وقت كان فيه الوادي لا يزال سائداً في بقاعه ، وتلك كانت ميزته .

فأساطير الخليقة الصينية لا تبدأ بالمياه الأولى كما هو الحال في الأساطير المصرية أو العراقية أو الهندية ، كما انها لا تصف بوضوح تام الوادي الأول قبل أن يأتي الانسان اليه ويستوطنه ، ولكنها في مقابل ذلك تركز على الفيضانات الهائلة والاحداث الجليدية التي وقعت في مجتمع ما بين النهرين والمجتمع الهندي بعد زمن كبير من قيام المستعمرات الأولى في حين لم يكن في مصر أية أسطورة عن الفيضان أو عندما لم تكن قد وردت اليها أسطورة كهذه ، وليس هناك أية غموض حول هذه الفروق . وقد كان فيضان الصين الشمالية في العصور الالفيه الأولى من الجليد الأخير على نطاق أعظم بكثير مما حدث في ذلك الحين في الوديان الواقعة نحو الغرب أكثر من سواها (٤٢) ويوجد في الواقع تباين عظيم بين الصين الشمالية وأندوس الهند في هذه المسألة لان حوض النهر في الصين الشمالية كان مسدوداً بأكمله ، والبلاد خالية من السكان في حين كان من المحتمل في الهند أن يكون البدائيون كما رأينا ، قد عاشوا في الاقليم . غرب النهر أو الأنهار ، ولم يكن هذا بالطبع في وديان النهر

(٤٢) يتتبع ماسبيرو الأساطير الى مواطنها الأصلية بما تبقى اليوم من عبادة الإبطال .

العظيم ذاتها ، بعدة قرون قبل أن يتكون المجتمع المتحضر ، ولا يمكن أن يقوم تباين بين مصر والعراق بالطبع ، ذلك لأن الانهار تشق الصحراء .

وعلى هذا فإن الاساطير الصينية الخاصة بخلق الفيضان تسجل تجارب المستوطنين الذين دخلوا البلاد عند الانخفاض الهائل في المياه الى الحد الذي جعلها غير مأهولة بالسكان ، وتسجل احدى هذه الاساطير أيضا التجفيف المصاحب لهذه الاقاليم في (جوبى) التي كانت مأهولة بالسكان في حين كانت الصين الشمالية غير مأهولة .

وتقع الاساطير في مجموعتين :

المجموعة الاولى : اسطورة مزدوجة تتعلق بالتحكم في الفيضان في شانس وهونان ، وهذه الاسطورة المزدوجة هي اسطورة (تاي تاي) وأشهر الاساطير التي تسمى (يو) .

المجموعة الثانية : وهي الاساطير الثلاث الاخرى وهي (ناي يوكوبا) و (كنج كنج) و (شى يو) وهذه الاساطير الثلاث هي التي أوضحها « ماسبيرو » وذكر انها تتعلق بالركن الجنوبي الغربى من « شانتنج » وتروى اسطورة (تاي تاي) كيف أن « تاي تاي » قد سد (نهر فهد) (وهو يسمى الآن سو) وعلى ذلك صرف مياه حوض كو - ان ريو بحيث جعل اقليم تاي يوان غير مأهول بالسكان (٤٣) .

ومن بين الامور الكثيرة التي تروىها اسطورة (يو) كيف أن « يو » قد طهر مجرى النهر الاصفر ذاته ومضيق (منج - من) فيما بين تلال (لنج - من) في شمال هونان وبذلك أنقذ الصين بأسرها من الفيضانات (٤٤) .

اما اسطورة (نيو - كويا Niu-Kua) فهي رواية مضطربة عن كيفية معالجة « نيو - كويا » للاضطراب الكونى ، وذلك عندما خرجت الجهات الاربع الاصلية عن موضعها ، وخرجت السماء والارض عن اوضاعها الطبيعية الصحيحة . واشتعلت النار بشكل مستمر وغمرت المياه كل شيء ، وبعد أن قام « نيو - كويا » بتعديل كل هذه الاشياء وغيرها ونظمها ورتبها فقام بخلق الانسان من التراب الاصفر .

وتروى الاسطورتان « كنج - كنج » و (شى - يو) الاضطراب

(٤٣) يحتوى الاقليم على منطقة لا تزال يطلق عليها تاي تاي - شو والتي جفت على اية حال .

(٤٤) راجع راي ماسبيرو في Journal Asiatique

في النظام الشمسي ذاته ، إلا أن أسطورة « كنج - كنج » لا تنتهي بخلق الإنسان ولكنها تنتهي بقيام « هو - تو » إله الأرض ، وتبين أسطورة « شي - يو » الحوادث إلى زمن « الإمبراطور الأصفر » الذي جعل الأرض مغمورة بالفيضات أولاً تحت تأثير عوامل شتى ، ثم لما تبين أن الفيضان كان كارثة أرسل (با) ربة الجفاف . ولم يكن في مقدورها أن تعود للسماء بعد أن قامت بعملها ، وعلى ذلك ارتحلت إلى الشمال ، ومن المحتمل أن تكون (جوبى) حيث لا تزال تعيش هناك .

وتبين بادية ذى بدء من الدليل الأركيولوجي أن المزارعين البسطاء الذين عاشوا من قبل في ستيكبانج وجوبى قد دخلوا الصين الشمالية من ناحية (كان سو) إلى شاننج وشمال شرقى الصين إلى (ميهول) ، وربما إلى أبعد من ذلك (٤٥٥) وهؤلاء هم الذين صنعوا الفخار السنجابى غير المصقول مع نماذج من مشط وحبل مخطط ، وهو يبين أيضاً إمكان استيطان شعب في (كان سو Kansu) عمل الفخار الملون المائل للفخار المأخوذ من إيران والذي كان خاصاً بالمستوطنين الأول فيما بين النهرين وسكان (نقادة رقم ٢) الذين عاشوا في مصر (٤٦) * وقد انتشر هذا النوع من الفخار من (كاسو) إلى (شانس) و (شنسى) و (هوتان) ولكنه لم يدم طويلاً في هذا الانتشار (مع أنه كان كذلك في كاسو) ، وغالباً ما تحرك سكان كاسو أنفسهم إلى جهة الشرق .

إن استيطان كاسو لابد أنه كان من المهاجرين الحقيقيين الذين جاءوا من الغرب * وهؤلاء لم يكونوا وحدهم الذين جاءوا من هناك ، فسرعان ما جاء أناس آخرون صنعوا الفخار الأسود الفاخر ، وكانوا يسمون بشعب (لنج شان) وأطلق « هين جلدن » عليهم شعب (شرق كاسيان) في إحدى منشاتهم الهامة في أقصى الغرب (٤٧) . ويعتقد « هين - جلدن » أنهم جاءوا أخيراً من الأناضول الشرقية ومن المؤكد أنهم كانوا معروفين هم وأقاربهم من الناحية الثقافية في الأماكن الآسيوية الغربية والأماكن الأوربية الجنوبية الشرقية .

إن شعب (لنج شان) لم يدخل الصين عن طريق كاسو ، وربما كان ذلك لأنهم وجدوا الفخار الملون من قبل عند السكان هناك (٤٨) .

(٤٥) انظر Max Loehr ١٩٥٢ ص ١٥ - ٣١ .

(٤٦) انظر Max Loehr ص ٣٣ .

(٤٧) راجع مؤلفات هين - جلدن من الصين .

(٤٨) راجع Sidney Kaplan ١٩٤٩ ص ٣٦ - ٤٠ .

لقد تحركوا شمالا غير أنهم لم ينحدروا الى شنشى أو شانس لان الشعوب القوية كانت هي التي تملك تلك البلاد ، ودخلوا الصين الشمالية الاصلية من طريق شانتنج ، وهونان الشرقية وانهواى ، ومنها توغلوا غربا الى هونان الغربية وبعد ذلك جنوبا الى أن وصلوا الى (سزشوان) ان اسطورة (تاي تاي) بسيطة ومعقولة ومن الممكن أن نفترض انها تذكرنا بتجارب المستوطنين القدامى جدا . وهم الذين صنعوا الفخار غير المصقول .

أما اسطورة (يو) فهي أكثر تعقيدا ، وتشتمل على ضروب من العجائب بعضها سياسى . ويوصف (يو) على أنه مؤسس (أسرة هزيا) ، وإذا كان ذلك قد تم فعلا فمن المحتمل أن يكون قد تم بعد الاتصال بالمستوطنين الذين عاشوا في اقليم (هونان - شانس) ومعهم تقاليدهم عن الفخار الملون ، ومن الأمور التي لها بعض الأهمية أن ابن (يو) وهو (هزيا - هوروش) قد عاش في جوبى (٤٩) ، وعلى ذلك فإن الواحات الباقية في الصحراء ربما تكون قد كونت جزءا من النطاق الثقافي بعد أن أسس المهاجرون في الصين الشمالية المستعمرة التي استوطنوها ، ومهما كانت بعض عناصر اساطير شانتنج الثلاث قديمة فلا يعقل إلا نضمها بشكل جزئى الى شعب (النج شان) لأن شانتنج كانت الأرض الرئيسية التي دخلوا منها الى الصين ، كما أنه من المهم أيضا أن يكون الجزء الجنوبي الغربى من (شانتنج) قريبا جدا من انحناء النهر الاصفر في طريقه الى البحر ، وقد بقيت تلك المناطق مدة طويلة ولا تزال كذلك الى اليوم مكانا من أخطر الأماكن المجاورة للنهر . فالنهر يقطع شاطئيه دائما هناك ، كما أنه كثيرا ما غير مسلكه فيصل الى البحر عند نقاط تبعد بعضها عن بعض جدا ، وهو يفر في طريقه مساحات شاسعة من الأرض المأهولة بالسكان . إذن فلا عجب أن يكون الجزء الجنوبي الشرقى من شانتنج قد أوجد أساطير الفيضان ، وأنه لشيء ممتع أن تحتوى أسطورة من تلك الاساطير على الربة « با » ربة الحرارة الميتة ، وأن يظن مؤلفو الأسطورة أن « با » قد أرسلت للارض لاصلاح ما اتلفته الفيضانات ، وذلك بعكس النظام الذى قابلت به الكائنات البشرية النعمتين ، ولكنها ليست تفسيرا رديئا للعملية الكونية التى تحاول الأسطورة توضيحها .

وثمة مسألة واحدة ليس لدينا عليها أى دليل أركيولوجى ، تلك هى دخول الشعوب من الجنوب الى وادى يانج تس وما وراءه ، الى شمال الصين . ولكن بعض الاساطير توحي - فى رأى - بأن هذا قد حدث ، لأنه كما يبين « ما سيرو » توجد مطابقات معينة بين اساطير الصين الشمالية واساطير « لولو » فى جنوب الصين واسطورة « تاي نو كيو » فى الهند الصينية (٥٠) وأيا كان الأمر فانا لا نستطيع ان نذكر من هذا الدليل متى بدأت الشعوب الجنوبية فى الحركة الى الصين الشمالية وما اذا كانت تدخل او لا تدخل فى أصل المجتمع المتحضر هناك .

وبدلى « اوين لاتي مور » برأيه وهو ان الحضارة الصينية قد نشأت على فروع النهر الاصفر فى تلال الصين الشمالية الغربية (٥١) أى فى شانسى ، وربما فى شانسى وهونان الغربية ، وأعتقد أن جميع الشواهد تشير الى ذلك الاقليم وليس الى شانتنج وهونان الشرقية كما يقول بذلك رأى آخر مناقض لهذا الرأى بأن البلاد ذات التلال الواقعة فى الشمال الغربى لها طبيعة جيولوجية خاصة .

وجاء وقت فى العصر الألفى الرابع أو أوائل العصر الألفى الثالث قبل الميلاد أصبحت فيه الاراضى مأهولة وملائة ، ولا سيما للشعوب الزراعية لأنه لم تكن توجد غابات عظيمة فى حاجة الى تنقية ، وكانت غنية الى حد ما بالأعشاب ، والزراعة سهلة جدا فى تربة كهذه ، ولقد كانت مثل هذه البلاد تجتذب جميع الشعوب البدائية التى تميل اليها بطبيعتها .

وفى البداية جاء أولئك الذين كانوا يعيشون بالقرب منها شمالا ، وهم صناع الفخار غير المصقول الملون بلون رمادى ويحمل علامة على شكل مشط ، ولما كان الجفاف لا يزال مستمرا فى المنطقة الصحراوية الغربية كما هو الحال فى المنطقة الشرقية جاء صناع الفخار الملون ووطدوا أقدامهم فى (كافسو) و أخيرا انضم اليهم فى حركتهم (شعب لتجشان) الذى جاء هو أيضا من الغرب مع البدائيين المحليين من

(٥٠) اعتقد ان هذا هو المعنى الحقيقى للمشابهات بين الاساطير الصينية والاساطير الجنوبية ، واعنى ان بعض الآراء الجنوبية قد جاءت الى الاسطورة الصينية الجمجمة .
(٥١) يعتبر « لاتي مور » أن بداية الزراعة فى الصين جزء من أصل الحضارة الصينية ويرى ان الأصل كان فى الاماكن الواطئة .

الشمال والشرق ، وبدأت هذه الشعوب المتباينة تستقر بجوار فروع النهر الأصفر أو بالقرب من النهر الرئيسي الذى كان يحمل كميات ضخمة من المياه الى الأراضي المنخفضة من الجبال العالية الى أن تدفق الى كثير من الأراضي في بطن المضيق ، ولا نعرف على وجه التأكيد كم من الزمن استغرقه الاستيطان بجوار فروع النهر في سد احتياجات المستوطنين ، ولكن من المحتمل أن هذه المدة لم تزد عن عدة قرون ، وقد كانت موارد الأمطار متغيرة دائما في ذلك الاقليم تفرنا عظيما من سنة لأخرى فيما بعد العصر الجليدى ، وفي حالة ندرتها كانت تكفى لرى المحصولات مباشرة لسد النقص في موارد المياه على سطح الأرض . ويتبع هذا أن اللويان السنوى الشديد للتجمد المنخفض هو الذى جعل البلاد في وقت ما على هذه الدرجة من الجاذبية وهذه العوامل الجاذبة لابد وأن تكون قد تناقصت بطبيعة الحال على مر الزمن .

وفضلا على ذلك فإن المجارى الصغيرة كما يبين « اندرسون » قد تبعت في مدة ما تاريخ النهر الرئيسى (٥٢) ، وفي الواقع هبط منسوب الماء حوالى ١٢٠ قدما فيما بين زمن الاستيطان والآن .

ولقد انتقل الناس من مكان لآخر تحت تأثير انخفاض مستوى المياه وزيادة حجم السكان الطبيعى ، ولابد وأنهم اضطروا في آخر الأمر الى السير مع النهر وراء الأراضي المرتفعة حيث السهل المكشوف .

وهكذا فإن المسألة الخاصة بالبيئة في أصل المجتمع الصينى مسألة ذات أهمية خاصة جدا . . وان مقارنة تربة (لوس) بتربة طمي النهر تبين أنه في أراضي « لوس » قد أدركوا الثبات والاستقرار الذى قام به مستوطنون آخرون في وديان الأنهار العظيمة في الشرقين الأدنى والأوسط .

أين ومتى اذن بدأ تكوين المجتمع المتحضر ؟

اعتقد أنه من المحتمل أن يكون قد بدأ بجانب الروافد في التلال ، ولكنه استمر في وادى « لوس » بعد أن وصل الى سهل الصين الشمالية ولا يمكن أن يقال أن البقايا الاركيولوجية توضح التقدم السريع الخاص بالمجتمعات المتحضرة . وان كانت تبين ذلك أحيانا في هس وبن وشى وبن

(٥٢) داجع I. G. Anderson Children of the Yellow Earth

نيويورك ١٩٢٤ م ١٥٦ - ١٨٧ .

والأماكن الكبيرة المجاورة في شانسى الجنوبية (٥٣) بيد أنه لم يوجهند أى تصاقب في التفرعات المتعلقة بجزء كبير من الإقليم يمكن أن تقيمه بحيث يكون صحيحا الى درجة يركن اليها (٥٤) . ولا يمكن الجزم بأن الشعوب البسيطة جدا من جوبى وما وراها قد بدأت خلق المجتمع المتحضر قبل أن ينضم الناس اليه .

ومع ذلك فمن المؤكد أن هذه الشعوب الأولى والشعوب المتأخرة عنها كانت تتكون من اللاجئين الذين هربوا من الجفاف ، وذلك قبل أن يصلوا الى مواطنهم الجديدة . وتبين الأساطير أنهم واجهوا أخطار الفيضانات ، ولا سيما أولئك الذين اتجهوا شرقا فيما بعد الى السهل ومن المحتمل إذن أن يكون لديهم بعض الاعمال المعينة ، وهذا بالتأكيد أمر عادي عند أولئك الذين أسسوا المجتمعات المتحضرة ، ومن المؤكد أن سكان ما بين النهرين قد عرفوا تلك الأنواع المعينة من الأعمال ، وإذا ما درسنا الأماكن التى أقام فيها أولئك المستوطنون في التلال الإيرانية فمن الممكن أن نضيف ذلك الإقليم أو جزءا منه الى الأرض الأساسية لمجتمع ما بين النهرين ، وعلى أية حال ليس ثمة شك في أن مرتفعات الصين الشمالية كانت جزءا من القاعدة الأصلية للمجتمع الصينى وأنها قد بقيت بقدل ضمن أراضى المجتمع .

ويمكن أن تستدل من التواريخ التقريبية على أن أقدم المستعمرات هى التى أسسها المهاجرون الذين جاءوا من (جوبى) وسنكيانج حوالى عام ٢٥٠٠ ق. م أو ربما قبل ذلك بقليل ، لقد ظهر تأثير صانعى الفخار الملون وعرفنا شيئا عن هؤلاء الذين عاشوا في شانس قبل عام ٢٠٠٠ وبعد ذلك بقرن أو قرنين عرف شعب (لنج شان) .

أما التحرك شرقا الى سهل الصين الشمالية فيمكن أن يكون قد بدأ في وقت ما بين ١٨٥٠ و ١٦٥٠ ق.م (٥٥) .

أما آخر المجتمعات الأولية المتحضرة التى قامت في وادى النهر فهو مجتمع (الأنديز) وقد قام ذلك المجتمع في وديان بعض الأنهار القصيرة المدينة التى تعبر السهل الساحلى لبيير الجديدة من سلسلة جبال الأنديز الى المحيط الباسيفيكي وهنا نجد أيضا الطبوغرافيا

(٥٢) انظر Oehr ص ٤١ - ٤٢ .

(٥٤) الخطوط الرفيعة فحسب التى لا تشمل على تفاصيل .

(٥٥) راجع Lochr ص ٥١ .

الخاصة بوديان الصحراء والنهر ، إلا أنها تختلف تماماً عن طبوغرافيا مجتمعات وادي العالم القديم في أن تلك الأنهار كثيرة العدد وقصيرة بالنسبة لمسارها عبر الصحراء ، وأن طريقها كان بالعرض داخل أراضي المجتمع بدلاً من أن يكون ممتداً طويلاً ، وأن الصحراء ذاتها على شكل (شريط) يسير بين الجبال والساحل ، وأن الجبال المرتفعة جداً تتأخم الصحراء على جانب واحد ، والمحيط يتأخمها على الجانب الآخر . وتوجد بعض الوديان المرتفعة ، ومسطحات أخرى بين سلسلة الجبال الوعرة والجبال المنخفضة بالقرب من الساحل .

وقد تكون تلك الأراضي المرتفعة ، أو لا تكون جزءاً من مقر المجتمع المتحضر في وقت قيامه في الأصل ، لقد حصل كل هذا في أزمنة متأخرة ، وهكذا فإن موقع المجتمع يشابه أو لا يشابه مواقع مجتمعات وادي العالم القديم . وبناءً على هذا الوضع فقد أوجد مجتمع الانديز صفات خاصة تختلف من بعض صفات مجتمعات العالم القديم ، ونحن لا نيسر لنا أن ندرك بشكل عام هل كان مجتمع الانديز قريباً أو بعيداً عن تلك المجتمعات ؟ وفي الفصل الخامس سوف نعرض للسبب الذي حملنا في حقيقة الأمر على افتراض أن المجتمع المصري من زاوية واحدة معينة هو الذي كان يختلف عن تلك المجتمعات وليس مجتمع الانديز .

إن الأساطير الخاصة بالخلق أو أصل مجتمع الانديز ضعيفة ، وذلك لأنها وصلت إلينا بعد تدمير المجتمع تدميراً شاملاً على أيدي الغزاة الأسبان ، أو على أيدي الأكثريوس الأسبان الذين كانوا يهتمون فعلاً بميثولوجيا شعوب الانديز ، ولكنهم كانوا معرضين للمقارنة والخلط بينهما وبين الميثولوجيا المسيحية التي كانوا يعتقدون أنها حقيقة تاريخية (٥٦) .

وتصور أساطير الانديز الفيضانات بتوسع وإفاضة ، ومن المؤكد أن أساطير الفيضان تعيد إلى الأذهان الكولرث التي حلت بالعالم في الأزمنة الأولى بفعل الزلازل وانهيار الأرض وما إلى ذلك ، لأن حركات الزلازل هذه قد حدثت دون شك في ذلك الوقت كما تحدث اليوم (٥٧)

(٥٦) راجع P. A. Means في Ancient Civilization of the Andes

نيويورك ولندن ١٩٣٦ ص ٥٢ - ٤٢٢ (الطبعة الثانية) .

(٥٧) هذه الملاحظات لأمنى أنى أقدر آراء كاريزون عن دمار مجتمع Chavin

في كوارث الزلازل .

وعلى أى الوجهه فان الأساطير تبين أن الكوارث الناجمة عن عواصف الأمطار الهائلة التى كانت تسقط على الاقليم بأكمله فى السهل الساحلى والجبال معا ، وكانت تصل فى بعض الاحايين الى عشرين سنة متقطعة ، وتنشأ التقلصات المناخية الأخيرة نتيجة حركة التيارات المعادية للرياح الباسيفيكية من أماكنها على شكل عرضى ، وفيما عدا تلك الفترات فلا ينزل المطر على السهل الساحلى حيث قام مجتمع الأنديز .

وتفقد أساطير الأنديز الخاصة بالفيضان أهميتها شأنها فى ذلك شأن الأساطير الصينية ، اذ لم تشتمل على أساطير الخلق ، وإياها كان الأمر فانها تختلف عن معظم الأساطير الصينية فى أنها تبين أن معظم المخلوقات حتى الأجرام السماوية قد حدثت بعد الفيضان ، وإن شعوب الأنديز من حيث علاقتهم بحكمهم الأسباني فى البداية قد تميزت عن الشعوب التى جاءت بعد الفيضان ، وكانوا جزءا من الخليقة التى تعلمها « الكائن الأسسمى » لقد اعتبروا جميع الشعوب التى عاشت قبل الفيضان غريبة وكذلك الأمر بالنسبة للشعوب التى غمرها الفيضان .

وقد تدل هذه المفاهيم والأفكار على أن شعوب الأنديز هى التى شيدت الحضارة التى دخلت أراضى المجتمع فى وقت ما بعد أن حدث فيضان عظيم ، ولكن قد توجد حجة واحدة على الأقل تبرر رفض ذلك الرأى ذلك أن الأساطير لا تذكر أى شيء من الطبوغرافيا كما تفعل أساطير المجتمع المصرى والعراقى ، وقد تعرض أساطير الأنديز الى هذا الأمر اذا ما كانت ترجع الى الفترات الأولى للاستيطان عندما كان المستوطنون يهتمون بطبوغرافيا بيئتهم .

وقد بدأ علم الآثار اليوم بإيجاد أوجه الشبه والاختلاف بين الأساطير برسم المخطوط الأولية لقصة الاستيطان الأول والتى يمكن أن تكون واضحة للعالم ، كما هو الحال فى قصص المجتمع المصرى ومجتمع ما بين النهرين ، وبالطبع توجد بعض الأمور الجديدة فى أسطورة استيطان الأنديز وهكذا نجد فى مستعمرات الأنديز الأولى طبقة من الزراع ممن نود أن نلقى أشباههم فى العالم القديم ، وقد عرضنا لهؤلاء من قبل فى الفصلين الأول والثانى ، وقلنا : أنهم لم يصنعوا الأوانى الفخارية ولم يعرفوا الحبوب ، وأن زراعتهم لمواد الطعام وغيرها كانت مقصورة على (القرع العسلى) وأنواع معينة من التوابل والفول واللوبيسا والفاصوليا ، أما الخضراوات الأخرى فمن المحتمل أن يكونوا

قد جمعوها وهي لا تزال برية ، ولم يعرفوا الحيوانات المستأنسة وكذلك الصين . وكانوا يأكلون مقادير كبيرة من السمك الصدفى ، كذلك فانهم كانوا يصطادون سمك الفكريات وعجل البحر (٥٨) . ويبدو أن أولئك الناس ليسوا من سكان الوادى الذين عاشوا بجوار شاطئ البحر واعتمدوا في حياتهم على مستخرجاته (٥٩) . وعلى أحسن الفروض فهم يعرفون الساحل الشمالى من بيرو بالقرب من مصبات أنهار (شيكاما) و (فيرو) ، ولكن من المحتمل أن يكونوا قد عاشوا أيضا في أماكن كثيرة أخرى على ساحل بيرو ، وربما في أماكن أخرى بعيدة في الجنوب (٦٠) .

وثمة موضعان يمكن أن يكون قد وجدت بهما بقايا في وادى فيرو بالقرب من النهر ذاته ، وليس من الممكن في الوقت الحاضر ان نعرف ما اذا كانت البقايا الأقدم من غيرها تشير حقيقة الى الحرف البشرية أم لا ، وان كان يبدو أنها تشير الى ذلك . فاذا كان الأمر على هذا النحو فيكون هذا الشعب البسيط قد عرف كيف يفيد من النهر ومستخرجاته .

وقد عاش المستوطنون الأول القدامى جدا في وادى نهر شيكاما فيما بين ٢٥٠٠ و ٢٠٠٠ ق م (٦١) . وبقيت الكثافة هناك دون تغيير الى ما يقرب من عام ١٣٠٠ ق م (٦٢) حتى بدا نسوع من الذبوع والانتشار كان أوضح عناصره إضافة الفخار غير المصقول ، ومن المحتمل أن يكون قد جاء شعب جنديد وحمل معه الاختراعات والابتداعات . ولكن اذا كانت مواضع حرفهم يمكن أن تدل عليهم فهذه المواضع قليلة ، وهؤلاء عاشوا في عصر كانوا يجلدون فيه نقاط توقف كثيرة داخل الوادى ، وبعد مرور بضعة قرون ظهرت الليرة كما ظهرت بعض المكتشفات القليلة الأخرى .

ووجد التغيير عند نهر شيكاما ونهر فيرو حوالى عام ١٠٠٠ ق م أو بالأحرى قبل ذلك التاريخ . ثم وجدت بعض البقايا التى ترجع الى بداية عصر جديد في أصل المجتمعات ففي ذلك الحين وظد المستوطنون

(٥٨) انظر (الحضارات) تأليف Junius B. Bird

(٥٩) انظر Prehistoric Settlement Patterns Gordon A. Valliyin the Vira Valley

واشنطن ١٩٥٣ ص ٣٨ - ٤٠ .

(٦٠) وجدت حديثا بقايا مشابهة على الساحل الجنوبي لبيرو وبين مصبات أنهار نازكا

ولوماس (الاكتشاف الأركيولوجية في جنوب وسط بيرو) تأليف : W. D. Strong

(٦١) تحقيقات . Libby العلمية .

(٦٢) تحقيقات Libby

انفسهم في وديان الانهار واصبحوا سكانا لوادئ النهر بالمعنى الصحيح ،
وترجع هذه البقايا الى مجتمع الانديز .

وانى اعتقد ان هذه البقايا لا بد وان تشتمل على البقايا المتحضرة
الاولى بالفعل ، وقد بينا طبيعة تلك البقايا في الفصل الخامس ، وهي
التي ستكون لها أهمية عظيمة جدا بالنسبة للدين في مراحلها الاولى
واقدم صوره . ولكن البقايا الحقيقية لعصر Chavinoid ليست
معروفة حتى الآن . وقد بين «سترونج» و «إيفانز» ان بقايا شيفينويد
الاولى المعروفة حتى الآن هي بقايا وديان نهر شيكاما وسنناكاتالينا
وفيرو (٦٣) وهي البقايا التي بحثناها فيما تقدم ، كما انه قد تبين من
العلماء انفسهم ، وان لم يكن بطريقة حاسمة ، انها ليست البقايا الفعلية
للمجتمعات الأصلية من حيث الأسلوب (٦٤) .

ومع هذا فثمة نظرية ينبغي ان نوليها اهتماما - وهي نظرية (٦٥)
«جوليوتلو» وهي تتضمن مزايا جوهرية معينة ، كما انها توحى على
الأقل بالاتجاه الذي جاء منه مؤسسو المجتمع المتحضر .

وترى النظرية ان بداية التراث عند الشافينويد قد ظهرت على
المنحدرات الشرقية من الانديز في اقليم (هولاجا) ومنها انتقلت في بداية
الأمر الى الانديز الغربية ، ومن ثم الى الساحل الا انه يمكن اعتبار
هذه (البدايات) بمثابة شحنات بدائية للتراث ، وفي وسعها ان تثبت ان
اسلاف الشعب المتحضر الاول (وليس الشعب المتحضر ذاته) قد
عاشوا في اقليم هولاجا . ان اللامح المنحدرة منها كانت مجرد ثقافة
الازمنة البدائية كما كان يوجد في جميع المجتمعات المتحضرة في أيامهم
السابقة .

وفي الحقيقة بوسعنا ان نفترض انه يمكن تتبع أصل الاراضى
المرتفعة للمجتمع بطريقة افضل في الأناليم ما بين المرتفعة والواطة والتي
ذكرنا قبلا انها تقع غرب سلسلة الجبال الوعرة العالية ، ولابد انه كانت
توجد أقاليم عديدة مناخية لمساحات صحراوية من صحراء ميشورا
في الشمال والتي كانت تجف وقت نشأة المجتمع المتحضر ، ولم تكن

(٦٢) Cultural Strategraphy in the Vivin Valley — W.D. Strong راجع

في نيويورك ١٩٥٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٧ .

(٦٤) راجع Julio Tello أيضا ١٩٤٢ .

(٦٥) ص ٦٩ - ٩٣ و ١٢٢ - ١٢٤ .

الأحوال الجغرافية كما كانت من قبل منذ ألفى سنة ، عند ظهور الزراعة في بادئ الأمر في الأقليم الغربي الأمريكى حيث كان التضيق يتزايد بفعل النظم الزراعى .

واضططر الزارعون البدائيون الذين كانوا يقيمون في أحد أجزاء الحواشى الممتدة من المساحات الصحراوية في العصر الألفى الثانى ق.م. وربما تحت ضغط تزايد السكان ، الى أن يجدوا مأوى لهم في وادى مرتفع أو في أحد الوديان الساحلية ، أو لعلهم اضطروا الى البحث في بادئ الأمر عن واد فى الأراضى المرتفعة يكون أيسر عليهم من سواه ، ثم انتقلوا الى واد ساحلى بفيضاناته الأشد وخضراوته التى تنمو فى مستنقعات أقوى ، فإذا لم يكونوا حقيقة قد لجأوا فى بادئ الأمر الى مكان ما ثم الى مكان آخر فانه يوجد تطابق بين سكان الاندیز الأصليين اللذين عاشوا أولا فوق التلال الشمالية الغربية وسكان ما بين النهرين الأصليين اللذين أقاموا فى الحد الجبلی من السهل الإیرانى المرتفع .

وعلى أية حال فلا جدوى من الوصول الى أى شيء حول ههنا الموضوع حتى تتم أبحاث اركيولوجية جديدة فى الأقاليم المرتفعة أكثر من الأبحاث الضئيلة جدا التى تمت حتى الآن .

واننا نختم هذا العرض فى ملاحظات هامة قليلة للأماكن الأولى لمجتمعات الوادى المتحضرة التى استوطنها البشر . ان خريطة المنطقة الصحراوية التى ترسم صورة نصف الكرة الأرضية الشمالى من العالم القديم والتى لا يمكن تفسيرها مطلقا بشكل بسيط - انما نتخذها اذا ما اتخذناها كدليل لأصل مجتمعات الوديان . فان كل نهر من الأنهار التى ورد ذكرها فيما تقدم يمر اليوم وسط الصحراء وثمة سبب معقول يبرر افتراضنا بأن « الأندوس » لم يمكنه ذلك عند قيام المجتمع الهندى فى الأصل ، فضلا عن ذلك فلم يبد أحد مطلقا الرأى القائل بأن المجتمع الصينى قد قام على امتداد النهر الأصفر الذى يمر داخل الصحراء . ان الفكرة القديمة هى أن الشعوب التى كانت تعيش فى الأرض التى أصبحت صحراء قد تحركت خارج تلك الأرض واحتمت مباشرة بالوديان ثم اختفت هذه الشعوب نهائيا .

وبدلا من هذه الفكرة فهناك فكرة بأن امتداد الصحراء الواسع يتخذ كدليل عام على أن نقص موارد المياه كان هو العامل المتحكم فى كل مكان من ذلك الأقليم وأن فرار البشرية من المناطق الصحراوية الحقيقية ربما قد حدث لسنين قبل قيسام المجتمعات المتحضرة بعدة

آلاف من السنين ، وأن الناس الذين جاءوا لاستيطان وادى النهر لم يأتوا من الأقاليم التي كانت أكثر جفافا عن سواها ، وإنما جاءوا من الأقاليم الأقل جفافا عن غيرها في المنطقة الصحراوية العامة •

لقد وجدنا في مستهل هذا الفصل - من قبيل التكهّن - عنصرا من التدرج في اقتراب معظم المستوطنين من وادى النهر ، غير أننا لا نعرف لسوء الحظ شيئا بهذا الخصوص عن الهند ، وأيا كان الأمر فإن الصين تقدم حالة كلاسيكية للشعوب الزراعية التي كانت قد عاشت قبلا على جوانب أنهار صغيرة تصب في النهر العظيم ، وهناك تعلمت هذه الشعوب شيئا ما عن كيفية استخدام مياه النهر ، ومن ثم تحركت نحو النهر ذاته الذي كان مضطربا بلا شك ، إلا أنه لم يسبب الفيضانات في كثير من الأماكن لأنه كان مغلقا داخل مضيق • وحتى إذا ما كان الأمر كذلك فقد تعلم المستوطنون شيئا أكثر عن التحكم في النهر الرئيسي على مدى شاذ حيث يستطيع النهر أن يغمره بالماء وقد غمره فعلا كما تبين أسطورة (يو) بوضوح •

وتوضح أسطورة (يو) تماما أن الناس قد تعلموا لحد ما أن يوسعوا مجارى المياه أكثر مما كانوا يعتمدون على الحواجز وحدها •

وبعد ذلك تحرك الصينيون الى الامام ليتمكنوا من معرفة النهر الأصفر في السهل المكشوف حيث قد يكون هناك أخطر الأنهار بأسرها التي صادفها المتحضرون الأول في مستهل عهدهم بالحياة المتحضرة •

كان اقتراب الصينيين الأول من موطن مجتمعهم المتحضر تدريجيا بالمعنى الخاص الذى نقصده من أن طبوغرافية موطنهم هي التي كانت تتحكم في مصيرهم وتتعهد أمورهم بمعنى أنها دفعت بهم ثلاث خطوات حتى ترسخ أقدامهم في الوادى •

وإننا عندما نبحث عن أوجه الشبه والاختلاف يبدو لنا أن الجمعيات الثلاث التي استوطنت مصر قد بقيت زمنا طويلا في الطرف الخارجى البعيد من الوادى الى ما وراء الحدود التي يمكن أن يصل إليها الفيضان وحسب ما يذكره « فرانكفورت » فمن الصحيح انه كانت هناك بعض المنشآت التي استوطنتها تلك الشعوب في الوادى ذاته على التلال الصغيرة التي كانت بعيدة عن المستنقعات في مكان مرتفع عنها ولكننى أعتقد أن تلك المنشآت ان كانت على هذا النمط فمن المحتمل ألا تكون أكثر من نقطة امامية وبيوت صغيرة واكواخ كانوا يستخدمونها على

الأرجح في الصيد أو ربما كانت مواقع يحصلون منها على المياه بطريقة أكثر أمنا وثمة أدلة تجريبية عن منشآت مشابهة في مستنقعات الوادي عند أحد أنهار الأنديز تبين أن السكان الأول الذين استخدموا تلك المساكن كانوا من صيادي السمك والذين كانوا يقيمون على ساحل النهر ولا يمكن أن نعتبرهم من المتحضرين على أى وجه من الوجوه .

ومما ينبغى أن نذكره أنه لم تكن هناك أمطار بالغفل في كل من وادي النيل وعلى ساحل الأنديز ، وكان على أى شعب من الشعوب يريد أن يبقى على قيد الحياة أن يقترب من ماء النهر طالما لم يكن يوجد سواه .

وفي بداية ظهور سكان مجتمع الأنديز بدأ الاقتراب تدريجيا من وادي النهر الا أننا لا نعرف سوى النذر اليسير عن ذلك الوقت . ولكن بوصول المصريين الأوائل في المجتمعات الرابعة الذين نطلق عليهم (سكان نقادة رقم ٢) والذين ربما وصلوا الى مصر حوالي ٣٠٠٠ ق م . فقد حدث في مصر ايضا الاقتراب من النهر وبمكثنا أن نرى في حالة مصر بدء الاقتراب من النهر ، وذلك حسب درجة معرفة الشعوب الأولى التي عاشت من قبلهم على النهر وحسب كيفية الاقتراب منه وطريقة استخدام مياهه . وفي رأى أن ازدياد السكان والتدريجى في المجتمع الأنديزى والمفاجيء في المجتمع المصرى قد أدى الى قيامهم تحت وطأة الحاجة في مكان أوسع كما أدى أيضا الى أن يجازفوا بتوسيع مجرى النهر والواقع أن القوى الناجمة من ضغط السكان على موارد الأرض هي التي دفعت السكان الى زيادة المساحات التي يقيمون فيها في كل من حالتي المجتمع الأنديزى والمجتمع المصرى .

أما الوضع في بلاد ما بين النهرين فيبدو مختلفا ولكنه يشبه حقا الى درجة كبيرة الأوضاع الأخرى ، ويبدو أن التدريج لم يكن موجودا مادام قد وجدت انفصالات كاملة في تفاوت الاحداث عندما وصل سكان ما بين النهرين الأول من ايران واستوطنوا الأماكن المجاورة لمجانب الفرات . واننا اذ نتفاضى في الواقع عما حدث قبل وصول المستوطنين الى جوار النهر فاننا نستطيع أن نقول ان استيطان ما بين النهرين كان يختلف تماما عن استيطان الشعوب الأخرى التي جاءت من مساحات تبعد مئات الاميال عن هذا المكان المجاور للنهر ، والتي تمكنت من الاستقرار السريع بجوار النهر الكبير . لقد كان في وسع هذه الشعوب ان تستخدم في الحال طرق التحكم في مياه الوديان الأخرى . والتي كان

عليها ان تتعلمها بعد وصولها الى موطنها الجديد بعد ان عانت كثيرا وتعرضت لخطر جمة ... وتمضى الحجة هكذا . وهى ان سكان ما بين النهرين الاول قد تعلموا منهم فى التحكم فى المياه من موطنهم القديم (ايران) وهذا ما لم يكن يعرفه غيرهم من المستوطنين الآخرين . ومن ثم فان حالة ما بين النهرين هى الاستثناء عن القاعدة العامة وهى ان المستوطنين الذين بدؤوا بايجاد المجتمعات الأولية المتحضرة فى وديان النهر لم يتمكنوا من مكافحة المياه فى بداية وصولهم بل كان عليهم ان يظلوا فترة انتقالية على حافة الوادى او فى مكان ما لا يبعد كثيرا يتعلمون فيه وسائل التحكم فى المياه .

ولم يكن السكان الاول فيما بين النهرين ، يختلفون فى الواقع عن سائر الذين اوجدوا مجتمعات الوادى اذ كان عليهم هم ايضا ان يتعلموا فنون ضبط المياه وكذلك ايران حيث تعلموا هذه الفنون لم تكن أبعد من اية مسافة بالنسبة للأماكن السفلى من الفرات كما كان السكان عند الانهار الصغيرة العليا المتفرعة من النهر الاصفر العظيم حيث تعلموا أولا الفنون الماثلة من المجرى الاساسى المنخفض للنهر عبر سهل شمال الصين . وترجع أوجه الشبه والاختلاف الى التقارب بين الموضع الاساسى للمجتمع فى الحالتين المصرية والاندلسية . ومتوسط المسافة التى اقدها ٢٠٠ و ٣٠٠ ميل (٦٦)

لقد كانت عملية ضبط المياه التى تعلمها هؤلاء جميعا فى مكان او آخر على اعظم درجة من الاهمية باعتبارها احدى الخطوات الاولى فى تكوين مجتمعات الوادى الاولى . ولكن ينبغى ان تؤخذ على انها كانت محدودة النطاق كما انه يمكن ان توصف بصعوبة على انها (عملية رى) على اعتبار انها عملية توصيل المياه الى الحقول الجافة الاخرى والتى لم يكن يتيسر الافادة منها بدون هذه العملية وقد تقدم الرى بهذا المعنى على نطاق واسع فى جميع مجتمعات الوادى (وهذا يصدق على سائر تلك المجتمعات باستثناء الهند) ، الا ان التحسينات الجديدة وهى ازدياد عدد السكان ، وقد نشأت هذه المشكلة عندما كانت المجتمعات فى أحسن وقت من الدورات الاولى من تواريخها وهذه نقطة اخرى لم نبحثها فى هذا الكتاب وربما حدث التحكم فى المياه فى بادىء الامر فى

(٦٦) ربما يكون سكان نقادة رقم ٢ قد جلبوا معهم معرفة ضبط المياه واخذوا يطبقونها حال وصولهم ١٠٠

مجتمعات الوادى عن طريق اقامة الحواجز وتطهير المياه وخاصة للوقاية من الفيضان . اذ كان الفيضان هو عامل الرى الرئيسى واذا كان يوجد فى بعض المجتمعات شئ ارقى من هذا ، فان بعض هذه المياه كان يدخل تحت اصطلاح الرى . كما جاء فى تعريف القاموس لكلمة « رى » على انها ضبط المياه .

واخيرا ننال أنواع المناخ فى مجتمعات وادى النهر . لقد كانت جميع تلك المجتمعات ماعدا مجتمع واحد فى الاقاليم شبه الاستوائية . أما الاستثناء فهو المجتمع الصينى الذى نشأ فى مناخ معتدل . ان مناخ المجتمع الانديزى وان كان قد نشأ اقرب لخط الاستواء من المجتمعات الاربعة الاخرى فانه من المحتمل ان يكون ابعد من المجتمعات الثلاثة التى وجدت فى المنطقة شبه الاستوائية . ومن المقرر ان تلك الاختلافات فى موارد المياه هى أحد العناصر التى كانت تؤثر فى المناخ وهى ليست بذات أهمية عظيمة بالنسبة للمجتمعات التى كانت تجلب المياه من الانهار الخاصة بها . الا ان موارد المياه كانت فى الواقع غير مختلفة على الاطلاق أو مختلفة قليلا جدا عنها فى بيرو ومصر . من حيث التيارات التى تحدث أحيانا كل سنة فيما بين النهرين والصين وقد تصل أسوأ التيارات فى بيرو فى فترات تمتد الى عشرين عاما بين المرة والاخرى . وقد تحدث أمطار عادية موسمية فى معظم السنوات على الهند .

وليس من الواضح حتى الآن ان المناخ باعتباره العامل الوحيد لم يكن هاما بالنسبة لأصل مجتمعات الوادى ونحوها ومن الأوفق تأجيل البت فى ذلك الموضوع الى نهاية الفصل التالى حيث سنجد بيانات جيدة كثيرة أخرى عن المناخ ، ليس عن مناخ مجتمعات الوادى فحسب بل عن أنواع المناخ فى المجتمعات المتحضرة الاولى أيضا .

الفصل
الرابع

أمريكا
الوسطى
وكريت

تدل جميع الاحتمالات على أن مجتمعين من المجتمعات السبعة الأولى المتحضرة قد نشأا في بلاد مختلفة تماما عن وديان النهر . فنشأ مجتمع كريت في جزيرة صغيرة ونشأ مجتمع أمريكا الوسطى في إقليم عريض ، كان الجزء الأكبر منه غابات استوائية .

وأصبح مجتمع كريت يشمل وسط الجزيرة وشرقها وامتد المجتمع الى بعض جزر ميكسولادس وبلوبونيزيا والتي أصبحت فيما بعد بوقت طويل جزءا من بلاد الاغريق الأوروبية ، وأصبح مجتمع أمريكا الوسطى يشغل مساحة شاسعة من الأراضي تمتد من فيراكروز ووادي المكسيك في الشمال الغربي ، وعن شبه جزيرة يقطان في الشمال الشرقي الى جواتيمالا وجزء من هندوراس جنوبا .

ولقد يبدو غريبا أن عملية خاصة بهذه العملية وقيام مجتمع متحضر من حالات بدائية يمكن أن يحدث في مكان آخر غير وادي النهر ، ، طالما أن وديان النهر لها طبوغرافيتها الخاصة بها ، فإن طبوغرافيتها تطابق دون شك مطابقة صحيحة تلك العملية الخاصة وهي قيام المجتمعات المتحضرة .

ولا بد أن نذكر فورا في ضوء هذه الإعتبارات أنه توجد امكانية جدية على أن مجتمع أمريكا الوسطى قد بدأ ظهوره في أجد الوديان ، ولكن إذا كان هذا قد حدث فعلا ، فإنه قد امتد في وقت مبكر جدا خلف الوادي وانتشر في أماكن مختلفة تماما . ولا يمكن أن

نفترض بشكل معقول أن مجتمع كريت قد بدأ في واد. ولكن ليس من المستبعد أن يكون هناك نهر صغير في الجزيرة ذو نفع خاص للمستوطنين لمدة قصيرة جدا ، ان الصعوبة ترجع الى أننا لا نملك أية بيانات حاسمة عن الاصول الفعلية لآى مجتمع من هذين المجتمعين .

ان العوامل الثلاثة هي ذاتها التى دفعت الناس لتثبيت أنفسهم فى كريت وأمريكا الوسطى. كما هو الحال فى أقاليم الوديان الخمسة ، وهذه العوامل هي الجفاف وزيادة السكان وانهاك التربة .

وفى حالة مجتمع أمريكا الوسطى لا يوجد أى سر غامض بالنسبة الى مكان ودرجة تفاعل هذه العوامل الثلاثة وتأثيرها من حيث الاتساع ومقدار هذا التأثير وفاعليته أما فى حالة مجتمع كريت فينبغى تبين كيف جاء هؤلاء الناس الى الجزيرة ولكن هذا لا يعنى عرض أية مشكلة كبيرة .

ان مصادر المعلومات عن أصل هذه المجتمعات هي ذاتها التى جاءت عن مجتمعات الودى ، فهى بيانات أركيولوجية مع بيانات أدبية قليلة ترجع لأزمنة متأخرة وهى تلقى ضوءا عن الزمن والبيانات الجيولوجية والطبوغرافية والأساطير .

كانت الأقاليم الواسعة فى مجتمع أمريكا الوسطى فى الزمن القديم تشمل الاراضى المرتفعة عند قاعدة شبه جزيرة يقطان والجزء الساحلى من فيراكروز مع الاراضى المرتفعة فى شياپاس فيما بينهما وأجزاء منخفضة أخرى بعيدة نحو الجنوب فى هندوراس وكانت تشمل بجانب هذه الأجزاء مساحات من الاراضى المرتفعة فى أوكسكاكا كذلك جزء هام جدا من الاراضى المرتفعة من وادى المكسيك . أما الاراضى الباطنة فكانت غابة استوائية ممطرة . هذا فى حين أن الاراضى المرتفعة مختلفة تماما عن سواها فلها مناخ معتدل كثيرا أو قليلا ويبقى مناخ وادى المكسيك أزمنة طويلة بين الرطوبة والجفاف .

كان المناخ حوالى الزمن الذى نشأ فيه المجتمع المتحضر لا يزال رطبا وربما كان من المحتمل وقتئذ أنه كان يميل نحو مرحلة الجفاف الطويلة .

وليس ثمة احتمال بأن المجتمع المتحضر قد نشأ فى جواتيمالا وفى اراضى أوكسكاكا ، اذ كانت أوكسكاكا بعد جميع الأقاليم الأخرى فى المجتمع فيما عدا مرتفعات جواتيمالا ، وكان من الواضح أن مرتفعات جواتيمالا هي

الأراضي الاقليمية في أواسط يقطان في دور النمو ، ولم تكن كما تدل
الشواهد الأركيولوجية تسبهم بأى نصيب في المستوى العالى البنى. بلقته
الحضارة . أما مسألة المسكان الذى نشأ فيه المجتمع المتحضر فعلا ، فهذه
مسألة نجيب عنها ، فقد نشأ المجتمع المتحضر فعلا بين وادى المكسيك
واقليم الأرض الواطئة .

وعلى أيضا أنه لا يوجد شيء مما تكشف عنه البقايا الأركيولوجية
الاولى في الوقت الحاضر يمكن ارجاعه الى أصل المجتمع الحقيقي ، فهى
كلها بقايا ترجع الى زمن متأخر نوعا عن ذلك (١) . ولكنها ليست
متأخرة كثيرا كما أنه من المحتمل أنها تشير الى الطريق الذى ينبغي أن
نسلكه لنجد المكان الذى قام فيه هذا المجتمع فى الأجل ، أما فيما يتعلق
بمواد الغابات أو تلك التى تتعلق بأولئك وأيهما سابق للآخر فأننى متأثر
فى هذا الموضوع تأثرا قويا بالحجة التى قدمها « ماك نيش » (٢) . لقد
اعتبر ماك نيش أن أقدم المواد التى وجدت فى اقليم هواسيتيكا فى جنوبى
فيراكروز وفى أواسط يقطان وبيتين Peten اقليم يوجوا من هندوراس ،
أى فى الأقاليم الأربعة الواطئة تعتبر أقدم من المواد التى وجدت فى
وادى المكسيك أو أى مكان آخر من الأقاليم المرتفعة وهذا رأى يقسوم
أصلا على النماذج النسبية للفخار وغيره من الصناعات المتنوعة ، ومن
المتكهن أن يثبت خطأ هذا رأى بعد الاكتشافات التى تجرى فى
المستقبل (٣) . ومع هذا فإذا كان ذلك صحيحا فسوف يتبع ذلك شيء
طريف : فإن أقدم المواد ترجع للاماكن التى قامت بالفصل فى الغابات
الاستوائية ومما هو أكثر من ذلك أنها كانت تمتد مع وجود ثقافات كبيرة
من طرف غابة الى طرف غابة أخرى من غابات المجتمع المتحضر .

إن هذه المواد بطبيعة الحال لا تشكل الصعوبة التى اعترضتنا عند
العثور على المواد الاولى لحصر والصين أى أنه لا توجد أية صعوبة لمعرفة
ما اذا كانت تلك المواد قد تختلف عن مجتمع متحضر أو لا ، إن المواد الاولى
التي ترجع الى أمريكا الوسطى هى جزء من سلسلة تتقدم تقديما مستمرا
ثابتا ، مثل السلسلة التى تتغير أنواعها تفسيرا سريعا ومتزايدا بحيث
لا يمكن أن تكون نتاج مجتمعات بدائية ، وتظهر الآن عملية التجمع التى

(١) سنود اسباب ذلك في الفقرات التالية .

(٢) فيلادلفيا ١٩٥٤ - صفحة ١١٦ - ١٢٤ .

(٣) يجزم ماك نيش بصحة رأيه وهو يقدم في الواقع تفسيرين مختلفين للبيانات الخاصة
.. بعلم شرح الرموز الكتابية . التفسير الاول الذى يعتبر المواد التى ترجع الى الغاية
أقدم والتفسير الثانى لا يعتبرها كذلك ويفضل التفسير الاول من الثانى .

يتم بمقتضاها تجمع الوحدات الاجتماعية في المجتمع المتحضر ، تظهر في أنواع منتجاتها ، وهذه مسألة تتطلب عناية خاصة في مجتمع أمريكا الوسطى لان الاجزاء المختلفة من المجتمع كانت مبعثرة بشكل كبير الى درجة استثنائية في كل الأزمنة ، وعلى الاخص في الأزمنة المبكرة نسبيا الخاصة بهذه البقايا (٤) . ولكن توجد ثغرة في التاريخ قبل العثور على هذه البقايا وكان ضمن هذا الزمن موعد نشوء المجتمع المتحضر في الأصل .

ويتطلب هذا الدليل الأركيولوجي اهتماما بالغا عندما توجد العلامة بينه وبين الملامح الرئيسية في الاسطورة المجتمعة ، هذا هو أعظم وضع في كافة أنواع الاتصالات والعلاقات من أول الاسطورة الى آخرها ، الاسطورة التي تتعلق بالهة المطر . وهذه مسائل تخص المجتمع ، ولا يوجد أى مجتمع متحضر آخر يتخذ له آلهة من هذا النوع . ويكاد يكون من الضروري أن نشير الى المجتمع الذي تضع طقوسه آلهة المطر في مكان مرتفع وبدرجة عالية عن بقية الآلهة من حيث الكم . فيجب أن يتلقى موارده من المياه مباشرة في شكل المطر ، وربما كان ذلك بطريقة فضولية تبعث على الملل وهذا مما يجعل من المحتمل كثيرا أن الحضارة قد بدأت في الغابات الاستوائية حيث الأمطار موسمية وغزيرة أكثر مما بدأت في وادي المكسيك ، ذلك لأن سكان الوادي قد اعتمدوا اعتمادا واضحا على مياه البحيرة والنهر كما اعتمدوا مباشرة على المطر ولكن هذا لم يمنعهم من أن يصبحوا أيضا من عباد المطر ، وأن وحدة دينية كهذه تعد عادية أيا كان الأمر ولكنها ثابتة على ما اعتقد أثناء عصر الايمان في المجتمع المتحضر ، وتكتسب الديانة خصائصها من الاقليم الذي نشأت فيه حيث قام المجتمع ذاته في الأصل . ومن ثم فإن تقدير «ماك نيش» بأن البقايا الاولى المعروفة في أقاليم الغابات كانت متقدمة عن تلك التي تعود الى الاراضى المرتفعة هذا التقدير يعنى أيضا أن البدايات الحقيقية للمجتمع المتحضر كانت من بقايا اقليم الغابات وأن ذلك المجتمع قد انتشر كما يستدل على ذلك من جميع الاحتمالات في مكان من تلك الاقاليم .

وللمجتمع أساطيره في الخلق تبدأ بالمياه الاصلية ، ومن الممكن أن يؤخذ هذا على أنه يعنى أصل الوادي الذي يفره الفيضان . وتوجد

(٤) اعتقد ان ملاحظات ويللى وفيليبس يمكن تطبيقها على جميع المجتمعات المتحضرة في مواطنها الاصلية ولكن يوجد فيه ثغرة هذه الظواهر الطبيعية الذى يتحدثون عنه والذي لا نستطيع ان نذكره .

وسيلتان للنهر العظيم تجريان داخل الغابة عند قاعدة شبه جزيرة يقطان ، وهى وسيلة « يسوماستتا » ووسيلة رميرجراند دى شسياس . اما الطريقة الاولى فمعروفة بطريقة الاتصال الرئيسية داخل المجتمع ، وقد وجدت بجوارها منشآت للسكنى الا أن هناك مساكن أخرى أقدم من هذه كلها ، أما النهر الثانى فانه يعرف بصعوبة من الناحية الاركيولوجية حتى الآن ، ولهذا يكون من المهم جدا بالطبع أن تكتشف بعض الآثار التى ترجع لنهر من هذه الانهار أو أى نهر من الانهار القصيرة التى تصب فى خليج المكسيك أو الكاريبي . الا أنه حتى وإن وجدت مساكن كهذه فانها لا تغير من الوضع الذى يقضى بأن المجتمع قد انتشر فى جميع أنحاء الغابة بعد قيامه بأمد قصير فى الأصل وإننى شخصيا لا أعتقد أن منشآت كهذه من الممكن وجودها إذ أننى أعتقد أن ظهور آلهة المطر يعنى أن مياه الامطار كانت منذ البداية هى المياه التى اعتمد عليها المجتمع وأن أى مياه مطر كانت تستخدم من مياه طارئة .

ونصل الآن الى المسألة القاطعة وهى كيف أن طبوغرافيا مجتمع أمريكا الوسطى غابة الامطار الاستوائية يمكن أن تفسد المجتمع كقاعدة أصلية للبيئة . ان الغابة الاستوائية الممطرة ليست وادى نهر ولكن يوجد بها مستنقعات مثل وادى النهر . انه يوجد فى غابة أمريكا الوسطى الممطرة أراضى مستنقعات وبحيرات كثيرة وبها فائض مياه لنصف العام وليس ذلك مقصورا على وقت الفيضان فى وادى النهر . ان تطهير الغابة الممطرة من النباتات البرية كان بالتأكيد عملا مشابها لما يحدث فى وادى النهر ولكنه كان أعظم بكثير كما أوضح « أريك لمسون » ذلك (٥) .

لقد كان هذا دون شك أصعب مهمة مادية لاقاها المجتمع المتحضر الأول فى أيامه الأولى ، وهناك رأى مناقض لهذا رأى وهو أن عملية التحكم فى المياه ربما لم تكن مهمة خطيرة . وفضلا على ذلك فانه يوجد دائما ماء إذ أنه توجد بعض الأمطار الى جانب وجود الأنهار والبحيرات حتى فى الشهور التى يطلق عليها شهور الجفاف ، أما الشئ الذى كان يفترق اليه هذا المجتمع فهو تجديد الاراضى القابلة للزراعة تلقائيا مثل مستنقعات الوادى التى تتفنى من الفيضان ولم يكن لدى الزارع فى الواقع سوى سنتين أو ثلاث سنوات يستخدم أثناءها الاراضى التى ظهرت بعد المهمة الثقيلة للغاية التى كان يقوم بها الزارع لتطهير الغابة الاستوائية،

وكان عليه عندئذ ان ينقل حقوله فى مكان آخر ويقوم بتطهير الغابة مرة أخرى ، وإزاء هذا كانت الاراضى تتجدد بسرعة الى درجة حسنة عندما يتحول ثانية الى حالة الغابة ، ولهذا فانه يمكن تطهير الغابة واستخدامها من جديد بعد عشرات قليلة من السنوات وينشأ نوع من الحركة الدائرية من موضع الى آخر ، فى حين ينمو المجتمع وعلى أية حال فان هذا مجرد افتراض ، الا أننا فى الواقع لا نعرف كيف واجه المجتمع هذه المسألة اذا كان عليه أن يواجهها بأية طريقة أخرى غير طريقة الخضوع الدليل .

وعلى أية حال فلا يتسنى لنا أن نغالى فى التركيز على أن مهمة التطهير المتناوب لم تكن عبئا ثقيلا جدا ، وهذا ما يمكن أن نقوله أيضا عن مهمة التحكم فى المياه ، حتى ولو كان التحكم فى المياه بدرجة بدائية تماما فى مجتمع الوادى وقد لعبت أعباء كهذه دورها دون شك فى أصل المجتمعات المتحضرة .

وئمة صعوبة قليلة فى النظرية التى تتعلق بأصل الشعوب التى اوجدت مجتمع أمريكا الوسطى ، ومن حسن الحظ أن الاعتبارات النظرية فى هذه الحال يمكن أن يعتد بها ، بمعنى أنها واضحة فى حد ذاتها ، إلا أنه لا توجد أية بيانات تربط بين المستوطنين المعروفين الاول بالناس الذين عاشوا فى الاماكن الاخرى الذين سبقوهم ولا يمكن أن يوجد أدنى شك فى أن المستوطنين قد جاؤا من الشمال . لان ذلك هو المكان الذى كانت تترك فيه الارض للجفاف ، وقد بقيت على هذه الحالة وقتا طويلا بلا انقطاع من وقت قيام الزراعة فعلا فى الاصل وقبل ذلك بعدة آلاف من السنين (٦) .

الا أن هناك ثغرة كبيرة جدا فى التاريخ الاركيولوجى ازاء البيانات الاولى عن الشعوب المتحضرة ثغرة تسبب قدرا كبيرا من الحيرة لعلماء الآثار القديمة (٧) أما فيما يتعلق بذلك فينبغى أن نشير أيا كان الامر الى أن هذه الثغرة أينما توجد فى جزئها الاخير على الأقل ، وفى المناطق الصخرية المطيرة ، كما هو من المتوقع أن يحدث تماما - وهذا يعنى فقط أن الشعوب الاولى المتحضرة كانت من المهاجرين الذين جاؤوا الى الغابة المطيرة كما نعلم تماما أن مؤسس المجتمعات المتحضرة كانوا من المهاجرين الذين جاؤوا الى وديان النهر ، لقد كانت الصحراء المطيرة أقل

(٦) انظر الفصل الثانى .

(٧) انظر مؤلف Willy and Phillips

جاذبية للزراعين البدائيين عن سكان وديان النهر ، وأن المهاجرين لم يلبثوا الى أى مكان من المكائن الا بعد أن اضطروا الى ذلك ، وبالطبع فنحن مضطرون الى البحث عن تاريخ المستوطنين الحقيقيين فى الغابة ، على أنه من الامور البعيدة الاحتمال جدا أن يكون البدائيون قد عاشوا هناك قبلهم وربما يكون سكان العصر الحجري الوسيط قد زاروا الغابة لاصطياد حيواناتها ومن المحتمل الا يكون سكان كهؤلاء قد تركوا أى أثر سوى أسنة الرماح الا نادرا .

الا أن هذا الفرض الذى يتعلق بالغابة المطيرة يعتبر فقط سببا فى الجزء الأخير من الثغرة ، والجزء الذى تشغله أمريكا الوسطى الذى يشمل الغابة المطيرة ، أما بالنسبة لبقية هذه المساحات التى يشغلها المجتمع المتحضر فإن التاريخ الذى يسبق ذلك ضئيل جدا الى درجة غير عادية فى الواقع ويرجع التاريخ الزراعى الوحيد الاول الى سكان الركن الشمالى الشرقى من الاراضى التى توجد فى كهف تامابوليباس ، وهذا الشعب الذى يختلف اختلافا عظيما هو من أقدم الشعوب التى نعرفها فى أى مكان فى اقليم المجتمع المتحضر ، ومن الممكن جدا الا يكون شعب (تامابوليباس) من أسلاف الشعوب التى كونت المجتمع المتحضر على الاطلاق، وان كان السكان الاول الذين ينتسبون الى ذلك الشعب بلاشك يؤرخون بتاريخ سابق على المجتمع المتحضر بخمسماية عام وقد تزيد عن ذلك بمدة ٢٥٠٠ عام قبل الميلاد . وخلافا لذلك فيوجد تاريخ لأمريكا الوسطى خاص بسكان العصر الحجري الوسيط فقط ، أو ربما هو خاص ببعض الزارعين الاول مثل شعب تامابوليباس الذين لم يتركوا أى أثر عن آثار زراعتهم . وحتى هؤلاء الذين عاشوا فى العصر الحجري الوسيط وغيرهم إذ كانوا قد وجدوا فهم قليل جدا .

واعتقد أن ثم ايضاح محتمل لهذا كله فى اكتشافات « بول سيرز » عن المئات بواسطة التحليل المقارن للثقاح وهى التى تساعد الى حد ما فى التوسع فى أبحاث انتيفز عن أمريكا الوسطى ولقد وجد كل من « سيرز » و « انتيفز » عصر جفاف طويل قبل زمن قيام المجتمع المتحضر نوعا وكانت كل البحيرات فى عصر الجفاف ومن المحتمل الانهيار أيضا ، أدنى بكثير مما أصبحت عليه فى الأزمنة المتحضرة الأولى لعصر الرطوبة المتداخل قبل ذلك ، ومن المحتمل أن تكون الرطوبة - وان كانت قد أخذت

فى الانخفاض - أن تكون قد استمرت الى العصر المتحضر المتقدم جدا ، ويعتقد « سيرز » أن المواطن التى اختارها السكان فى أزمنة ما قبل التاريخ المتحضر كانت على شواطئ البحيرات الواطئة وان تكون البقايا المادية لتلك المنشآت قد نقلت الى أماكن بعيدة ودمرت بفعل المياه المرتفعة التى حدثت منذ ذلك الوقت . ولهذا فإننا نواصل البحث دائما دون تاريخ حقيقى لأسلاف الشعوب المتحضرة ومع ذلك فاعتقد أننا قد نفترض أن الناس الذين يدهوا المجتمع المتحضر قد جاءوا من الأراضى المرتفعة التى كانت لا تزال بها مياه ، ولكنها كانت تفقدتها تدريجيا ، وينبغى لنا فى الواقع أن نتطلع الى الاقليم الذى كان أقل جفافا عن سواء ، وليس للاقليم الأكثر جفافا من غيره ، كما هو الحال فى المنطقة الصحراوية الغربية من العالم القديم كمصدر للسكان فى زمن متأخر كهذا فى عملية الجفاف كإسساس لمجتمع متحضر . ولا توجد أية دلائل حقيقية لمعرفة المكان الذى وجد فيه اقليم كهذا غير أن « سيرز » يعتقد أن اقليم « تكسوكو » كان الاقليم الذى أخذ فى الجفاف فى الزمن المتقدم لتطور المجتمع المتحضر ، وعلى ذلك فإنه من الممكن أن يكون الآن قد أصبح أكثر جفافا قبل أن ينشأ المجتمع المتحضر ، وربما يكون الفائض من السكان قد هاجر الى الغابة المطيرة حيث أن مقدار المياه لم ينقص ولو الى درجة محسوسة حيث يكون قد بدأ نمو المجتمع المتحضر (٨) وبالطبع لا يوجد أدنى شك أن البدائيين كانوا يعيشون حيث كانت المياه آخذة فى النقصان فى حين كان عدد السكان فى تزايد ، وفى الوقت ذاته كانت هناك كميات مياه كافية لإيجاد جو رطب فى مرحلة لقاح النبات وفضلا على ذلك ربما كانت الزيادة الناجمة عن انخفاض المياه هناك تكون قد نتجت من زيادة طبيعية أيضا .

إننا لم نفترض أن زراعة العالم الجديد قد أدت الى زيادة عدد السكان بدرجة كبيرة كما فعلت زراعة العالم القديم ، إلا أنه لا يوجد أدنى شك فى أن زراعة العالم الجديد قد جلبت بعض الزيادة فى عدد السكان .

فلذا كان الذين يدهوا المجتمع المتحضر أو أسلافهم المباشرون قد عاشوا من قبل فى اقليم بحيرة تكسوكو فان ذلك من شأنه أن يمدنا بإيضاح عن الأهمية التى كانت لذلك الاقليم . وربما ظلت علاقة المستوطنين الذين عاشوا فى الغابة حسنة بالوادي ومن الواضح تماما أن

(٨) يقول « سيرز » أن الثقافات المهجورة قد أفادت من المناخ الرطب نسبيا ولكن هذا لا يبنى أن الثقافات التى جاءت قبلا - من المحتم أن تكون قد تمتعت بقدر أكبر من الرطوبة .

الذين جاءوا فى زمن متأخر قد خلقوا الملامح الجديدة لديانة المجتمع (أنظر الفصل الخامس) ولكن من الواضح أنهم نقلوها بدورهم الى أولئك الذين خلفوهم ورأعهم فى الوادى حيث كان لهم بالتأكيد أفكار فعالة كما أنهم قد نقلوا أيضا كل شئ جديد تقريبا أنتجته الحضارة .

وأقدم تاريخ هو الذى وضع لاقليم تكسكوكو بعد بداية المجتمع المتحضر بزمان طويل طبعاً ، على أثر الاكتشافات المعروفة ليقايا « كارتكتكو الاولى » وهى ترجع الى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد (٩) .

وإذا ما كان « ماك نيش » على حق فإن أقدم اليعايات المعروفة فى الاراضى المنخفضة كانت توجد قبل ذلك ، وأن بداية المجتمع المتحضر كانت أقدم وربما تعود الى حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد (١٠) .

أما أولئك الذين ذهبوا الى كريت فإنه من المحتمل كثيراً أن يكونوا قد جاءوا من الأناضول ، وثمة رأى أقل احتمالاً من ذلك يرى أنهم قد جاءوا من سوريا (١١) من أماكن كانت فى ذلك الحين تفقد مواردها من المياه ، ويأخذ سكانها المزارعون فى الزيادة ولم يكن يتعرض المهاجر الى كريت من البر الاصلى الى أخطار فادحة فى رحلته البحرية ، ذلك لأن رحلته بالبحر كانت تحميها جزر رودس وكاريانوس وكاسوس فاذا كان المهاجرون قد رحلوا بمحاذاة شاطئ آسيا الصغرى فإنه من المحتمل كثيراً أن يكونوا قد اختاروا طريق تلك الجزر عن غير قصد ظناً منهم أنهم ما زالوا يسيرون بمحاذاة الساحل ، لأن كل جزيرة يمكن رؤيتها من الجزيرة الاخرى اذا كان الطقس حسناً ، وعلى أية حال فليس من الغريب أن الناس الذين كانوا يبحثون عن أرض جديدة لاستيطانها ينبغي أن يفامروا بحراً كما كانوا يفامرون فى وديان النهر التى لم يسكنوها من قبل .

ومجمل القول انه لا توجد أية صعوبة فى بيان كيف أصبحت كريت مأهولة بالمزارعين البدائيين ، أو بيان ارتباط وصولهم بتقلب الأحوال الطبيعية التى تتصل بالمأوى الذى لجأ اليه غيرهم من المزارعين البدائيين فى وديان النهر .
ولكن المجتمع المتحضر لم يبدأ نشأته قوز وصول أول جماعة من السكان .

(٩) ارجع مؤلف Libby

(١٠) لندن ١٩٣٩ The Archaeology of Crete صفحة ٢٢ - ٢٤ -

(١١) المرجع السابق صفحة ٣٧ - ٤٢ -

وفي الواقع كان أولئك السكان من المزارعين الذين أحضروا حيواناتهم معهم ، وكانوا في بادئ الامر من السكان البسطاء جدا ، ويسكن بعضهم في الكهوف والملاجئ بين الصخور ، وأيا كان الامر فانه لم يمس وقت طويل حتى بدأت تظهر تغيرات متقدمة خاصة بالشعوب المتحضرة ، وعلى قدر ما نعلم في الوقت الحاضر كان يوجد في بادئ الامر « مستوطنة » في مكان القصر الذي شيد فيما بعد عند (كنوسوس) وكان يقع على أكمة فوق نهر (كيراتوس) الذي يجري فيه بعض المياه على مدار السنة ، وأصبح الموطن متسعا جدا على مر الزمن وفي الواقع لم يعرف حتى اليوم أي موطن آخر بهذا الشكل من البساطة في الجزيرة (١٢) وان كنت أظن أنه من المحقق فعلا أنه كانت توجد مواطن أخرى استوطنوها هناك .

وقد وصف أول موطن عند (كنوسوس) بأنه موطن العصر الحجري الأدنى وأعقبه العصر الحجري الوسيط ثم العصر الحجري الأعلى وانتشرت مواطن النوعين الآخرين إلى أماكن متنوعة في وسط الجزيرة وشرقا واتضحت الحركة المبكرة للحضارة بتطور هذه النماذج ، وكان الموطن الكبير في (كنوسوس) بمثابة المستودع للسكان تأخذ منه المواطن الأخرى التي كان معظمها صغيرا جدا ولم تكن الجزيرة ممهدة إطلاقا لاستيطان شعب بسيط كهذا، إذ أنها كانت كثيرة الجبال كما أن كثيرا من أراضيها مرتفعة جدا وكثيرا منها شديد الانحدار ، وفي فصل الصيف يوجد نقص خطير في المياه ، فضلا عن ذلك فالأنهار كلها صغيرة ويجف معظمها ، وللجزيرة أرض كلبشية مثل أرض شبه جزيرة (يقطان) في أمريكا الوسطى ولكن حجر الكلس في كريت مساميا جدا ولا تمكث المياه فوقه طويلا .

ولا يوجد بكريت وادي نهر يمكن التماهي في مقارنته بالوديان الكبيرة التي نشأت فيها أغلبية المجتمعات المتحضرة الأولى ، ومع ذلك فإن طبوغرافية الجزيرة غير العادية تمثل ظاهرة طبيعية تقدم بعض أوجه الشبه لوادي النهر ، أما أمريكا الوسطى فتقدم أوجه شبه أكثر قربا ، وتتألف هذه الظاهرة من عدد من السهول الواقعة بين سلاسل الجبال ، ويستعمل السهول كل عام طبقة جديدة من التربة الغرينية التي تجيء من منحدرات الجبال الشديدة الانحدار (١٣) .

(١٢) انظر مؤلف Pendlebury، صفحة ٣٥-٣٧ .

(١٣) انظر Allbaugh ١٩٥٣ صفحة ٢٨٦ .

ومعظم هذه السهول محاطة تماما بالجبال أو على الأقل بالأراضي المرتفعة وتنصرف المياه في مسام حجر الكلس (١٤) ، وقد نشأت هذه السهول بفعل تصريف المياه هذا ، ولم تتحول إلى بحيرات ، أي كان الأمر فأنها كانت تغمر بشكل كبير في الشتاء والرياح بالميثاء الجارية من الأمطار والثلوج الذائبة من الجبال ، وتصفى قليل من السهول عن طريق المجاري الصغيرة (١٥) التي يمكن أن نسميها تجاوزا بالأبهار إلا أن تأثير هذا يختلف اختلافا قليلا عن التصديق الذي يتم عن طريق التربة السفلى من حجر الكلس .

وتحتوى الجزيرة بأسرها على سهول من هذا النوع ويكثر عددها ولا سيما الصغيرة منها (١٦) التي توجد في شبه جزيرة (سيتيا) في الطرف الشرقي من الجزيرة ، وكثير من هذه السهول مرتفع جدا بحيث لا يصلح للزراعة إلا تلك السهول التي ترتفع إلى ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر والتي كان يستخدمها المستوطنون الأول ولا تزال تستخدم حتى الآن وتعتبر سهول (لاسيزي) و (سيسيرو) أكبر السهول المحاطة بالجبال ارتفاعا إذ يبلغ ارتفاعها حوالي ٣٠٠٠ قدم ، وهي على مسافة ٤٠ ميلا من الطرف الشرقي للجزيرة (وطولها ١٦٠ ميلا) وتبلغ من الشمال إلى الجنوب حوالي نصف هذه المسافة .

إن سهل (ميسارا) (١٧) أكثر من (لاسيزي) وهو يعتبر حالة خاصة ويقع في وسط الجزيرة من الجنوب بين سلسلة جبال (أيدا) في الشمال وسلسلة جبال (استروسييا) في الجنوب وتسمى الآن (كوميوس) وقد تم تصريف مياهها بواسطة نهر (ليثايوس) وهو أحد أنهار الجزيرة الكبيرة ويجرى من الشرق إلى الغرب ويصب في مياه في البحر ونهر (ليثايوس) هو نهر كريت الوحيد الذي يمكن أن يعتز النهر الذي نشأ في واديه المجتمع المتحضر، ولا وجه للمقارنة بينه وبين الانهار العظيمة التي نشأت المجتمعات الأخرى المتحضرة في وديانها، ومع ذلك فإنه من الممكن أن تكون مياهه القليلة نسبيا هي أول ما اجتذب المستوطنون إلى (ميسارا) وأن المستوطنين الذين وقفوا على طبيعة سهل (ميسارا) أو شلالتهم استطاعوا بسهولة أكثر من غيرهم أن يفهموا طبيعة السهول العديدة الصغيرة المرتفعة ومزاياها ، إلا أن هذا مجرد افتراض ، ويعمل ليثايوس

(١٤) كما جاء في مؤلفات (س ٥ - ٦) Pendlebury

(١٥) مؤلف Allbaugh صفحة ٧ .

(١٦) أنها صغيرة إلى درجة كبيرة بحيث لا تظهر على خريطة .

(١٧) مؤلف Pendlebury (صفحة ٥ - ٦) .

فى الواقع على تغيير طبيعة سهل ميسارا قليلا ، فهو يكسب السهل ميزة خاصة فقط ، وميسارا كالسهول الأخرى تتلقى كتلا ضخمة من التربة المحملة بمواد محللة من منحدرات الجبل المتاخم وهذه هى الميزة الحقيقية التى انتفع بها الفلاحون البدائيون .

ولقد كانت النتيجة أن اعتبر هذا السهل الآن كما كان كذلك دائما منطقة من أخصب مناطق أراضى كريت وأكثرها رخاء ونجاشا .

ان معنى هذا كله بالنسبة لعلاقته بأصل المجتمع المتحضر يصبح واضحا من هذه الحقيقة التى تقضى بأن جملة السكان فى العصر «النيلوثى» يعيشوا عن سهل «ميسارا» وغيره من السهول ، وأن سكان تلك الأزمنة كانوا يعتمدون بشكل أو بآخر على البحر ، وأن كانت هناك فى الواقع «موانى فان معظم المواطن كانت تبدو على أنها أقيمت فى أبعد مكان ممكن من البحر (١٨) » .

ولقد كانت السهول بمواردها التى يركن إليها السكان وخصوبتها هى التى أتاحت المأوى للشعوب الزراعية تحت ضغط ازدياد السكان الشديد .

والأسطورة لا تساعدنا فى تحديد طراز حضارة كريت فى الأصل ، وإن كان يوجد فى الميثولوجيا اليونانية قدر كبير عن كريت .

ومن المحتمل جدا أن تحتوى الميثولوجيا اليونانية على عناصر تكونت مرة أخرى من الميثولوجيا الخاصة بكريت - أى من أسطورة كريتية مجمعة كما كان الحال فى أصل مجتمع كريت ذاته ، إلا أنه لا توجد حاليا أية طريقة على الإطلاق لتبيان ذلك ، أن الميثولوجيا اليونانية تتعلق بكل أساطير الشرق الأدنى السابقة ، وهذا شيء غير عادى كما أنه شيء طبيعى تماما . ويظهر أن الميثولوجيا اليونانية تضم قدرا كبيرا من أصل أسطورة ما بين النهرين . ولا أجد ما يمكن أن تراه فى الأسطورة اليونانية والذي يبدو كأنه يصف الحالات الطبيعية الأولى فى جزيرة كريت ، أن أسطورة الخليفة يمكن تصورها على أنه فى البدء خرجت السماء من البحر أو أن العالم يحوطه حزام من الأوقيانوسات (١٩) ، يعكس أهمية البحر لسكان الجزائر ومجرد التفكير فى هذه الصلة أمر دقيق جدا .

(١٨) مؤلف Pendlebury صفحة ١٥ ، ١٦ ، ٣٥ ، ٢٧٧ .

(١٩) صفحة ٢٧ - ٣١ . Robert Graves — The Greek Myths .

وعلى أية حال فإن هذه الافكار لا يمكن أن تؤدي الى أكثر من أنه تؤكد أصل المجتمع المتحضر في الجزيرة وقد أقمنا فكرتنا على أساس أخرى. نستطيع أن نعتد عليها في تأكيد هذه الحقيقة ، وهي أن الاحوال عند قيام مجتمع كريت في الأصل كانت كما يلي :

الجزيرة صغيرة، وأرضها الصالحة للزراعة قليلة ، (على الأقل بالنسبة للبدايين) أما موارد مياهها في معظم الأماكن فقير كافية فكان من جراء ذلك أن أخذ سكانها يبحثون عن الاقاليم القليلة التي يمكنهم البقاء فيها ووجدوا أنه ليس أمامهم بعملهم هذا فرصة البقاء فحسب ، وانما للتقدم أيضا وكانت تربة انسهول تتجدد سنويا والرواسب الجديدة تعثرها أكثر فأكثر كلما قطع السكان الاشجار على جوانب الجبل (٢٠)، وتكسب حقولها ذاتها خصوبة دائمة كلما حل الفيضان السنوي ، وكان من المحتم أن يجد الناس طرقا لحماية أنفسهم من فيضانات فصل الربيع (٢١) ، والقط في الصيف وذلك بالاحتفاظ ببعض مياه الفيضان واستخدام العيون والآبار بشكل كامل (٢٢) ، ويوجد تماثل واضح بين هذه الحالة وحالة وديان النهر مع الاختلاف في مجرى النهر ، وليس ثمة شك في أن هذا كان الأساس المادي الذي قام عليه مجتمع كريت في الأصل الا أنه لم يبق على هذا الأساس بمفرده لأمد طويل ، ومن الواضح أن الموارد المجتمعة لسهول كريت لم تكن مساوية لموارد وادي النهر . وكانت جاذبية البحر كمصدر لقوام الحياة أكبر ، وربما أوضح من مشروعات الري التي هي من صنع الإبطال التي اتمتها مجتمعات الوادي في المراحل التي جاءت بعد ذلك. التاريخ ، وازدادت أهمية مرافئ البحر شيئا فشيئا كلما نمت حضارة كريت وسرعان ما أصبحت (لاسيزي) والسهول المرتفعة أقل من سواها كمراكز للسكان والثقافة الرفيعة (٢٣) ، وهذا لا يعني أن السهول قد هجرت بل على النقيض ظلت كثيفة السكان ومصدرا للطعام .

وتوجد سلسلة من التواريخ التقليدية المقبولة على وجه العموم - لتاريخ كريت في أدوارها الأركيولوجية ، أما عن الأصل في مجتمع كريت فلا يوجد شيء يساعد على مواصلة البحث ، ولهذا فاني أقترضه فقط وصول المستوطنين الأول في وقت ما قبل عام ٣٠٠٠ ق م. (٢٤) -

(٢٠) - أنظر Pendlebury

(٢١) باريس ١٨٦٧ صفحة ١١٧ G. Perrat — L'île de Crète

(٢٢) ستحدث عن أهمية هذه العيون والآبار فيما بعد .

Pendlebury (٢٣)

(٢٤) انظر الفصل الأول حاشية ٣٠ .

ولقد وجدنا بالنسبة لبعض مجتمعات وادى النهر أن المستوطنين الأول قد أنشئوا الاستحكامات البدائية بجوار الوديان ، ولكن ليس في داخلها قبل أن يتوغلوا في الوديان ذاتها ، ومن الممكن أن تكون المنشآت التي أوجدوها في مكان ما في وادى المكسيك قد خُبت المستوطنين الأول في أمريكا الوسطى ، وبهذه الطريقة قد قورنت تلك المنشآت التي سبق الإشارة إليها بالمنشآت الصينية الأولى في الاراضى المرتفعة في الصين الشمالية .

وتحتوى حالة كريت علي بيان واحد فقط يشير الى شيء من الصلة بهذا الموضوع ، وهو الممارسة الطويلة من جانب سكان العصر (الفيوليثي) للمعيشة في كهوف وملاجئ صخرية . (٢٥) ، ولا يوجد ثمة شك في أن الممارسة كانت نوعا من الزدة الى الاصل لأنه حتى في الاستيطان الأول عند كلوسنوس قد شيدت بعض الابنية من نوع ما وفي العصر الفيوليثي للتأخر كانت هناك منشآت في (فالسييتوس) في سهل ميسارا وعند (ماجارا) في الحسد الشرقي الأقصى من الجزيرة (٢٦) وربما في أماكن لا نعرف عنها شيئا ، وعلى هذا فاني أميل الى الظن بأن تلك الكهوف والملاجئ كانت مؤقتة عندما كانت الحالة الراحنة للمعيشة وعدم دوامها عاملا هاما في بقاء الناس ، وكان السكان لا يقيمون في مكان ما سوى جزء من العام وكانوا يستنفدون قواهم استنفادا تاما في أشياء أخرى غير للبناء وفي أزمئة أخرى كانوا يرتدون الى أماكن أخرى ومن بينها تلك الأماكن التي خُدت فيها البناء (٢٧) إلا أنه قد توجد بالطبع بعض الايضاحات الأخرى من الرجوع الى حياة الكهوف والملاجئ الموجودة وسط الصخور .

ان الدليل على التشابه أو الاختلافات بين بيئة الودى وبين غيره من المجتمعات المتحضرة هو أوضح ما يكون من ناحية الاستحكامات الأولية التي قام بها المستوطنون الأول ، فانهم ذهبوا بحثا عن الماء ، وحينما كانوا يستقرون في كل مكان كانوا يجدون فيه كميات كافية منه مهما كانت صعبوبة ظروف الإقامة هناك ، وكثيرا ما كانت وديان النهر هي الأماكن التي اختاروها ولم يكن في اختيارها ما يبعث على الدهشة حتى سهل ليدا يوس في كريت قد يكون مبدأ نحو مورد المياه الدائم الذي توصلوا

(٢٥) صفحة ٢٧٧ - ٢٧٩ .

(٢٦) Pendlebury صفحة ٤٤ - ٤٥ .

(٢٧) ليس من الحق أن الاستيطان في الطرف الشرقى من وادى النيل كان في منشآت

دائمة .

اليه كيفما كان من مصدر مختلف تماما ، وفي الواقع أنه من المحتمل كثيرا أن يكون ذلك المجرى القليل الأهمية قد أدى الى ذلك أكثر مما فعلت أنهار أمريكا الوسطى ذلك لأنه توجد أدلة واضحة على وجود مياه أمريكا الوسطى أكثر منها في كريت وأن المستوطنين من المزارعين وقد وصلوا الى الغابة المطرة فانهم لن يعجزوا عن رؤية امكانياتها حتى ولو كانت الامكانيات التي فرضت عليهم فرضا قد هالتهم في الوقت نفسه .

وكانت المياه في أمريكا الوسطى طليقة . كما كان من السهل التحكم فيها والارتفاع بها الا أنه لم يكن من الممكن الحصول على الارض الا بعد جهد كبير ، لقد كانت الارض عنراء في جميع الوديان وفي كريت ولكن تنظيم المياه كان يعرض مشاكل ذات صعوبة بالغة في حين كانت حماية الحقول في بعض الوديان ضد النباتات البرية مسألة تعكس مشكلة تطهير غابات أمريكا الوسطى ، وان كانت بنسبة أقل .

ومن الامور ذات الأهمية الخاصة أن عامل المناخ لا يعتبر من الشروط المادية لقيام المجتمعات الاولية المتحضرة وقد وجدنا في الفصل الاخير أن مجتمعا واحدا قد قام في مناخ معتدل في حين قامت المجتمعات الأخرى في مناخ شبه استوائي ، ويتضح الآن أن المجتمع الصيني ومجتمع كريت قد نشئا في مناخ معتدل وأن أربعة المجتمعات وهي المجتمع المصري ومجتمع ما بين النهرين والمجتمع الهندي ومجتمع الانديز قد نشأت في المناخ شبه الاستوائي ، وأن مجتمع أمريكا الوسطى قد نشأ في مناخ استوائي وأن الاستدلال غير مخطيء تماما دون تحقيق التفاصيل الاقل أهمية من هذه التفاصيل الخاصة باختلاف المناخ .

والواقع : لم يكن المناخ بهذه الصورة من عوامل أصل المجتمعات المتحضرة .

وأخيرا : فان طالب العلم يستفيد كثيرا من الجمع بين أوجه الشبه القريبة وأوجه الاختلافات الكبيرة في الدليل المادي ، ومن الامور البالغة الأهمية أن معظم المجتمعات المتحضرة الاولية قد نشأت في وديان النهر ولكن ليس ذلك مهما الى الحد الذي يستلزم عدم امكان قيام مجتمعات كهذه في أي مكان آخر .

الفصل
الخامس

الأديان
الجديدة

لقد عرضنا الآن الظروف المادية لاستيطان الأصل
للإنسان في مواقع المجتمعات المتحضرة الاولى .

وتشمل هذه النظرية من ناحية التفسير المادى
للتاريخ شرح أصول هذه المجتمعات ولكن هذا لايعنى
تفسيراً مادياً ، ففي الفصل الاول ذكرنا انه كان لكل
مجتمع متحضر اولى - أو حوالى الوقت الذى نشأ فيه -
دين جديد (١) وسنشرح فى هذا الفصل هذه الأديان ،
أن الديانة الجديدة كانت فى كل مرحلة تتكون من جزء من
العناصر القديمة بالإضافة الى العناصر الجديدة الهامة ،
ومع الديانة انتقلت قيادة المجتمع الى الاشخاص الذين
سرعان ما ظهوروا وأصبح الناس ينظرون اليهم ككهنة
وربما كآلهة فيما بعد .

وقد قامت كل ديانة كوسيلة لمساعدة الناس على
البقاء ، ثم أصبحت فيما بعد وبطريقة متزايدة وسيلة
لتوجيه طاقات المجتمع نحو غايات معينة ، ان بحثنا يبدأ
منطقياً بما تقرّر بشأن المجتمعات الاولى المتحضرة ،
وحاجاتهم الخاصة للماء ولحسن الحظ من الممكن أن نبين
ذلك بوضوح وبصورة قاطعة ، كانت الديانة فى معظم
المجتمعات فى أول عهدها بالحياة تهتم اهتماماً حيوياً
بحاجة المجتمع للماء ، كانت المياه بالطبع الوسيلة
الضرورية لبقاء المجتمعات ، وسنجد أن غرض الديانة
الرئيسى فى المجتمع المصرى ومجتمع العراق ومجتمع
أمريكا الوسطى ومجتمع الانديز وأيضاً المجتمعات
الهندي والصيني ، ومن المحتمل كثيراً المجتمع الكريتي
هو أن تحصل على الماء وترسخ فى عقول الناس
العبادة المناسبة الضرورية .

(١) جاء ذكر ذلك فى الفصل الاول .

كان كل من الاله «أنكى» فى العراق (٢) و «أوزيريس» فى مصر (٣) يقومان على الماء وما فعله كل الاله منهما - للمحصولات أو لزيادة الأشياء - فعله فى الأرض أو على الأرض ، كان كل الاله منهما من الآلهة الخالقة كان « أنكى » الاله المحصولات كما أنه كان الاله المراعى وأشياء أخرى ، أما « أوزيريس » فكان الاله الحنطة على الخصوص ، وجاء علم اللاهوت المصرى بتفاصيل حاذقة عن كيفية جلب أوزيريس الحنطة الى الوجود وكيف أنه كان هو ذاته «القمح» والماء على السواء ويعكس أنكى وأوزيريس الاختلاف بين مياه مواطنى هذين المجتمعين ، وتؤكد الاساطير أن أنكى كان الاله الماء العذب وأن سكان ما بين النهرين كانوا يعرفونه تمام المعرفة كما كانوا يعرفون الماء المالح الذى يوجد فى الخليج العربى (الفارسى) (٤) . كان أنكى الاله ماء النهر ولكنه بالمثل كان الاله مياه الآبار والينابيع وماء المطر على السواء ولما كانت الأمطار قليلة بمصر فقد كان بها الاله للمطر (من كوبتوس) ولكنه لم يكن الاله الماء العظيم .

كان « أوزيريس » الاله ماء النيل فى أضيق معانى الكلمة وعلى وجه الخصوص فعندما تقول «أوزيريس» تقصد مياه النيل (٥) وكان «أوزيريس» فى الواقع هو الفيضان لقد كان يحل فى الفيضان وطافيا فيه ، وكان المصريون ينتظرون وصوله السنوى بشمور سابق مشبع بالفرح ، أما فى الأغراض الراحنة فانه من المهم جدا أن يقتفى أثر «أنكى» و«أوزيريس» كليهما وارجاعهما للماضى البعيد فى تاريخ مجتمعيهما المختصين بهما . وفى الواقع قاننا قد نرجعهما ثانية الى أصليهما . ان « أنكى » من حيث قدرته كاله محلى ، وجميع آلهة مصر وما بين النهرين العظيمة ، ومن غيرها المجتمعات الأخرى كانت ذات أصول محلية كان ينتسب الى إيريد التى نعلم أنها كانت أقدم مدن العراق وقد وجد معبد هناك بين أقدم البقايا وهو غالبا معبد أنكى حقيقة وهو النموذج الاصلى البسيط لجميع معابد ما بين النهرين وربما كانت توجد أيضا علامات عند (آل عبيد) ، وهناك دلائل على أن « أنكى » كان يعبد هناك وعلى ذلك فانه يبدو كأنه كان الاله من آلهة المجتمع الأصلية على الأقل ، بل ربما كان الاله المهم الوحيد (٦) .

(٢) المقارنة الفعلية للاتساق القديم صفحة ١٤٦ - ١٤٨ (جاكسون)

(٣) هذه فرانكفورت صفحة ١٩٠ - ١٩٥ .

(٤) ذكر «ليتر» ان بعض فيضانات ما بين النهرين من المحتمل ان تتجاوز مياه الخليج .

(٥) صفحة ١٩١ Frankfort: Kingships

(٦) اترسم هنا «آراء» (فرانكفورت) فى « مولد الحضارة فى الشرق الأدنى » .

ان أوزيريس كما فى اللاهوت المصرى الذى يرجع الى عهد ممفيس ويعتبر وثيقة خاصة بتوحيد مصر ، وضعها ميئا الفاتح الذى أتى من الجنوب بعد عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، ومن الواضح حقيقة ان أوزيريس قد جاء من الجنوب مع ميئا وقد اعتبر الها بارزا للمجتمع فى عاصمة ميئا الجديدة « ممفيس » ويوجد سبب قوى يحمل على الظن بأنه قبل قيامه فى ممفيس كان أوزيريس يعتبر الها محليا وظل يحتفظ بمكانته هذه من أول التاريخ المصرى الى آخره فى أسرة ميئا فى أيبديوس وكانت قد وسخت أقدماه لمدة طويلة قبل وحدة الوجهين (٧) وذلك يعود بأوزيريس الى وقت قريب من أصل المجتمع المصرى بدرجة هامة ، وإذا كان تاريخ أوزيريس يرجع فى الحقيقة الى أصل المجتمع المصرى فانه ربما كان يعد فى ذلك الحين زعيما (ملكا أو الها - ملكا لأن جميع الملوك المصريين كانوا آلهة) وهكذا كان أحد أولئك القادة الذين ساهموا بنصيب فى تأسيس المجتمع ذاته ، وعلى قدر ما استطع ان احكم ان ثمة دليلا طفيفا غامضا بأن أوزيريس كان من أصل أسبوى أو من أصل إفريقى طبقا لطاقته كمياء تجلب الحصب ، وإذا كان أوزيريس من أصل أسبوى فان من المحتمل جدا أن يكون قد جاء مع سكان نقادة رقم (٢) وهم آخر من وصل الى مصر وأسهموا فى تكوين المجتمع المصرى ، وإذا ما كان أوزيريس من أصل إفريقى فلا بد انه كان قد جاء الى مصر قبل سكان نقادة (٢) وربما كان قد جاء مع المستوطنين الزراعيين الذين جاءوا فى زمن متقدم جدا (٨) . وربما كان أوزيريس من أصل مزدوج حتى برغم مقدرة كاله للماء .

وفى الواقع كان الرى فرضا دينيا فيما بعد هذا بزمان طويل ، ولكن هذا الفرض الدينى كان عرضيا وليس جزءا أصليا من العبادة ، كما أنه لم يكن موضوعا من موضوعات الطقوس الرسمية أو العقائد .

اما بالنسبة لمصر فان المسألة أقل ببساطة بكثير عما هو الحال فيما بين النهرين . فقد بدأ الناس الذين جاءوا الى مصر حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد فى نزح الماء وتصريفه وتجفيف المستنقعات ، وعلى ذلك اذا كان أوزيريس الها للماء فانه بهذه الصفة كاله للماء ومن أصل سابق ، كان من الطبيعى أنه لم يكن بحاجة الى شيء من ذلك القبيل على الإطلاق .

وإذا كان قد جاء ، بهذه الطاقة ، مع سكان نقادة (٢) فانه لا يوجد احتمال كبير بأن ضبط المياه كان مطلوبا فى عبادته ، وذلك بحسب

(٧) Baugmartel: The Cultures of Prehistoric Egypt لندن ١٩٢٧ صفحة ٤٠.

(٨) الفكرة الثالثة بأن أوزيريس قد جاء من أصل أسبوى فكرة قديمة .

المعلومات الموجودة حاليا ، وانه اذا كان مطلوبا فان هذا من قبيل الصدفة
الخارجية (٩) .

لذلك فاني اظن أنه ينبغي أن ينظر الى ضبط المياه في مصر ، وفيما
بين النهرين كمشروع عملي سرعان ما فهمت الحاجة اليه ، أما الرى
فى معناه الاصطلاحي الأوسع من ذلك على أية صورة من الصور فهو
ليس الرى الذى نبحثه هنا . ان الرى بذلك المعنى الشامل لم يتوصل
الانسان اليه الا بعد عدة قرون عندما كان المجتمع مضطرا الى أن يوسع
اراضيه لأحكام ضبط السكان الذين كانوا يأخذون فى الزيادة ، وقد
تجاء ضبط المياه الاولى ، بلا شك فى الاصل ، بطريقة طبيعية الى حد كاف
للتعوب التى كان اهتمامها بموارد الماء عظيما بدرجة انها دخلت فى
اديانهم بطريقة هامة ، ولكن الاديان قد وضعت الشروط التى تتوافر فى
صفات الماء المقدس السحري النافع . ولا بد أن العقيدة كانت تقضى
باعتبار الماء فى ذاته ألها ، وأنه كان عنصرا فى الالهية ، او ان الها منحها
ورعاها او اى معنى من هذه المعانى ، وكان على الناس أن يشغلوا أنفسهم
بما يصلهم من ماء ، وأن يستخدموه بأفضل طريقة مفيدة وبأسلم طريقة
ممكنة ، ان مجتمعات الانديز والصين والهند وأمريكا الوسطى ، قد
تعتبر كمجموعة أخرى من المجتمعات ذات العلاقة المتصلة . وربما كانت
ملاقتها الخاصة ذات أهمية حقيقية عظيمة ، وهى تشترك معا فى الرمزية،
لقد كانوا جميعا يشتركون فى رمزية الحية والتنين أو (الحية-التنين)
معا كرمز للماء ، وهناك حيوان كالقط يرمز للأرض (١٠) وهذا الرمز
الأخير على جانب من الأهمية فى مجتمع الانديز ، وأقل أهمية فى مجتمع
أمريكا الوسطى ، وذا معنى مشكوك فيه فى المجتمع الصينى . ولكن اذا
كانت الرمزية العامة ليست هامة فى ذاتها فانها تبرهن على أنها كانت
لها أهمية عظيمة هنا فى القاء الضوء على المعتقدات الأولى على الماء والأرض
فى الصين ، إلا أن الشيء الجدير بالاعتبار عن هذه المجتمعات الأربعة
هو التشابه الإيماسى بين عناصر (الماء والأرض) فى ديانتها والعناصر
ذاتها فى ديانة ما بين النهرين والديانة المصرية ، تشابه قد يهتم القارئ
بمعرفته . وإلى جانب هذا التشابه يسير طبعيا عنصر عسدم
التشابه فى مجتمع الشرق الأوسط ، فإنه أعظم فى حالة مجتمع الانديز

(٩) Frankfort: The Badarian Civilization لندن ١٩٤٨ - ص ٤٨ .

(١٠) موضح الوترية العامة للمجتمعات فيما بعد أشهر هذه المجتمعات أو اطلقها
شانا .

أكثر منه في المجتمع الصيني ، والمجتمع الهندي ومجتمع أمريكا الوسطى .
ولهذا السبب ندرس مجتمع الاندیز في البداية .

ان أول ما نلاحظه عن مجتمع الاندیز ، هو أن الری الحقیقی يشغل
المسکنة ذاتها التي سيشغلها فی تاریخ مصر والعراق . ویأتی الری من
الناحية الزمنية فی مجتمع الاندیز متأخرا عن المجتمع المصری أو ربما كان
قد جاء بعد ذلك التاریخ بمسماة سنة علی الأقل بعد نشوء مجتمع
الاندیز فی الاصل (١١) ومن ثم فانه لا یمکن أن یكون قد شغل مكانه فی
العقيدة الدينية الأصلية (١٢) .

ولهذا كان یوجد طبعا نوع من التحكم فی المياه فی مجتمع الاندیز
منذ زمن قديم ، ربما من وقت نشوء المجتمع ، ولكن فی حالتی المجتمع
المصري والعراق لا نجد أى شيء فی الوصفات الدينية .

ولما كان مجتمع الاندیز يتميز بأنه المجتمع غیر المتعلم الوحید فانا
لا نجد فی حوادثه التي جرت فی أيامه الأولى المعرفة المتأخرة الثمينة التي
وصلتنا من الأدلة والشواهد المكتوبة التي جاءتنا من العصور المتأخرة عن
مجتمع ما بین النهرین وعن المجتمع المصری وبدرجة أقل من ذلك عن المجتمع
الصینی ومجتمع أمريكا الوسطی .

وایا ما كان الامر فمن الغریب الی درجة كبيرة كما أنه من العناية
الالهية الی أقصى حد أنه قد وصلنا طرف من التاریخ من نوع آخر ، وهذه
السجلات ترجع الی تاریخ سابق لای سجلات یمکن مقارنتها اذا استثنينا
المعبد الاول ، (ایردو) فی العراق الذی لا یقدم لنا بحال من الاحوال
بیانات محكمة یوثق بها کالبیانات التي نجدھا فی سجلات مجتمع الاندیز .
ان تاریخ مجتمع الاندیز یمتدحوى علی ما یختص بصناعة نحت التماثيل ،
وما یقوم مقام المواضع المقدسة فی المعابد والفخار الذی یحمل نقوشا علی
صورة الحيوان أو تشبهه الحيوان أو الانسان الذی کان یمثل الامور المقدسة .
كانت جميع هذه الدلالات تبین المعبود الذی کان علی شکل قط وکان
بقعره مجتمع الاندیز باعتبارہ الاله الاصلی . وکانت صناعة التماثيل
تبین أن وظيفة الاله الرئيسية التي فاقت الوظائف الأخری هي تلك التي
تتعلق بالماء (١٣) ، ولكن الأواني التي كانت ترجع الی زمن متقدم كثيرا

(١١) هذا التاریخ غیر صحيح تماما .

(١٢) نیویورك ١٩٥٢ ص ١٩٩ . Strong and Evans .

(١٣) كانت توجد صور علی الوعاء علی شکل نصف وجه القط وبقية الوجه علی شکل
الحية .

عن مصر كانت تدل على مهارة أكثر في صنعها ، كما كانت أوضح بكثير .
وقد وصفها مكتشفها « رغائيل لاركو » على أنها (الحية القط) (١٤) . كما
وجد قدرا على شكل بشرى ووجه قط ووضعت الصورة التي تمثل القط
في هيئة البشر ، وكان الحجاب يتكون من حية كاملة ورأس حية أخرى
تبرز من الفم البشري (١٥) . وتستطيع أن تقرأ رموز هذه الحية كأنها
نقوش مصرية مقدسة أو كتابة مصرية على الصورة التي تكاد تكون
كالآتي : الحية التي على صورة جلبب الإنسان هي الماء على وجه الأرض والانهار
على وجه التخمين ، . والحية التي تبرز من فم اله الأرض هي الماء الذي يخرج
من الأرض ، . أي مياه الينابيع والآبار (١٦) . ولا يمكن أن تكون غير هذا
في الواقع لأن المطر نادر على ساحل الانديز وليس مفيدا للناس (١٧) .
ومما يبعث على الدهشة ، ذلك التشابه مع الفكرة المقابلة في العراق في
عصوره الأولى ، أن « نكتي » اسم معبود المياه فيما بين النهرين كلمة تعني
حرفيا « الأرض » . كما يقول جاكسون : « من الأضخى تأتي الحياة التي
تعطي المياه الحلوة ومياه الآبار ومياه الينابيع والانهار ، وفي الأزمنة
القديمة جدا كانت تعد هذه المياه التي تطوف في الأرض الجديدة هي
ما يظهر جزءا من وجودها ، وهذه ناحية من النواحي العديدة التي يرى
منها المعبود (١٨) » . كانت الأزمنة التي تشير إليها قدور الانديز هي
الأزمنة الأولى ، كما لاحظنا والتي يقول « جاكسون » عنها أنها تبدو كوصف
جيد لشعب الانديز الأولى ، كما كان عندما بين النهرين في باديء الامر
وما كانوا يشعرون به نحو الماء والأرض .

أما معبود المجتمع الانديز فيجب أن يكون اله الزراعة (١٩) . في
العصر الكوينيك كما يصفه « لاركو » وكان في هذا يشبه « أوزيريس »
أكثر مما يشبه « انكي » لأنه بينما كان يحتفظ بعمله المائي (وليس المائي
الأرضي) قديما طبيعة ثانوية فيه من الخلق والطفنة في ابداء المشورة .
ويوجد شبه آخر بين المجتمع الانديز والفكر المصري يظهر في الشكل
الذي يجمع بين (القط — والضفدعة — والبنات) وكان هذا الشكل له

(١٤) ص ١١ — Las cupisniques — Larco .

(١٥) ٢١٢ — ٢١٣ المرجع السابق .

(١٦) المرجع السابق .

(١٧) ليس هناك ما يفيد بأن مجتمع الانديز في الأزمنة الأولى كان يتم بالمطر .

(١٨) ص ١٢٦ .

(١٩) راجع ص ١١٤١ — ١١٤٢ .

حلاقة بتسرب المياه وترشيحها إلى النباتات (٣) ، ويشبه هذا كثيرا ما كان يفعله أوزيريس من ترشيح الماء للقمح ، وقد يرمز هذا الشكل الانديزي إلى عمل خاص يقوم به القط المعبود أو قد يمثل شيئا آخر يمكن تمييزه عن القط-الاله ، ولكن أى تمييز يكون مجرد اختلاف بسيط بينهما .

أما الفخار الجنائزى الذى يرجع إلى عصر متأخر من التاريخ الانديزى فيوضح انه كان من المفهوم فى ذلك الحين أن مياه النهر قد جاءت من الجبال فى شرق أراضي المجتمع (٤) وقد يكون هذا الإدراك متصلا بقيام الاعتقاد بالاله الاسمى الذى كان يتخذ مقره فى الجبال (٥) .

وكانت للقدور الجنائزية الأخرى تبين أن الماء كان موقرا مكرما أو على الأقل كان يعتبر كمصدر لمورد المجتمع من الأسماك (٦) . كانت هذه الفكرة واضحة فى الواقع وضوحا كافيا وكانت مشتركة فى مجتمع الانديز ومجتمع العراق ولكنها كانت ذات أهمية خاصة للمجتمع الأول الأنديزى وذلك لأنه كان قد ورث إلى حد ما نصيبا فى الاعتماد على السمك أكبر من نصيب البدائيين الذين أقاموا قبيلة على الساحل الباسيفيكي وعاشوا قبل عصر الزراعة ، ومن المستحيل علينا أن نبت فيها إذا كان مصدر الماء فى الجبال أو الاحترام للجبال والمعبود الاسمى المقيم فيها ، قد كان جزءا من الاعتقاد الذى كان يسود مجتمع الانديز فى أيامه الأولى أو لم يكن جزءا من ذلك الاعتقاد ، ولكن يوجد بعض ما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان كذلك حتى وإن كانت الأوانى المعروفة من أقدم العصور والتي تحمل هذه الأفكار ترجع إلى ٨٠٠ سنة بعد تلك الأنواع من الفخار (٧) .

وربما تكون مثل هذه التضاريس الطبيعية الخاصة بجبال الانديز قد حملت على الاعتقاد للسائد ، وحملت على التحول عن معتقدات مجتمعات الوادى الأخرى . ولكن تعدد انهار الانديز لا يشاهد بوضوح بين تضاريس طبيعية كهذه ، واذن فربما لم يكن هذا الاختلاف عاملا مؤثرا عند قيام

(٢٠) هنود أمريكا الجنوبية ص ١٧٢ .

(٢١) سترونج وإيفانز ص ١٩٣ ، ١٣٤ .

(٢٢) ١٩ (١) ص ١٥١ .

(٢٣) انظر سترونج وإيفانز ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢٤) شيكاغو ١٩٥٠ ص ١٢٣ .

مجتمعات الوادى فى الاصل . وكانت مصر ، الى حد ما ، حالها غير عاديتين . هذه الحالات المختلفة طالما كان نهرا هو النهر الوحيد الدائم . وربما كان « الكرخ » معروفا لسكان العراق الاول ، كما كانت بعض مجارى الانهار الاقل شأنا منها معروفة هي أيضا وكانت تجرى من منحدرات ايرانية الى الخليج الفارسى ، ولذلك فربما كان الفرات فى الحقيقة واحدا من الانهار العديدة التى حدث ان اتخذها المستوطنون مقرا لهم فى بداية الامر . اما الروافد القليلة الاهمية التى تصب فى الاندوس والتى تنحدر من « كرثار » وتدخل النهر من الغرب فانها على الأقل أكثر بكثير من وديان النيل الجافة ، فى حين ان الروافد الكبيرة تتدفق شرقا الى البحر المتوسط . ولكن حتى ولو ظل وجودها مجهولا لأمد طويل فان نهر مهران العظيم ربما كان شقيقا له وسرعان ما عرف هو الآخر . وتوجد كذلك غدة أنهار فى ييزو الشمالية ، ولم نقف حتى الآن على معرفة النهر الذى اختاره المستوطنون قبل سواء ، إلا أنه من المحتمل أن يكون هناك نهر معروف قبل غيره . (٢٥) وقد يكون نهرا غير ذى أهمية كبرى . ولا بد أن يكون لتلك الأنهار بعض التأثير على عقول المستوطنين على الأقل بالنسبة لانتشارهم من شواطئ النهر الاول الى شواطئ الأنهار الأخرى التى عرفوها فيما بعد .

لذلك فان تفرد النيل يعتبر ظاهرة طبيعية خاصة بين الخصائص الطبيعية التى تؤثر على مجتمعات الوادى الأربعة التى ذكرناها ، والتى ينبغي أن تجتذب اهتمامنا . وهكذا فانه لا يدهشنى مطلقا اذا كان تفرد النيل سببا فى أن عبادة المياه المصرية قد تركزت فى الفيضان السنوى الواحد ، والتى كان على المجتمع المصرى ان يمارسها فى اجماع تام . وربما كان لهذه الخبرة العامة المفردة تأثيرها الخاص على الفكر الاول للمجتمع فى زمن باكر جدا مما قاد المجتمع للشعور نحو الماء شعورا مختلفا . بعض الشيء عن الشعور الذى نشأ نحو الماء فى المجتمعات المتحضرة الاولى التى نشأت فى وديان الأنهار العديدة .

وسنذكر شيئا قليلا آخر حول هذا الموضوع عند النظر فى حالة المجتمع الصينى .

وتوجد سجلات أدبية وصناعية حول المشاعر الدينية الاولى للمجتمع الصينى ، وان السجلات الصناعية ذات طبيعة تشبه على وجه العموم طبيعة مجتمع الأنديز ، ويبدو لنا لأول نظرة أن البيانات حول

(٢٥) على الرغم من أن نهر شيكاغو يعتبر قديما جدا إلا ان البقايا التى وجدت هناك لا تعتبر أقدم البقايا على أية حال .

المجتمع الصينى ينبغى أن تكون أفضل من البيانات عن المجتمعات الثلاثة التى درست حتى الآن ولكن هذا غير صحيح ، ان كل ما وصلنا عن المجتمع الصينى قطع عدة من البرنز ، وفخار قليل ومرمر وحجر البشم وما الى ذلك من أعمال الحفر والنقش ، قد جاء من زمن متأخر عن تاريخ المجتمع الأنديزى ، وربما كانت غامضة نسبيا لانها جاءت متأخرة .

اما بخصوص الادب فانه وان كان يعترف المرة بعد الأخرى بأنه يبين أصل المجتمع فان المواد الأولى التى يشتمل عليها ذلك الأدب كانت مكتوبة قبل ذلك بالقرن عام ، أو ربما أقدم من ذلك وقد فقد الشرح معظم قيمته ، وفى الواقع ان الأدب ليس مفيدا هنا بسبب الشرح ولكنه مفيد للتاريخ الذى يقدمه عن سر بقائه ووجوده حتى الآن .

ولكن مرور الزمن ليس مصدر التعب الحقيقى فى هذا الأدب الصينى ان الأدب ينتسب الى الدورة الثانية (٢٦) من تاريخ المجامع الى التغيرات العميقة التى تحدث عندما يضمحل المجتمع ثم يعود وينتشر عند الانتقال من الدورة الأولى الى الثانية فتقيم ستارا غير شفاف بين أحوال الدورة الأولى وكتابات الدورة الثانية (٢٧) . ولقد توافر الأدب بكثرة فى الدين والميثولوجيا ، كما حدثت أعظم التغيرات فى هذه الأمور بين هاتين الدورتين . ان الأدب يصف الديانة فى الدورة الثانية ، وفى تلك الديانة توجد بقايا من الدورة الأولى .

ويمكن القول إجمالا أن الأدب يبين ان الديانة الصينية فى الدورة الثانية لاتزال تمجد الزراعة وترفعها الى الذروة من الأهمية . ان اشياء كهذه كالاحتفال الذى كان يقام فى الربيع «لتدشين الأراضى» ويحضره جميع أفراد المجتمع من الإمبراطور وكبار موظفيه الى رؤساء كل وحدة محلية الى كل فرد من أفراد القرية إنما يمثل تماما المجتمعات الزراعية المتحضرة . ولكننا نريد ان نعرف شيئا بنوع أخص عن الماء وتوجد اشارات تفوق الحصر عن أهميته فى العدد الضخم من القصص التى تدور حول التنين والحية (٢٨) ، ولكن كثيرا من هذه الاشارات قد أعيد تفسيرها لتحقيق أغراض جديدة فى الدورة الجديدة ويمكن أن تصبح مضللة وهى فى الواقع كذلك . ومع ذلك فان شيوعها علامة على أهمية الماء ذلك لأنها تنم على الدوام عن معناها السابق فى طيات تفاصيلها .

(٢٦) شرح التطور الدورى للمجتمعات المتحضرة فى الفصل الأول .

(٢٧) لا توجد اية مادة أدبية للدورة الأولى Greel Studies

(٢٨) انظر ص ٢٣٧ - ٢٣٩

ونسوق مثلثين، ظاهرين من قصص الجماعة عن الاحتفالات التي كانت تقام في الربيع في امارتي « لو » و « شنج » (٢٩) -

كان احتفال (لو) عبارة عن «رقص التنين» الذي يبدأ مع الراقصين في مياه نهر «بو» فعلا ، ثم يبرز الراقصون على الشاطئ (٣٠) . وكانت توجد أنواع رقص أخرى للتنين . ولكن كان لاحتفالات «لو» و «شنج» أهمية خاصة - لأنها كانت الدليل الوحيد الواضح الذي اعرفه في تاريخ الصين الذي يبين أن فيضان النهر ، كان من المعتقد أنه ذو فائدة ، وسوف نعود فيما بعد الى هذا الموضوع -

وتبين أن اهتمام الناس من الناحية الشعبية الدينية توضحه هذه القرايين لاله الآبار . كما كانت توجد أيضا ذبيحة رسمية للمطر يقدمها للباطرة والملوك في الصيف ، وهو الفصل الوحيد الذي تحصل منه شمالي الصين على كمية محسوسة من المطر . كما كان يوجه أيضا معبودان بين الآلهة الرسمية هما شخصيتان غامضتان خياليتان لا تلقيان أية عناية خاصة يسميان : (سيد المطر) و (كونت الزرع) وهذا هو كل ماورد في التراث الأدبي . قاله (اليابسة) : « هوتو » ، يشبه تقريبا الأرض كما وجدناها في مجتمعات ثلاثة أخرى . -

لقد نما « هوتو » كثيرا جدا حتى أصبح معبودا اقطاعيا او على الأقل مياسيا اقليميا وان كان يحمل في (٣٢) ماضيه بعض التعقيدات التي قد تخفى شيئا مغائرا -

وقد يكون هذا الشيء أهرا يعتد به في الأدب الذي وضع بعد ذلك في الزمن الذي تعنى به من آلاف من السنين ، ومهما يكن الأمر فسنستوصل الى شيء أكثر من الآثار الصناعية حتى ولو لم تكن تلك الآثار أقدم من التراث الأدبي ، إذ أن البقايا القديمة كانت تسبق ذلك بقرون معدودة فحسب ، والسبب الرئيسي الذي يجعل هذه البقايا ذات فائدة أعظم ليس فيما اعتقد هو قدم هذه البقايا عن الأدب ، وإنما يرجع السبب الى زيادة عدم تأثر خبرة الصانع عن الكاتب في المسائل النظرية الإبداعية والمجردة لعلم اللاهوت في الدورة الثانية ، وفي الرموز الخاصة بالرعد والمطر (٣٢)

(٢٩) نسبت احتفالات الربيع الى الامازات اقطاعية لأنها سجلت في زمانها .

(٣٠) قصة لو مأخوذة من كتابات تونغوشوس -

(٣١) انظر بعض رموز التخصيب في الصين القديمة - برنهارد كارلجرن -

(٣٢) انظر Groel : The Birth of China

وفى الانتقال الى جو العمل الحرفى.، اذ ان أول ما يلفت نظر الباحث هو التنين المائى أو الحية ، ولكن معانى هذه الرموز معروفة تماما . أما موضوع الاهتمام الخاص وأهم شيء فى هذه الرسوم ذاتها فهى التى يصورها النهم الذى يأكل كثيرا أو الذى يبدو غالبا فى جميع الاعمال البرتزية الموغلة فى القدم (٣٣) . وعدد صغير من قطع الممر (٣٤) كما كانت منقوشة على كثير من أحجار البشم وان كان ذلك أقل انتشارا الا أنه كان لايزال ذا مغزى وأهمية (٣٥) .

أما الشكل الصينى (تى اورتى اى) فهو تقسيم غريب لوجه الحيوان الى جزئين . كل جزء على جانب . ويمتد الجانبان عادة على السطح المنحنى لى اناء من نوع ما ثم يتصلان معا ويظل كل جانب منفصلا فى المنتصف عند فم الحيوان وأنفه (٣٦) . وفى بعض الاحيان يكون الشكل مجرد رأس بفك أدنى أو بدون يد « وكان هذا الموضوع مثار حيرة لا نهاية لها بين العلماء المتخصصين فى الدراسات الصينية (٣٧) » .

ولتوضيح ذلك ينبغى أن نرجع الى فكرة عرضها « لوفر » منذ نصق برون تقريبا وتقضى بأنه ينبغى النظر فى ضوء الرب (٣٨) . وفى نظرى أنه كان معبودا أو الها فى الاصل قبل أن تصلنا لبة نماذج عنه بزمان طويل حتى تلك التى وصلتنا منذ أقدم العصور ، وأظن أن ذلك المعبود كان قريبا لمعبود الأرض فى مجتمع الأنديز الذى وصلنا شيء عنه ، كما أنه قريب للمعبود الأقل أهمية منه ذلك الذى ستعرف شيئا عنه فى مجتمع أمريكا اللوسطى - ولاشك فى أنه شيء عثير للمواطف ويرجع تأثيره للتشابه القريب الذى وجد بين التطورات الخاصة بالوهية الماء والوهية الأرض فى مجتمع الأنديز ومجتمع العراق . أما التشابه الجديد بين المجتمع الأنديز والصينى فيعتبر أمرا جوهريا من عدة نواحي . فمن ناحية فن التعبير والدلالة بتقسيم وجه المعبود الى قسمين (٣٩) ومن ناحية فات تقسيم الوجه فى معبود الأنديز لم يذكر من قبيل ولكنه يرى بوضوح فى الأشكال التى عرفت عنه . للآن ، ويبدو أن التقسيم فى حالات الأنديز كانت لغرض

(٣٣) تاريخ موجز الحضارة الصينية .. بدولهم ..

(٣٤) صفحة ١٤١ شكل ١٤ Fitzgerald ..

(٣٥) صفحة ١٢٤ - ١٣٣ أشكال ٢٣ - ٢٢ المرجع السابق -

(٣٦) ص ١١٥ - ١٦٦ Greel

(٣٧) يظن « كريل » أنه « فى بعض الاحيان يمثل حيوانا أو آخر »

(٣٨) ص ١٨٥

(٣٩) يعتقد « يوستوفسكى » أن الشكل يرمز الى تفرع من فروع

التأكيد على ذاتية « الأمير - الكاهن » والمعبود أو العمل الوثيق الذي يعبر عنه « الأمير الكاهن » .

أما جعل الشكل مرافقا لمواضع التنين الثانوية ومواضع متقار الطيور ورعوسها الى غير ذلك من المواضع فأقل أهمية . والاهم من ذلك كله هو أن معبودات المجتمع الانديزى وفي مقدمتها معبود القط كانت قناعا يرتديه الكهنة وكان يرمز الى هذه الآلهة .

وربما كان المعبود فى المجتمع الأول على شكل قط ، وتدل الأشكال المديدة على أنه كان على صورة قط ، والاهم من ذلك أنه لا يوجد مايشيت انه كان الها هاما كانكى أوزيريس واله القط الذى عرف فى مجتمع الأنديز ، وأنه كان يصور على أشكال شتى منها الحيات والتنين ، وأنه كان المعبود الذى يعتبره الها للماء مما يدل على أن الصين كان لها اله ماء فى أقدم عصورها كما كان للمجتمعات الثلاثة الأخرى .

وأخيرا ينبغى أن نرحب بالفكرة القائلة بأن اله الماء لم يكن يهب ماء المطر وماء الآبار وماء الينابيع فحسب بل انه كان يهب ، ماء النهر أيضا ، وهذا يرجع الى أن الصين الشمالية كانت تفقد مياه أمطارها تدريجيا فى وقت نشوء المجتمع المتدين فى الأصل ، ومهما كان الأمر فإن الأساطير التى ترجع للدورة الأولى تبين بوضوح أن فيضانات النهر الأصفر كانت تبدو للخيال الشعبى المألوف كشيء خطر أو كشيء يتطلب إقامة الحواجز والسدود وتطهير النهر ، أما « يو » الذى يعد أعظم الأبطال الذين وردوا فى الأساطير ، وربما كان قائدا للمجتمع فانه غالبا ما اكتسب شهرته بحفر ترعة يتجمع فيها فيضان النهر . فكان هذا العمل الأول من نوعه ، وهو تجمع مياه الامطار فى ترعة ، وهذا لا يعنى على الإطلاق أن الصينيين لم يشعروا فى وقت من الأوقات بأنهم مدينون لمياه الأنهار ، وانما لا يوجد أى اثر اطلاقا عن أى شيء يشبه ذلك الاحترام غير العادى والمتزايد الذى كان يقدمه المصريون للفيضان السنوى الذى كان يجود به غلبيهم نهرهم الوحيد ، وكانوا يعتمدون عليه اعتمادا كليا ، ولهذا السبب كان معبودهم العظيم « الأرض - الماء - النبات » المعبود أوزيريس هو الفيضان الذى كان يحيى سنويا لتعصيد الجنس البشرى وتوفير مقومات الحياة له ، أما النهر الأصفر فلم يكن ، طبعا ، نهرا واحدا بالنسبة للصينيين كما كان النيل بالنسبة للمصريين . كان للنهر الأصفر روافد داخل الاراضى التى يقيم فيها المجتمع ، وفى الواقع ربما بدأ المجتمع على ضفاف تلك الروافد ، كما نشأ على ضفاف النهر الرئيسى . وقد بين هذا أن أقدم تاريخ لايزال

باقيا لفيضان جيد من فيضانات الانهار ، هو للانهار الصغيرة ، أما « حزن الصين » كما لايزال يسمى فيضان النهر الاصفر لليوم ويبدو أنه لم يكن من عمل المعبود المحسن .

ويشاهد وجود الماء وعلاقته بالمعبود بكثرة في الهند ، ولكن جميع الشواهد ترجع تقريبا الى زمن متأخر ، ويتألف جزء عظيم منها من أشياء عصرية باقية ، ويوجد قدر معين من الأدلة تتعلق بالمناخ العام في الهند الذي يبرز فيه هبوب الرياح الموسمية والجفاف الذي يسبقها (٤٠) ويتجدد القحط سنويا والتخفيف من القحط لابد وأن يكون قد زاد من المشاعر الهندية نحو الماء ، ولكن ثمة دلائل كثيرة بأن الأزمة السنوية في الطقس ليست الأساس كله الذي يقوم عليه تكوين الهنود للماء .

ومن المظاهر العامة الأكثر شيوعا من سواها بصفة الماء المقدسة في الهند ، هي عادة تمثيل المعبود في الاحتفالات المتنوعة ببجيرة ماء تصبغ مقرا للاله في تلك المناسبة (٤١) .

ومن الصعب أن نذكر الزمن الذي تعود اليه تلك العادة العامة المقدسة للماء في الهند ولكنها كبقية العبادات الأخرى الخاصة بالماء لا ترجع الى أصل آري ، لأن النار كانت المظهر المقدس للمعبود أكثر من الماء عند الشعوب الهندية الأوربية (٤٢) . وعلى ذلك يوجد بعض الاحتمال في أن هذا يرجع الى الدورة الأولى من التاريخ الهندي ، ويوجد مظهر عام آخر وهو الحلول في كل مكان في برك الماء والصهاريج والحمامات وممارسة الاستحمام والطقس في هذه المياه ، وهناك اتفاق عام (٤٣) على أن تلك الممارسة على أشكال لا ترجع الى الدورة الأولى لأنه يوجد في (موهندجو دارو) بناء متقن للاستحمام الى أبعد حدود الاتفاق ، كانت تجري فيه الطقوس الدينية المتعلقة بالاستحمام ، ومن بين هذه الأبنية حمام علم وحمامات خاصة للكهنة على ما يظن أيضا ، ان جميع انهار الهند تعتبر مقدسة الى حد ما ، وأنه من المحتمل تماما أن يرجع هذا الى زمن مبكر جدا وربما صدق « شايلير » فيما ذكره « إن نهري » « سارا سفاقي » و « مهران العظيم » هما نهر واحد (٤٤) ان « سارا سفاقي » لايزال أحد الأنهار

(٤٠) الاساطير والرموز في الفن والحضارة الهندية . H. Zimmer

(٤١) المرجع السابق ص ٢٤

(٤٢) انظر الفن في الهند وآسيا ص ٣٧ Zimmer

(٤٣) المرجع السابق ص ٢١

(٤٤) انظر الفصل الاول حاشية رقم ٢ .

الثلاثة الأكثر قداسة من غيرها من الأنهار ، أما نهر « الأندوس » فلم يعد من بين هذه الأنهار ، ومهما كان الأمر فإن النهرين الآخرين هما « الكنج » و « جوما » . ان ساراسفاتي باعتبارها الها كانت إحدى زوجات براهما المعبود الأكبر الذى كانت شهرته كاله أو كمفهوم لاهوتى فلسفى للكائن يرجع أيضا لزمن قديم جدا ، ومن الممكن فى الواقع أن ترجع الطبيعة القدسة للأنهار الى أصل كل شيء ، فإذا كانت تحقق هذا على أية صورة مثل الصورة الهندية العصرية فإنها تكون الحالة الوحيدة من نوعها بين المجتمعات المتحضرة البدائية ، على قدر ما يظهر من الدليل ، وربما كان هذا من الأسباب التى تحمل على الظن أنه كان يوجد شكل آخر للوصول اذا كان هذا لا يرجع الى مثل هذا الزمن المتقدم .

ان المعبود الخالق للدورة الثالثة من التاريخ الهندى • الذى يسمى « فيشنو » وزوجته « لاكشمى » أو « بادما » لهما صلات وثيقة الى أقصى حد بالماء مثل براهما وساراسفاتي اذ انهم جميعا يعرفون بالماء وكل خلق دورى انما يصنع فى الماء ومن الماء .

ومن الواضح ان (لاكشمى) فى الواقع من أصل غير آرى ويمكن تتبع هذه الأسطورة الى الدورة الاولى من جنوب الهند (٤٥) ، التى أوجدت ملامح كثيرة من الثقافة الأولى بعد أن تغيرت فى الشمال ، وان « فيشنو » باعتباره خالقا صاحب اسمه « شيشا » الحية العالمية اى ملك جميع الحيات وهو جزء من « فيشنو » وكلاهما ماء . وجميع الحيات تشير وترمز طبعاً للماء ، وفى الواقع كان ' بين الحيات ملوك وملكات حراس على البشر ، وكانت معظم الأسر المالكة فى جنوب الهند ترجع بنسبها الى « ناجا » و « ناجيتى » وكان الانحدار من نسل الحية المعبودة يرجع فى ذاته الى الدورة الأولى اذا راعينا الأشكال والصورة على عمل البحر الذى وجد فى « موهنجو » (٤٦) دارو .

وكانت المياه فى الهند الى حد ما أيضا مياه من الأرض وفى الأرض كما كانت بجملتها تماما فى العراق ومصر (٤٧) .

وقد انتقلت المياه فى دهاء على حين كانت الحية تنتقل فى الأرض وثبت فيها الحصب ، ولكن كان للهند حيوان آخر أيضا من الحيوانات

(٤٥) انظر من ١٥٨ - ١٦٠ Zimmer: Art of Indian Asia

(٤٦) سنشرح ذلك فيما بعد .

(٤٧) الاساطير والرموز من ٧٤ - ٧٥ Zimmer

الوحشية التى ترمز الى الماء وهو القيل ، ويظهر أن الأفيال غالبا ما كانت تهتم بمياه السماء ، ذلك لأنها كانت من أبناء عمومة السحاب وذات مودة لاجتذاب غمام المطر مكونة عنصر الماء المنعش لحفظ المحصولات والانسان والحيوانات (٤٨) .

ان عبادة الماء فى مجتمع أمريكا الوسطى شئ معروف تماما وأنها ترجع يقينا الى أصل المجتمع (٤٩) .

لقد كانت نوعا خاصا جدا من عبادة الماء كالنوع الذى كان فى المجتمع المصرى ، كما أنها كانت مختلفة تماما لأنها كانت عبادة ماء المطر ، كما لاحظنا ذلك فى الفصل الأخير . وكما بينا فإن عبادة المطر من هذا النوع المحقق والغريب كانت نتيجة طبيعية لقياس المجتمع فى الغابة الاستوائية التى تنزل فيها الأمطار . وفى كل جزء من مجتمع أمريكا الوسطى أى فى امتدادات المجتمع خارج الغابة المطيرة ، وبالمثل فى داخل المجتمع ، كانت الهات الماء هى الهات المطر ، فهناك الإله شاكس Chacs فى منطقة (مايا) والآلهة تلالوك Tlaloc فى المكسيك ، وكوكيجوس Coojos فى أوكرাকা ، وتاجنز فى فيراكوز . عمالقة وكانت الآلهة يرمز إليها على شكل عمالقة فى الغالب .

لقد كانت لديهم أواني ماء يحتفظون فيها بالماء الذى يصبونه على الأرض ، وكانوا يضعون الضفادع لحراسة هذه المياه ، وجد أن نكبات متنوعة مما حدثت فى هذه الأسطورة قد نجحت من حيث المياه الكثيرة الى درجة زائدة عن الحد وهذه أحداث مفاجئة يمكن أن تدرك بسهولة فى غابة استوائية . وكثيرا ما كانت الهة المطر تمثل الملامح التى استعمرت من الرموز الأخرى المتصلة بالمادة التى تتضمن أنياب « الهة القط » ومخالبه وملامح الحيات وعلى الأخص فى المكسيك .

أما جميع آلهة المطر فكانت رباعية اله لكل اتجاه من اتجاهات البوصلة ، كما سبق أن حدث مع الآلهة العديدة فى ديانة أمريكا الوسطى . كان لآلهة المطر مكانتها الأولى فى العبادة الشعبية مع اله القمح . وربما كان اله القمح محبوبا من الناس أكثر من أى اله آخر ، وكان الفلاح يشعر بوجود هذا الإله دائما وبصورة مستمرة لا تفارقه ، كان اله القمح صديقا للانسان ، ويعطى الانسان ويدعم القضية الإنسانية بأكملها ، كما يعين

(٤٨) المرجع السابق ص ١٦٠.

(٤٩) ان أول بينة على ذلك تجدها فى صناعة نحت التماثيل الخاصة بالمبد

الإنسان على الحياة (٥٠) ولكن إله القمح لم تكن له القوة التي كانت
لآلهة المطر . كان على الإنسان أن يرضى آلهة المطر لأنها كانت تستطيع
أن تحجب إمداداتها عندما تكون الحاجة ماسة إليها ، كما أنه كان في
مقدورها أن تقدم إمداداتها في فيض وعنف وهذا ما كانت تفعله على
الدوام ، وبهذا كانت تسبب الفيضانات والفيضات والعفونة ، والجرب .

وذكرنا الارتباط الوثيق بين المطر والقمح بالعلاقة التي بين الفيضان
والقمح في مصر ، ومن الواضح أن المنطق ذاته يملئ هذا في كلا الحالتين .
وإنه من العوامل التثقيفية أن نجد الترابط في كلتا الحالتين التي جاء فيها
الماء إلى المجتمع بطريقة فعالة . فلقد كان المطر في أمريكا الوسطى مرتبطاً
أيضاً بالأرض ، كما هو الحال في معظم المجتمعات الأخرى التي درسناها ،
إن عبادة الأرض في أمريكا الوسطى كانت عبادة شعبية ، وكانت الأرض
تمثل (آلهة القط) . كما هو الحال في بيرو ، ولكن يظهر أن الأهمية
النسبية لآله الأرض والآلهة المطر قد ردت إلى المجتمعين .

ففي مجتمع الأنديز إن الأرض قد ولدت الماء ، أو حملت الماء على
سطحها وعلى ذلك فإن المعبود المسيطر كان الإله القط للأرض ، أما في
مجتمع أمريكا الوسطى فإن الماء قد جاء بقوة مبرحية من السماء وليس
من الأرض ، ولكنها سقطت على الأرض وحملت على إنتاج القمح وبقيسة
حاجات الإنسان النباتية الأخرى ، عملية إنتاج الطعام ، واحتفظ إله
الأرض بمكانته الثانوية (٥١) .

ولقد كانت العلاقة بين آلهة المطر وإله القمح وإله الأرض مجرد
علاقة بين الصلات العديدة التي تبين بوضوح إلى أي حد كانت عليه آلهة
المطر العامة من الأهمية (٥٢) وكثير من هذه الصلات تطورات متأخرة
نسبياً قام بها الكهنة عندما توسعوا في علم اللاهوت لكي يحتفظوا بأفعال
الشعبي ، ولسنا في حاجة هنا للاهتمام بذلك ولكن توجد رابطتان
تتعلقان فقط بالجزء المكسيكي للمجتمع على قدر ما نعلم ويستحقان
عناية خاصة ، إلهها تتعلق بآلهة البحيرات والأنهار التي كانوا يطلقون
عليها الشيدة ذات الجؤولة الفيروز . والرياح الشرقية والبطل المشهور
العظيم . وكلاهما كان بالتأكيد في فترات مبكرة .

وإن الطبوغرافيا والمناخ الخاصين اللذين يتميز بهما وادي المكسيك

(٥٠) قيام حضارة مايا وسقوطها . ص ٢٢٤ - ٢٤٠ .

(٥١) انظر حضارات أمريكا الجنوبية Armillas

(٥٢) حضارات أمريكا القديمة . Thompson

والذى يختلف كل الاختلاف عن الطقس فى الغابة المطيرة يوضح طابع
اللاهه أيضا • ومن ثم بقيت المعبودة على ما أظن من الأزمنة الأولى فى اقليم
البحيرة ، وعندما تغفلت عبادة المطر فى الاراضى المنخفضة مع اتساع
الحضارة أدخلها الكهنة فى ديانتهم ، وضموا اليها Tlaloc

أما مجتمع كريت فانه يقدم دليلا أقل خطورة عن أهمية الماء فى
الديانة الأولى عما تفعله المجتمعات الستة الأخرى • ومن المحقق أنه كان
للماء مكانة ولكنه ليس من المتيسر من الدلائل التى لدينا أن نقدر مبلغ
أهميته •

على اننا اذا درسنا ديانة كريت من وجهة نظر « برسون » نجدها
عبادة موحدة ، نجدها محكمة الصنعة وخصبة الى درجة عظيمة عندما كان
للماء مكانة فى الطقوس التى يحتفل بها عند ظهور الربيع (٥٣) •

وإذا ما آثرنا أن نتبع نلسون وأن نضل لا أوريين بحيث نزع أننا
نعلم فقط سلسلة من التفاصيل المستقلة فماء ينبوع وماء البئر والمطر
كانت لها جميعا مكانتها وأهميتها (٥٤) إذن •

أما المصادر الأخرى فانها تهتم غالبا بالخصائص التى يمكن رؤيتها
فى أماكن العبادة التى اكتشفت ، كما انها تدلنا على أهمية الماء فى الرمزية
الدينية ، وعلى هذا النمط استطاع « ايفانز » أن يكتشف كتابة تصويرية
نرجع لزم الجذب فى الصيف ، ويظن أنه كانت توجد احتفالات تجعل
المطر ينهمر لمقاومة هذا الجذب ووقفه (٥٥) •

أما (دوزود) فيذكر عبادة الشجرة التى يعتقد أن المطر قد لعب
دورا فيها (٥٦) •

ان مناخ كريت نموذج لمناخ البحر الأبيض المتوسط مع فصل
مطر قصير ، اما موارد المطر فكانت آخذة فى النقصان بلا ريب عندما
وصل المستوطنون ولادة طويلة فيما بعد • وكذلك نجد أن الجزيرة صغيرة
ايضا الى درجة أنه ليس بها أنهار كبيرة أو طويلة بدرجة يمكن أن تحتفظ
بمقادير كافية من المياه طوال الصيف ، وفى الواقع لا توجد سوى أنهار

(٥٣) ديانة اليونان فى أزمنة ما قبل التاريخ W. Persar ص ٥١ - ٨٩ •

(٥٤) الديانة اليونانية القديمة P. Nilson

(٥٥) ص ٤٦٦

(٥٦) -مسلم- ما قبل الهلنسية ص ٤١١ - ٤١٢ •

قليلة جدا لاتيجف - كما أنه لا توجد بحيرات ولكننا قد بحثنا هذه الامور الطبيعية الخاصة بسهولة كريت في الفصل السابق . اننا نفهم بصعوبة في هذه الظروف ان الحاجة للاحتفاظ بالماء ينبغى الا نجد لها سبيلا الى ديانة كريت .

وتوجد في الواقع اكلة كثيرة على أنها استطاعت ذلك فكانت الينابيع من الاماكن المقدسة . وكانت معظم الاحتفالات الكريتية الدينية تجري في الهواء الطلق ، فكانوا يقيمونها على جوانب الجبال وقممها ، ومن المحتمل أن يكون قد حدث ذلك تماما لأن الاحتفالات كانت لها علاقة بالمياه التي كانت تتدفق الى جوانب الجبل في الفصل المطر وتسمد السهول .

ان وجود رموز لماء معين وأرض معينة كانت عادة في ثلاثة او اربعة مجتمعات متحضرة عند قيامها في الأصل ، وان تلك الرموز العامة قد ظهرت على جانبي الباسفيك ، فانها ظواهر طبيعية تتطلب ايضاها .

واننا لانعلم سر ما تعنيه الرموز ، ولكننا نعلم فقط ان هذا هو ما يقصد به . ان كبر الاقاليان ولونها الازدوازي الرمادي هو رمز الماء في المجتمع (الهندي فقط) قد يظن أنه يشبه الصفات ذاتها في ظهور السحاب ، ان الرأى يكاد أن يكون معقولا ولكنه لا يوجد أى دليل يؤيده ان الحيات طويلة وعلتوية كالانهار ولها في بعض الأحيان ايضا حفر في الأرض قيل انها تتحرك فيها كالماء متسللة .

ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نجد أى ايضاح لاتتشار رموز الحية والقطعة في تشابه معقول ، ومن الواضح ان هذه الرموز قد طبعتم في وقت ما في اقليم أو عدة اقاليم محدودة ثم انتشرت منها الى اقاليم أخرى ، وعندما توجد صفات عامة في جانبي الباسيفيكي فانها عادة ما تعزى الى الشعوب (القطبية) وقد عرف منذ فترة طويلة ان الصينيين الاول اظهروا علاقات قرابة مع هؤلاء الناس (٥٧) .

وربما يؤخذ هذا ليوضح استخدام المجتمعات الصينية وأمريكا الوسطى والانديز لرمز الحية استخداما عاما ، واستخدامها أيضا لرمز من نوع السنور لو كان ذلك الرمز مستخدما في الصين أيضا كما يظن هنا ، ولكن كيف جاء رمز الحية الى الهند ؟ من المحتمل أن يكون قد انتشر من المنطقة القطبية ، والمعلومات القليلة التي نعرفها عن الشعوب الهندية

الأولى لا ترجع أن تكون هناك صلة كبيرة مع الشعوب القطبية ، وإنه توضيح هذه الصعوبة مرجعها إلى أن الشعوب القطبية ليست المصدر الوحيد لهذا الرمز (٥٨) .

ولكن متى حدثت هجرة هذا الرمز ؟ لقد حدثت على ما يبدو في زمن مبكر لأن الأدوار المتواضعة نسبيا لرمز الحية في العراق ومصر كانت قبل الآن قد تأسست في زمن مبكر في المجتمعات المتحضرة هناك . فأنها كانت في الواقع لم تسبق في تاريخها المجتمعات المتحضرة اذن . وأظن لذلك أن رمز الحية في معناه الأكثر أهمية والأقدم من ذلك قد نقل إلى جميع الجهات عن طريق الانتشار في العصر الحجري الأوسط من الشرق الأدنى للعالم القديم (٥٩) . تشير جميع الاحتمالات إلى أنها كانت قد نشأت في وقت مبكر إلى حد أنها قد وصلت العالم الجديد في وقت نشوء مجتمع أمريكا الوسطى . وفي الواقع أنني لا أثق في أن الصلة الثقافية للشعوب الأخرى كانت تعني المشاركة في التشتت والانتشار من المنطقة القطبية إلى حد ما عن العلاقة التي كانت تدفع الشعوب التي كانت تعيش حول القطب الشمالي لتقوم بدور أصلي ، ولا يدهشني إذا كان قد جاء رمز القطة من الأصل ذاته حتى ولو كان لا يوجد أي أثر له هناك في أي اتصال من ناحية الأرض .

إن هجرة الرموز لا تدل على هجرة التراث بأكمله ، إنها لا تعني حتى هجرة الممارسة أو مدلول الرمز .

وعلى هذا النحو لا يمكن أن يؤخذ رمز الحية أو رمز القطة في المجتمعات العديدة المختلفة على أنه يعني الثقافة بأكملها لكل من تلك المجتمعات أو أي جزء هام منها كان قد انتشر من مكانه إلى جميع البلدان الأخرى . كما أنه لا يمكن على أن تؤخذ ليبين علاقة أصلية بين أديان المجتمعات العديدة البدائية ، إنه يوضح في الأحوال الراهنة فقط ، إن الاعتقاد الخاص والممارسة التي يعني كل رمز أنها قد هاجرت لا يستثنى مقدارا كبيرا من التعديل في المعتقدات والممارسات في وقوع كل منهما على أفراد ولا يبين أي شيء مهما كان عن أماكنها في ديانة كل مجتمع . لقد كان تكوين ديانة كل مجتمع سلسلة من الحوادث المنفصلة ، فكانت توجد طبعا مشابها للظروف والأسباب في تكوين جميع الأديان ، وهذا هو السر إلى حد ما في وجود الاعتقادات والممارسات التي قامت فيها كلها

(٥٨) أصبحت تسمى الحية في مصر الإله « إيهوفيس » عذو الشمس وسلمان الظلام .

(٥٩) ارجع مؤلف Greel

انها اعتقادات وممارسات اذا ما جمعنا بينها وبين الرموز التي تشير اليها
نجدها قد وجدت بين الشعوب المتعددة في زمن متقدم عندما كانت متصلة
اتصالا مباشرا أو غير مباشر الواحدة بالأخرى .

ويمكن ان يقال ان تشابه الظروف والأسباب قد ساعد على اختيار
المعتقدات والممارسات المتشابهة في الثقافة المشتركة وتأكيدهما وتنميتها .

ان الاهمية المحدودة لهجرة الرموز تقلل على أية حال من أهمية
تكرار الأصل في الوقائع الأساسية ذاتها ، في جوهرها ، وذلك في جميع
المجتمعات المتحضرة الاولى ، ان التكرار في حالة بعد أخرى من
اهتمام الدين بالحاجة الى الماء يؤثر جدا بدرجة عالية . ان الثغرات في
المعرفة والدقة في بعض الشواهد والادلة لا تكفي لنسخ التضمينات الظاهرة
للدليل الإيجابي ، وأفضل نتيجة مؤقتة نستطيع أن نستخرجها منها هي
أن اهتمام الدين بالماء كان عاما في جميع المجتمعات ، وانه كانت توجد
فقط مجرد اختلافات في التعبير عن ذلك الاهتمام بين مجتمع وآخر ، وأن
معظمها كانت نتيجة الاختلافات المتعلقة بالبيئة ، واذا ظهر دليل جديد
وألقي الشك على هذا فانه يجدر بنا عندئذ أن نعدل الموضوع أو نتخلى
عنه . وترجع حاليا أن جميع المجتمعات المتحضرة البدائية كانت تبحث
عن مورد الماء الذي يعول عليه عند مصدر له وأن الحاجة للماء وطريقة
الحصول عليه كانت تعد من الأمور الحظيرة بدرجة أنها أصبحت موضع
الاهتمام الرئيسي من أديان المجتمعات وان وجود المياه والاحتفاظ بمورد
ماء يركز اليه كان عاملا سببيا في أصل المجتمعات المتحضرة الاولى .

واحتمال كهذا لا يدعو للدهشة على الاطلاق طالما أن جميع الشعوب
الداخلية في هذه الحوادث العظيمة كانت قد رميت بكارثة مورد الماء لآلاف
السنين ، وكانت تستريح منها دون ريب في بعض الفترات والأزمنة ،
ولكنها كانت لا ترتاح طبعاً من وطأة تلك الكوارث وتجد شيئاً من الراحة
من ويلاتها عشية تأسيس المجتمعات المتحضرة ، كان الفلاح البدائي
الذي يعيش على أطراف الصحراء حيث كان مورد الماء يميل عادة للنقصان
مهتماً بنقص في الماء ، هذا فضلاً على زيادة عدد السكان وحاجتهم
المتزايدة الى الأيدي العاملة الإضافية في وقت بذر البذور وفي وقت
الحصاد ، كما أننا نفرض ان خطر العجز في الماء كان معاصراً فقط للزراعة
بعد أن كان نوعاً من أنواع الضغط التي أدت الى الاكتشاف والتقدم في
طرق ممارسة الزراعة ، لأن العصر الميسوليني قد قاسى من ورائها أيضاً
وهذا ما تؤكد لنا بمشاركة الرموز في الماء والأرض ، وبناء على ذلك ينبغي
أن نظن ان المخاوف ازاء مورد الماء كانت قد رسخت قبل الآن بثبات في

عقول المؤسسين ، اذا كان هذا بعد اصطلاحا واقعيا للمجتمعات المتحضرة الأولى قبل أن يتم التأسيس ، وان ما حدث بعد التأسيس وقتئذ كان تنخيصا للمشاعر التي كانت قد تسربت سابقا بعمق ، وشرحت بالتاكيد قبل ذلك فى الاصطلاحات الدينية .

ولكن التخصص اصطلاح ضعيف جدا لا يستطيع أن يعبر تماما عن نوع التغيير فى الديانة التى حدثت عندما اتخذت المجتمعات المتحضرة الأولى لها شكلا وموضوعا ، لقد ذكرنا فى الفصل الأول أن الاديان الجديدة قد نشأت مع زعاماتها ، وأن تلك الاديان قد تكونت على أساس أن المشاعر القديمة قد تسربت بعمق ، وإذا كان أى انسان يشك فى هذا فانه من الممكن أن يبرهن عليه برهانا ثابتا عن طريق النتائج المقررة الجديدة المتناسكة فى التنظيمات الكهنوتية السيامية التى أعقبت نشر الاديان الجديدة وتأسيس المجتمعات المتحضرة ، ولكننا لا نعالج هذه الأمور فى هذا الكتاب . ويبقى شئ واحد نعرض له فى هذا الفصل وهو عرض عناصر أخرى غير عبادة الماء فى الديانة عند ظهور المجتمعات المتحضرة الأولى على قدر ما يمكن اكتشافها .

ويوجد اثنا عشر الها فى مصر نيس من بينها سوى ستة آلهة فقط ذات أهمية وتظهر فى لاهوت ممفيس ، ولم تظهر الأسرة الأولى التى تتحدث الوثنية عن قيامها فى زمن مبكر طبعاً من التاريخ المصرى ، لقد ظهرت فقط فى زمن مبكر من معرفتنا الحقيقية بها . ولكن من الممكن أن نرى فى الوثيقة أن بعض الآلهة كانت قد تقدم عليها آلهة قبل ذلك كما حدث من قبل فى حالة أوزيريس ، وهكذا فإن « أتوم » لابد وأنه كان قديما وقتئذ وعلى ذلك فاننا قد نخمن أن عبادة الشمس قد تأسست فى زمن سابق . ومع هذا يوجد بعض ما يحملنا على الظن بأن عبادة الشمس قد قامت فى الدلتا وأن الدلتا قد اجتذبت الى الحياة المتحضرة فى مصر فى وقت ما بعد نشوء المجتمع (٦٠) وربما كان الاله « حورس » والاله « سيت » قديمين أيضا ، ولكننا لانستطيع أن نجزم اذا كان اله السماء واله الأرض كانا متعاقبين ، وكانا مجرد الهين محليين فى الأجزاء المختلفة من مصر العليا وأن كاهن كل منهما كان منافسا للكاهن الآخر كما لا يمكننا أن نقول انهما لم يكونا كذلك (٦١) .

(٦٠) من المؤكد أن عبادة الشمس قد نشأت فى الدلتا وربما (هليوبوليس) حيث مرت من الأسرة الثالثة فصاعدا .

(٦١) اعتقد على الأقل أنها كانا من أصل مشابه .

كانت آلهة العراق «أنو» و «أنليل» و «ننهوساجا» ينظر إليها في الأزمنة التاريخية الأولى باعتبارها أقدم من الآلهة «أنكي» من بعض النواحي وكانت «ننهوساجا» في الواقع هي الأرض وهي بهذا المعنى كانت متصلة اتصالاً وثيقاً بالآلهة العذب الذي كان يشتمل عليه «أنكي» ولكن «ننهوساجا» لم تكن مجرد الأرض على الخصوص ولم تكن أهميتها ترجع فقط إلى صلتها بالآلهة كما كان الحال في «القط المعبود» في مجتمعات العالم الجديد . ربما كانت «ننهوساجا» أصلاً كذلك ، وكانت الأم كذلك من (النمسوذج السابق) لآلهة الخصب البشري وهي على هذا الوصف تكون معروفة تماماً لنا في مجتمعات الشرق والشرق الأدنى المتحضرة التي جاءت فيما بعد وربما قد وجدت بهذه الصفة في أصل مجتمع العراق .

أما عن «أنو» و «أنليل» فإنها يمثلان القوى الطبيعية الأولية وأما أن من الغلالة في الشك أن نرفض قبول هذه القوى بصفاتها الأصلية المختصة بها . . كان «أنو» آله السماء أما «حورس» فلم يكن نعرف عنه شيئاً ، ومع هذا كان «أنو» المعبود المختص بالرياسة في هيكل كل الآلهة الذي نظم منذ أقدم أزمنة التاريخ والذي نعرفه في العراق كما أن أنليل يمكن أن نصفه بأنه كان ضابطه التنفيذي الرئيسي .

ويعتقد فرانكفورت أن شهرة «أنليل» تعزى لتفوق علماء اللاهوت في «نيبور» موطن الآلهة «أنليل» (٦٢) ويعتقد أنه من المحتمل أن يكون طموح أنليل السياسي قد صاحب طموح اللاهوتي حتى لو كانت تلك المطامع هادئة نسبياً ، وسياسية مسالمة بشكل ما ولم تكن «نيبور» مدينة من أقدم مدن المجتمع . . ومن المحتمل جداً ألا يكون «أنليل» أقدم من «نيبور» وفضلاً على ذلك فإن تمجيد المعبود بمأثرة من علم اللاهوت لا يمكن أن يكون قد جرى في وقت مبكر جداً في تاريخ المجتمع .

وفي الواقع أن تصور قيادة رباعية بين الآلهة قيادة أنو وأنليل وننهوساجا وأنكي إنما يصرح للسماء بعمل المدارس اللاهوتية وقد أوحى بالبواعت الكهنوتية - السياسية ، كان «أنو» على ما يظهر لها قائداً جاء في زمن متقدم عن سواء وجعله رئيساً أو الاعتراف برياسته إنما يعتبر ترضية من السلطة السياسية الجديدة لمن تقدمه في الطليعة الذي كان من غير الحكمة التهكم على قداسه والسخرية منها ، أما مهارة أنليل السياسية فإنها توحى بمراعاته النظرية لأنو ومركزه كأكبر ، أن

الكهانة الماهرة التي تطالب بالزعامة على المجتمع أو « لاسحق » (أمير مدينة أو مستأجر لآلهة المدينة) كان يمكنها أن تعترف تماما برياسة « انو » في حين تجرده من مادته وتطالب بنسبهم الغريب لالههم الانليل مع الآله العظيم الأسبق « انكى » بينما تؤكد التفوق للآخر نظرا الى انليل كاله أكبر وانكى كاله أصغر (٦٣) أما الآلهة «ننهوساجا» فمن المحتمل ألا تكون قد تدخلت تدخلا كبيرا في الصفقة فانها كانت دائما على اتصال وثيق بانكى (٦٤) ولكنه - والآن لكى يضمن المركز الأصغر شأننا لذلك الآله المحبوب القديم - كان قد عد في مرتبة دون مرتبة قرينته ذاتها . هل ذهبننا الى مدى بعيد جدا حتى نرى في ذلك تلميحاً خاصاً ؟

انى لا أظن ذلك ، فاذن قد شارك «انو» أو «انليل» الآلهة الهامة مع انكى عند قيام مجتمع العراق فى الأصل ، واقل من ذلك بكثير انهما تفوقا عليه . وربما كانت « ننهوساجا » عندئذ متصلة اتصالا وثيقاً بانكى ، وان كنا لانعرف انها كانت على اتصال به ، ولكن اذا كان الامر كذلك فان ذلك يوسع فقط مجال عبادة الماء والأرض الأصلية ، وهذا لا يعنى على الإطلاق انهم عرفوا التوحيد عند قيام مجتمع العراق فى الأصل . وربما كانت الآلهة الأخرى عديدة تماما ، فالأرواح والعفاريت والآلهة الحراس فى العراق على الخصوص الذين كانوا تركة من الماضى البدائى . مثل الآله انكى نفسه وربما كان الناس يوقرونهم وربما جعلوها كام حتى « انو » و « انليل » من بينهم . ولكنى لا أظن أنه كان من بينهم من كان مساويا لانكى فقد كان انكى اله زمانه .

أما بالنسبة الى الهند فان البقايا الاركيولوجية للدورة الاولى التى نعتمد عليها أيضا فانما تتبين ثلاثة عناصر اساسية بجانب احتمال وجود عبادة الماء ، العنصر الأول هو الهة انثى تشبه الآلهة المحلية وهى الأرض الام التى تهتم بالحصب ، أما العنصر الثانى فهو عبادة عضو الذكر وهى باقية حتى الآن . أما العنصر الثالث فيتمثل فى اله يشبه الى حد كبير «سيفا» يرتدى القرون ويجلس كالبوجا ، وتحيطه الحيوانات المقترسة . ويظهر أن المعبودة الانثى كانت من تراث الأزمنة السابقة للتمدن . ومن الممكن جدا أن يصدق ذلك أيضا على عبادة عضو الذكر وعبادة سيفا لأنها كانت مرتبطة بعبادة عضو الذكر ، كانت تلك المعبودة تصور على شكل

٦٣) ان الراى القائل بان هذا ما فعله انبل لا يبنى في نظرى الاعتقاد بالحسد والمنافسة

بين الكهانة القديمة .

٦٤) انظر المقامرة العقلية غراففورت -

عجل البحر تخدّمه الحيات على كل جانب كما يلزمه بعض النساك البشريين وعلى ذلك فاننا نظن أنها كانت متصلة بعبادة الماء (٦٥) . ولكن لا توجد لدينا أية إشارة تبين أهمية العبادات الأخرى بمقارنتها بعبادة الماء فى الوقت الحقيقى عند قيام المجتمع فى الأصل .

واننا عندما ننظر الى العبادة الهندية على وجه العموم على اعتبار انها عبادة الخصب يلعب الماء فيها دورا هاما خاصا ويحدث الشيء ذاته فى عبادة كريت كما رأينا قبل الآن . أما بخصوص كريت فانه لا يوجد فى الواقع سوى المعبودة الانثى أو المعبودات اللواتى تتركز حولهن عبادة الخصب ، أما المعبود الذكر الغامض فانه من المحتمل انه كان بدعة جاءت فى زمن متأخر . واذا كانت هناك مظاهر أخرى غير الخصب فى ديانة كريت الأولى فاننا نجهل كل شيء عنها .

كما اننا لازلنا فى ظلام ازاء المعتقدات الصينية القديمة ، ومن المحتمل انه يوجد عنصر فلكى هام ولكن لا يوجد ما يحملنا على اعتبار هذا كعنصر أساسى . واننا نعلم فى الواقع عن مثل ذلك التقدم فى كل مجتمع آخر من المجتمعات المتحضرة الأولية ماعدا المجتمع الهندى ويوجد ما يدعو لاحتمال وجود التقدم فى المجتمع الهندى على السواء (٦٦) .

وهناك عبادة أخرى أخطر بكثير من حيث علاقتها بالمجتمع الصينى وهى عبادة الأسلاف ولما كانت عبادات كهذه معروفة جيدا بين البدائيين فانه من الممكن تماما أن نرجع العبادة الصينية الى الأصل فى المجتمع الصينى ، ولكن لما كانت الممارسات الجديدة الدينية كثيرا ما تدخل المجتمعات المتحضرة فى وقت الانتقال من دورة الى أخرى فانه من الممكن أن تكون عبادة الأسلاف قد جاءت الى الصين فى زمن «شانج» المتأخر وزمن «شو» المتقدم عندما كان يحدث - فى رأى - ذلك الانتقال (٦٧) .

ويرجع دليل الديانة فى المجتمع الانديزى الى زمن قديم . وتسند له دلائل من عصر «موشىكا» بعد ذلك بعدة قرون ، كانت عبادة (الارض ، الماء) عبادة المجتمع الأصلية التى امتدت فيما بعد لاتجاهات أخرى ، وثمة احتمال هو ان السكان البدائيين فى أمريكا الجنوبية قد عبدوا الأسلاف ، وأنه كانت لديهم عبادات أخرى على السواء وأنه توجد آراء معينة ترجع

(٦٥) انظر الفن فى آسيا الهندية Zimmer من ١٦ .

(٦٦) انظر حضارات اندوس القديمة . Earnest Maclay لندن ١٩٤٨ من ٦٩/٦٨ .

(٦٧) انظر من ١٧٨ Grell

للأزمنة المتأخرة من تاريخ المجتمع المتحضر بأن عبادة الأسلاف قد قامت. هناك (٦٨) • اننا نعلم شيئا عن أمريكا الوسطى ، ومن المحتمل تماما أن تكون عبادة الأسلاف قد وجدت عند نشوء المجتمع (٦٩) وكذلك عبادة الخصب ، ومن الصعب أن نجد دليلا لآله من الآلهة الأصلية. الهامة اذا استثنينا آلهة المطر وآله الذرة ، كان آله الذرة معبودا هاما ، وحقا كان صديقا حميما للإنسان ، ولكنه كان يعتمد على آلهة المطر. وكان يوجد معبود آخر له بعض الأهمية وهو آله النار ، كما كان يسمى فيما بعد الآلهة القديم ولكنه لم يكن بالحقيقة قديما موغلا في القدم (٧٠) وكان في الواقع آلهة محلية في مصدره اذ كان ينتسب في الأصل لجزء من المجتمع الذي لم يكن في رأي الجزء الذي بدأت فيه الحضارة وكان ينتمي الى اقليم الراكين (٧١) •

ويوجد أيضا « كويتز الكوتل » كبطل للثقافة وربما كان قائدا للمهاجرين من فيراكروز أو (شياباس) الى وادي المكسيك ، أو قد جلب. بعض الخبرة المعينة الى المكسيك من ذلك الاقليم العام • ومهما كان متقدما كان في الأصل منتما لجزء آخر غير الاقليم الذي نشأ فيه ، ولا يمكن أن نضمه الى الآلهة الاولى القديمة .

وعلى ذلك فإن مصر وما بين النهرين يقدمان امكانية وجود معبود السماء • وربما الصين وإن كنت لا أقترح الاسم الذي كان الصينيون يطلقونه على معبود السماء ، وإن لم تكن تصوره في الشمس أو القمر كثيرا • وربما كانت الأرض تحترم على شكل أعظم من صورة المنتج مع الماء والنبات • وربما كانت تعد الأرض نوعا من (الأم للبشرية) في مجتمعات الشرق الأدنى والهند ، وإن كنت أشك كثيرا جدا في المشابهات بين وظائف الأرض كأم للإنسان وللنباتات ، أو كمصدر للخصب أو لكليهما يمكن ارجاعها الى مثل هذه الأزمنة المتقدمة • وإن أفكارا من ذلك النوع تبدو كأنها من اختراع الكهنة الذين جاؤوا في زمن متأخر ، وكانوا من المتضلعين في العلم وعلى جانب كبير من الخيال •

إن خصب الإنسان قد يكون جزءا من الدين ، ولكن لا توجد مراجع

(٦٨) يوضح ما لدينا أن القط المعبود أصبح موضع الاحترام •

(٦٩) ليس من المألوف وصف تكريم الوتي في أمريكا الوسطى على أنه عبادة الأسلاف وإن

كانت قريبة منها ،

(٧٠) انظر ص ٥٨ Vaillant

(٧١) انظر حضارات أمريكا القديمة Atmillas ص ٢٢ - ٢٣ •

كثيرة تثبت ذلك ، ان اعظم مرجع بدون شك هو زيادة احتمال الحصب قبل قيام المجتمعات المتحضرة بين المزارعين البدائيين الذين أرادوا المساعدة فى مزارعهم ، وربما قوت العدو للحماية ضد الأعداء سواء أكانوا من البشر أم من الحيوانات أم « نهوساجا » كما عرفت فيما بعد فى تاريخ ما بين النهرين ، فقد كانت الهة الحصب ، وعادة يفترض دون اقامة الدليل على ذلك بان آلهة كريت كانت هى آلهة الحصب وتوجد بعض الأدلة الفعلية على وجود عبادة الحصب فى مجتمع أمريكا الوسطى كما ان « كالجرن » يرى الدليل على وجود عبادة آلهة الحصب فى الصين أيضا .

وانى ارى ان جميع المجتمعات المتحضرة كانت تكرم الاسلاف من موتاهم بطريقة ما لأن العادات المألوفة من هذا القبيل كانت تمارس بكثرة بين البدائيين . ومن المستحيل علينا أن نعرف على وجه الدقة أى شكل من الأشكال كان يتخذه القدماء فى تكريم موتاهم من الأسلاف ، ولكنى أظن أن المسألة هى ما اذا كان المتحضرون الأول يتذكرون أجدادهم بالاحترام والمحبة فحسب أو كانوا يعتقدون بان لأسلافهم قوة مسيطرة عليهم تدفعهم للخير أو للشر . وربما ظنوا فى جميع الحالات أن اسلافهم قد بقوا بطريقة ما وعلى ذلك فقد اتخذوا بعض التدابير لجعل الحياة الجديدة بهجة لهم .

وبجانب آلهة السماء والارض عبادات الحصب وعبادة الاسلاف كانت توجد على وجه اليقين كثير من المعتقدات التى ترجع الى الاعتقاد بان كل الاشياء لها روح ، والاعتقادات فى الأرواح الحارسة أو الأرواح المألوفة . ومعتقدات أخرى قد توارثوها عن الأزمنة البدائية . أما المسائل الحقيقية فهى الى أى حد من القوة كان هذا التراث عندما حلت المجتمعات المتحضرة الأولية . وبما انه ثبت انه من الصعب أن نكتشف أى شيء فانه يمكن أن يستنتج أن تلك المعتقدات لم تكن قوية بدرجة كافية بحيث تترك تأثيرا عظيما - كتأثير الآلهة العظيمة - ولكن بعض تلك المعتقدات كانت قوية الى حد كاف لأن تترك أثارا كافية للكهنة من أصحاب العقول الذكية التاملة للاحتفاظ بكل ماكان يأتىهم من معتقدات وتحويلها فى بعض الحالات الى شيء جديد مؤثر ، ومن الواضح أيضا أن المعتقدات قد تركت تأثيرا اقل شأنًا من عبادة الماء ، فانه مع هذا أصعب بكثير ان تجد أى شيء عن العناصر الأخرى فى الديانة غير عنصر الماء ، ومن افتقارنا للدليل فاننا قد نستنتج ان عبادة الماء أو عبادة الماء والارض كانت الاعتقاد الفعال حقا عند قيام المجتمعات المتحضرة الأولية فى الأصل ، أما العناصر الأخرى التى تكون الديانة فلم تكن قد طمست بل ربما قد لاقت شيئا من الحماسة الجديدة

ولكنها لم تستطع أن تشارك مشاركة تامة عبادة الماء في مكانها لانها لم تكن لديها الاجابة الخاصة على سؤال الساعة . اما ما يبدو أنه قد حدث فهو أن عبادة الماء كانت قد جربت من بين الاديان الشائعة التي كانت تؤمن بها الشعوب الأصلية ، وقد رفعوا من شأنها لتخدم الهدف الذي يرمى للتغلب على الأزمة التي هددت بقاء الشعوب .

ونم دليل للديانة الجديدة في بعض المجتمعات ولا سيما مجتمع الانديز ومجتمع ما بين النهرين فقد ظهر أولا في مساحة صغيرة تماما ومحدودة من المجتمع ومن ثم انتشر نحو الخارج ، ان الشيء الجديد الذي انتشر بهذا الشكل ينبغي أن يؤخذ فيما اعتقد على أنه تكوين ملتحم لبشارة تامة تتضمن الجديد والقديم والأغراض الايجابية التي تمت في الوطن الجديد وشروط الفرار من الخطر الذي يوجد في الوطن القديم .

أما في حالة العراق فيبدو أن المستوطنين الاولصاغوا البشارة ، ثم سلموها الى من جاء بعدهم أو ربما يكون الذين جاءوا فيما بعد قد قاموا بتقليدها، ولكن لا بد انه كانت توجد مجتمعات أخرى قامت فيها البشارة الجديدة في أحد الاركان ثم انتشرت في مكان آخر بين المستوطنين الذين رسخت اقدامهم في ذلك المكان، ومع هذا توجد مجتمعات أخرى نشأت فيها أنواع الوحي والالهام المتنافسة فيما بينها ثم اندمجت أخيرا أو حل واحد منها مكان الآخر - وان تنوع هذه العمليات له قيمة صغيرة على الأرجح . أما الشيء الأهم من ذلك بكثير فهو أن جميع المستوطنين - سواء اكان بانفسهم أم عن طريق قادتهم - كانوا يكونون عقيدة معينة متماسكة . وكانوا في حالة استعداد للايمان بعقيدة شبه مقبولة . كانت تعبر عن اختياريهم بطريقة مقننة وتقدم لهم تأكيدات مرضية لخروجهم و هروبهم من الخطر ولوصولهم للأمان وان كان من المحقق أنه مقيد بشروط .

واننا ندرک اذن فكرة تجمع الناس مما لتكوين مجتمع بحيث يكونون في حالة عاطفية معينة محددة ، وانتشار الديانة بينهم فيما بعد .

الفصل
السادس

الخاتمة
معنى
ظهور
المجتمعات
المتحضرة

يمكن أن نعبر عن معنى مجيء المجتمعات المتحضرة .
بالنسبة للإنسان في ثلاثة فروض :

الفرض الأول ، له علاقة بالأصل الواضح :
المنفصل وبالكيان الذاتى لكل مجتمع متحضر ، وهو
لذايتها .

الفرض الثانى يسعى لبيان عملية نشوء المجتمعات .
المتحضرة الأولية فى الأصل وعلى الأشخاص عوامل .
البيئة المؤثرة وأعمال ومعتقدات الناس فى هذه
العملية .

أما الثالث فهو محاولة لبيان جودة هذه
المجتمعات المتحضرة وكيف ظهرت هذه الجودة ،
لقد كونت هذه الفروض الثلاثة ما اكتشفته من .
هذا الكتاب .

إنها لا تكون الصفات المميزة النهائية للمجتمعات .
المتحضرة - ذلك لأن بعض المواد التى تعتمد عليها
فى بيان هذه الصفات المميزة للمجتمعات المتحضرة
ليست نهائية وليست مؤكدة ولكن يمكن أن تتخذها
كخلاصة بيانات عملية شاملة لما حدث عندما قامت
المجتمعات المتحضرة أولا ، كما أنها تقدم ما يساعد
على الإدراك الأولى للأهمية الممكنة بعمل الإنسان
المتحضر حسب ما زاول من أعمال منذ أن بدأت الحياة
البشرية من ستة آلاف عام وربما منذ أكثر من ذلك .

ولقد بينا فى الفصلين الثالث والرابع من هذا
الكتاب أن كل مجتمع من هذه المجتمعات السبعة الأولية
كان فى الأصل منفصلا كما كان متميزا ، وقد ناقشنا
فى الفصل الأول عدم صحة النظريات المتنوعة عن أصل
هذه المجتمعات المتحضرة والصفات المشتركة فيما بينها

او خروج كل مجتمع من المجتمعات الاخرى . وان وجود اصل منفصل لكل مجتمع قائم بذاته من هذه المجتمعات السبعة الاولى المتحضرة شيء ضرورى لفهم اسباب قيام كل مجتمع على حدة والصوره المنفصلة وطريقة سيره وتقدمه .

كما ان انفصال هذه المجتمعات بعضها عن بعض شيء له أهميته كذلك، لانه يبين هذه الحقيقة الهامة ، وهى أن الاحداث الكبرى فى حياة الجنس البشرى يمكن أن تعمل ، وانها تعمل فعلا بطريقة تكرارية .

ولكن ينبغي ألا ننسى أن التجربة الرئيسية للأسباب العملية كانت مصحوبة باختلافات طارئة أو بعض هذه الاختلافات ذات تأثير . وقامت خمسة مجتمعات فى وديان النهر وقام أحدها فى جزيرة صغيرة وقام مجتمع ثان فى غابة استوائية ممطرة . أما مغزى هذه الاختلافات الذى له أهميته العظيمة حقا فانه يبين فى أثناء عرض الرأى الثانى لان الاختلافات والتكرار الرئيسى الأكبر ضرورى للوصول الى فهم الاسباب وطريقة قيام هذه المجتمعات فى الأصل .

وسرعان ما قامت وجوه شبه هامة بين تلك المجتمعات لم تكن نتيجة الطبيعة التكرارية فى أصل المجتمعات فحسب ، لقد أخذت المجتمعات كثيرا من الملامح الثقافية الواحدة من الاخرى . أما كيف حصلت على هذه الميزات الخاصة عن طريق الاقتباس أو الاختراع فانه مهما كان مسألة غير هامة الى درجة عظيمة اذا ما قورنت بالكيفية التى نشأ بها المجتمع ذاته ، ذلك لأن المجتمع لا يمكن أن يعتبر - على أية صورة على الإطلاق - مجموع مميزاته الثقافية ، وان الاشخاص فقط الذين تضللهم عصى وأحجار الباحث الاركيولوجى هم الذين يمكن أن يقعوا فى هذا الخطأ دون سواهم .

ان كل ميزة فى الواقع ، وكل منشأة ، وكل ممارسة أو تجربة وكل عمل فنى أو أى شيء فى كل مجتمع كانت تميزه بالنمط الفردى الجميل . مهما كان مشابها عظيما للميزات المقابلة فى المجتمعات الاخرى فى الشكل أو العمل ، هذا ما جاء موضحا فى الفصل الاول استنادا الى رأى كروبر .

لقد بحث أسلوب المجتمعات البشرية بحثا تمثيلىا - الى اقصى حد فى فنونها الجميلة كل ما هو جميل وكل ما هو تمثيل والاكثر قوة فى تأثيره ، فإذا ما كان هذا أوليا فانه ينبغي أن نحتفظ به فى أذهاننا عند مراعاة الاشياء الاولى وعند قيام المجتمعات المتحضرة فى الأصل، وقد أولينا الفنون الجميلة فى الفصل الخامس عناية خاصة حيث درست الرموز المعينة

المشتركة في الديانات بين المجتمعات الهندية والصينية وأمريكا الوسطى ومجتمع الإنديز وقد استخدمت الرموز التي صورها الفنانون في الأغراض الدينية في المجتمعات الثلاثة الأخرى كما في المجتمع الرابع الذي قاسها ببعض الرموز ، وأن استخدام الفنون في الأغراض الدينية في الواقع من أهم المجالات التي استخدمت فيها ليس في المجتمعات الأولية المتحضرة فحسب ولكنه في جميع المجتمعات على السواء المتحضرة والبدائية .

لقد كانت الديانة الوسيلة الإيجابية الانسانية ، العقلية في خلق المجتمعات الأولية المتحضرة ، وكانت بهذه الاعتبارات كلها عند خلق وإعادة خلق جميع المجتمعات المتحضرة ومن الوظائف المعينة التي كانت للديانة، ولا تزال تقوم بها الآن توحيد المجتمع واعطاؤه عرضا عاما ، ولهذا فمن المعقول أن تظن أن الأسلوب الجمالي لمجتمع من المجتمعات قد يحقق هذا الغرض . ان الإدراك اختيار ديناميكي ، يؤثر على عواطفهم ويشربهم بالمشاعر وأغراض المجتمع وقادة المجتمع خصوصا ، ويتطلب منهم أن يختبروا هذه الحالات كلها ، ومن هذا نرى أن يخصص أسلوب المجتمع ليس مجرد حادث عارض ولكنه عامل حيوي في وجود المجتمع .

وهذا يكمل القضية الأولى .

وان الحاجة للماء في سبيل البقاء كانت الحاجة القاطعة لأولئك الناس الذين استطاعوا أن يوجدوا المجتمعات الأولية المتحضرة ، وعندما قامت المجتمعات الأولية المتحضرة ، قامت في ست حالات من بين سبع حالات بتربة لا تنضب ولا يمكن استنفادها، وربما تعثر الإنسان البدائي في تربة كهذه هنا وهناك في الأزمنة الأولى ، ولكنه اذا كان قد فعل ذلك فإنه لم يترك أي دليل له أية نتائج معينة لعمله هكذا ، والذي يعتقد أن نوع التربة الآن في المجتمعات الستة المصرية والعراقية والهندية ، والصينية والكريتي والانديزي قد سهلت التركيز الدقيق للشعوب التي تكونت منها تلك المجتمعات في مساحات صغيرة نسبيا على أساس ثابت ، وأتاحت للناس فرصة عظيمة جديدة لزيادة عددهم وربما كانت هناك عوامل فيزيقية أخرى قد عاونت على ذلك التركيز وهذه الزيادة في السكان وعاونت المساحة المحدودة التي رويت وغمرتها مياه الأنهار في خمس حالات من ست حالات ، وفي الحالة السادسة حالة المجتمع الكريتي كان العامل الطبيعي هو صغر جزيرة كريتي ، أما في المجتمعات الهندية والصينية والانديزي فان سهولة الوصول الى الأرض المجاورة التي ليست بها موارد المياه ذاتها أو التربة عينها ربما اجتذبت بعض السكان ، ولكنه من الواضح

تماما أن هذا لم يغير ماديا نمو السكان فى المواضع الرئيسية فهل يمكن أن نعد نمو السكان ونركزهم والأساس الطبيعى فى التربة والماء كعوامل مسببة فى أصل المجتمعات المتحضرة الاولى ؟ فإذا كانت كذلك فماذا تقول عن الحالة الشاذة لمجتمع أمريكا الوسطى الذى لم تكن به أية تربة لانتضب حتى لو كان به مورد مياه ضخم يركن اليه .

ان مجتمع أمريكا الوسطى جدير بالاعتبار أيضا بسبب محوره الأصيل ، كان قلبه فى الأصل اقليم الغابات عند قاعدة شبه جزيرة يقطان التى يسكنها شعب المايا ولم تكن بها أية مدينة بالمعنى الكامل لهذا الاصطلاح كان باقليم الغابات هذا مراكز عظيمة لاقامة الحفلات والطقوس فقط حينما كان الناس يجتمعون الى حين فى المناسبات المتعددة للاحتفالات الدينية وفى الاوقات الاخيرة كانوا يتشتتون فى الغابات ، كانوا لا يعيشون مطلقا فى حشود متجمعة كالشعوب التى كونت المجتمعات الاخرى المتحضرة الاولى والتى كانت قادرة على التجمع والاحتشاد فى أماكن مزدحمة ، ويتميز مجتمع أمريكا الوسطى كما لاحظنا فى الفصل الرابع باتساعه الهائل على وجه الاجمال ولو أنه كان مجتمعا واحدا بكل تأكيد طالما كانت وحدة الديانة فى هذا المجتمع واضحة تماما ، وعلى الرغم من أنه كان فى الحقيقة يتألف من ثلاثة أو أربعة أقاليم أساسية شاسعة كلها منفصلة بعضها عن بعض على الأرجح من زمن مبكر جدا ، وليس من وقت نشوء المجتمع فعلا وربما كان مجتمع أمريكا الوسطى عدة أقاليم أصغر من هذه منفصلة بعضها عن بعض ، ومن هذه الناحية كان مجتمع أمريكا الوسطى مختلفا تماما عن جميع المجتمعات الاخرى المتحضرة الاولى ، ويظهر أن لذلك الترامى الشاسع لهذا المجتمع بكامله وتشتمت سكانه على الأقل فى قلبه الاصل ناحيتين يكشفان عن خاصية هذا المجتمع الغريبة ، أى انه لم يكن فى مقدور المجتمع أن يفعل ما استطاعت المجتمعات الستة المتحضرة الاولى الاخرى من حيث التركيز والحصر والحشد فى مساحة صغيرة جدا من الأرض حيث كانت التربة منتجة الى درجة خيالية وحيث كانت تتجدد قواها كل سنة .

لقد كانت تلك الحالات مستقلة وسابقة على الاساس الطبيعى الذى سهل تكوين المجتمع ، وهذا لا يعنى أنه لم تكن هناك أية حاجة للاساس الطبيعى ، انه من الصعب أن نتصور أن مورد المياه لم يكن ضروريا ، ولكنه يعنى أن التربة الخاصة وهى جزء من الاساس الطبيعى فى الحالات الست من بين مجموع الحالات وقدرها سبغ حالات لم يكن ضروريا ولا

يوجد أى شك معقول حول انه حيث كانت توجد تربة كهذه فان الأصل
فى المجتمع المتحضر كان يتقدم بقوة ، ولكن المساء والميزات الاخرى التى
لا نعرف اذا ما كانت موجودة أولا وتربة خاصة لم تكن فيما يبدو
ضرورية ..

ومن المهم جدا ان نعرف ما اذا كانت طبيعة ارض امريكا الوسطى
قد اتاحت بديلا مباشرا أو غير مباشر للتربة الخاصة ، ولكن اذا كانت قد
فعلت ذلك فأتى اجهل هذه الحقيقة .

ومن المحقق أن الأمطار الوفيرة الموجودة فى جميع الاوقات عندما
يحتاج اليها مورد ماء أسهل على سكان امريكا الوسطى من الحصول عليه
من الأنهار الكبرى بفيضاناتها ، ولكن ليس من الممكن أن نقول فيما اذا
كان هذا تعويضا كافيا عن فقر التربة وعدم امكانية الوصول للأراضى
القابلة للزراعة .

وهذا يبين لنا الاهمية القصوى للديانة الخاصة من تكوين كل مجتمع
من المجتمعات السبعة المتحضرة الاولى ، لقد استطاعت الديانة فى كل
مجتمع من تلك المجتمعات أن تعطى للمستوطنين فى وديان النهر العظيم
الشجاعة لتنقية الاراضى والاحتفاظ بها نظيفة خالية من الأدغال والأحراش
واعادها للزراعة وجلب المياه اليها .

ومن المحتمل أن تكون الديانة قد شجعت المستوطنين لاية غابة من
الغابات التى تنزل فيها الأمطار لان يقوموا بعمل أضخم بكثير وهو تنقية
الأشجار وتطهير الغابة الاستوائية التى تنزل فيها الأمطار بفرارة واعداد
الأراضى للزراعة بعد اقتلاع الأشجار وربما كانت الديانة قد دفعت الناس
لعمل عظيم كهذا فى حين كان الاعتقاد المسائد أن المياه تأتى مباشرة من
 وراء القيام بالطقوس الخاصة بكلمة الماء .

اما فى حالة المجتمع الأمريكى فانها تبين شيئا غير واضح من
الدليل الذى نلمسه عن المجتمعات الستة الاخرى - ان هذه الحالة تبين
مبلغ الاهمية العظمى التى ترجع للتجمعات الحقيقية لاقامة الاحتفالات
الدينية ، فاذا كان هذا يبدو شيئا بدائيا واضحا فانه يعد شيئا أخسر
يضاف الى تلك الاشياء البدائية التى يمكن أن نعوها أيضا عنصرية ونجد
معناه فى ذلك التمييز العقلى الذى تولد فى الناس الذين اجتمعوا منسبا
وحشدوا لأفراض دينية كما ذكرنا فى نهاية الفصل الخامس وما بينه
« أميل دوركيم » من تفسير عميق للاختيسارات الدينية فى المجتمعات

مما يختلف تمام الاختلاف من النوع الذى نميزه فى المجتمعات المتحضرة الاولى .

واننا لا نترك هذه المسألة دون سؤال عن أهمية عبادة الماء على هذه الصورة فان أهميتها الحيوية لتلك المناسبات التى أمامنا قد أصبحت الآن واضحة وضوحاً تاماً ، ولكن ينبغى أن نعلم أيضاً اذا ما كان يجب أن نعد ذلك صفة كامنة باستمرار فى جميع الأديان المتحضرة ، ومن الواضح أن هذا ينبغى ألا يكون كذلك ، ويوجد دون شك شيء باق منه فى معظم أديان المجتمعات المتحضرة فى قلق الإنسان على الطعام وامتناعه من الآلهة المفروض عليها أن تقدم له الطعام ، وبقينا أن تلك المشاعر تنحدر الى حد ما فتصبح عامة من العبادة فى المجتمعات المتحضرة الاولى للآلهة أو الآلهات الذين منحوا الماء ، وكانوا فى حالات معروفة عديدة آلهة والآلهات زراعة للخشب على وجه الأجمال ، وهناك استثناء وهو المجتمع الهندى الذى ما يزال فيه الماء مقدساً ، وهذا يمكن أن يعزى الى الطريق السنوى للطقس فى الهند حيث تهب الرياح الموسمية فجأة بعد الجذب الطويل وحتى على هذه الصورة لا تبدو عبارة الماء الهندية اليوم مشابهة شبيهاً عظيماً لعبادات الماء التى عرفناها فى أصل المجتمعات المتحضرة الاولى كسلسلة من الأفكار المنقولة عن عبادة متقدمة عنها وأكثر وضوحاً وضعها الكهنة لبقاء تقديس الماء حياً فى عقول الناس .

والنتيجة إذن أن عبادة الماء ليست صفة كامنة للديانة فى المجتمعات المتحضرة ، أن أهميتها الكبرى مؤقتة وإن كان من المحتمل أنها ليست قصيرة العمر ، أنها ترجع لأصل هذه المجتمعات السبعة المتحضرة الاولى . وبهذا تكمل القضية الثانية .

وقد اوضح لنا فى الفصل الاول انه من الصعب أن نجد الاختلافات الأساسية بين المجتمعات المتحضرة والبدائية وقد وجدت عملية النشوء والانحيار الدورى خاصة بالمجتمعات المتحضرة وهل يوجد أى شيء لا تستطيع الشعوب البدائية أن تفعله فى حين أن المجتمعات المتحضرة تقدر عليه ؟

فإذا كان الامر كذلك فإن السبب يرجع فقط الى الكم .

وانه من المستحيل أن نحفظ اليوم بالرأى الذى يقول انه توجد حواجز عقلية لا تذلل تضع حدوداً لكفاءة البدائيين . ان الآراء من هذا النوع ظلت تقلب نظرية ليفي برهلى (للعقلية البدائية) وبالتاكيد

توجد مشاكل نواجهها في تعليم البدائيين تعقيدات الاختراعات الفنية الغربية العصرية ، ولكنها ليست مسائل أعظم من الأشياء ذاتها التي نعلمها لأفراد أبسط منهم من المجتمع الغربي ذاته .

كما انه لا يوجد أى إنسان يظن أن فنون المجتمعات البدائية دون فنون المجتمعات المتحضرة عندما شعر المصورون والفنانون والموسيقيون بعجز في موضوعاتهم المحلية أخذوا يتحدثون الى حد كبير عن المصادر البدائية لاقتباس الموضوعات والأفكار منها .

ولقد رأينا في الفصل الأول انه وإن كانت الكتابة قد اخترعت تقريبا في المجتمعات المتحضرة فإن عملية الاختراع كانت تنمو وتحسن وتضيف شيئا لاختبارات المجتمعات البدائية التي تقاسمها مع المجتمعات المتحضرة ، والآن ينبغي أن نلاحظ أنه من غير المدهش حقا أنه لا توجد الآن أية عقبات لا يمكن التغلب عليها في تعليم الناس البدائيين القراءة والكتابة أو تخفيض لغاتهم الى الشكل المكتوب وتعليمهم لاستخدامها على هذا الشكل .

أما عن الفكر السامى - للفلسفة والمفاهيم العلمية العميقة المتشعبة ومعد من المغامرات العقلية المتصلة بعضها ببعض فإن المقارنة تكون أقل سهولة فإن البدائيين على قدم المساواة تماما مع المتحضرين في كل ما يتطلب التأمل الذى يتوقف على الممارسة الخالقة للخيال ، خذ مثلا ما يمكن أن يسمى « الميتاسيكولوجى » عند الناس الذين يقطنون اقليم نيجيريا العليا داخل أفريقيا الغربية أو عالم الارواح في «نور» في الجنوب الشرقى للسودان فإنه من الممكن جدا بل ومن المحتمل فعلا أن يكون هؤلاء الافريقيون قد وصلوا الى أعلى التصورات الفكرية بفضل تفسيها فيما بينهم وقد جاءتهم في حلق من (ممفيس وطيبة والاسكندرية) ولسنا فى حاجة الى أن نذكر المصادر المتأخرة والتي جاءت فيما بعد ولكن هذا لا يدل أقل دلالة على أنهم لم يستطيعوا أن يحصلوا على ما يماثلها لأنفسهم .

وبالفعل قد يكون من الممكن جدا أيضا أن يكون بعض الانتشار قد اتجه في اتجاه معكوس ولكن يوجد اختلاف عظيم في مستويات الفكر الخطير الذى توصلوا اليه في هذين النوعين من المجتمعات . . وخقيقة يمكن أن نرى أن التأمل كما هو معلوم لنا في المجتمعات البدائية أوسع وأكثر حرية منه في المجتمعات المتحضرة . وذلك لأنه يبقى دون انتقاد كبير نسبيا في المجتمعات البدائية وإن التفسير المباشر للاختلاف هو كما أرى مجرد المعرفة الواسعة للعالم الطبيعى التى يحصل عليها المجتمع

للتحضر من بيئته التى هى اوسع الى درجة عظيمة والتى هى اكثر تنوعا (عادة) فيدرس العلماء معلومات عظيمة كهذه دراسة مقارنة ، ومن المحقق أنهم يصححون التأمل الذى أطلق له العنان والذى جاء من زمن متقدم من هذا ويكون جزءا كبيرا منه فى واقع الامر قد توارثه عن المصادر البدائية .

وهنا ينبغي أن نلاحظ شيئا آخر أيضا . وهو أن المجتمعات المتحضرة تبدأ حياتها بالفروض المتعلقة بفلسفة الكائنات وبعلم اللاهوت وبغيرها من الفروض الكبيرة الاخرى التى لا تختلف عن تلك التى فى المجتمعات البدائية وأن الاساطير التى جاءت فى الفصل الثالث والرابع والخامس تبين هذا ولم يبدأ النقد بصفة جديدة الى أن جاء عصر العقل ، إلا انها كانت بلاشك من تراث الماضى الذى لا أثر فيه للنقد .

وأيا ماكان الامر ففى الوقت الذى تبدأ فيه هذه العملية فانها تتحرك بسرعة فان المعدل المرتفع للتغيير خاصية من خصائص الحياة المتحضرة تعمل فى الفكر كما تفعل تماما الوظائف من النواحي الاخرى . وهذا فرق كمى آخر بين المجتمعات المتحضرة والمجتمعات البدائية ، ومع هذا يمكن أن تتعلم الجماعات البدائية حتى قواعد هنيئة جادة مع أن اولئك الذين تعلموها قد عملوا هكلا باعتبارها جزءا من عملية الاندماج المتحضر فى المجتمع ومن الجلى أن البدائيين يستطيعون أن يعلموا كل مايقدم لهم من تعليم ، وربما كان كله تقريبا من قبيل التبسيط أو التحسين - كالتقريب المختصرة لعمل الاشياء والاختراعات السريعة التى تؤخر الوقت والجهد - وهذا فى التفكير على الخصوص أو ادخال التحسينات على الطرق بتوحيد الاغراض المحدودة .

ومن ناحية أخرى فهناك حقيقة تاريخية وهى أن البدائيين لم يخترعوا هذه الافكار والتجارب فى حين أن الشعوب المتحضرة هى التى اخترعتها وحققها . وإنا نتساءل هل من الممكن أن تتصور حالات افتراضية استطاع فيها البدائيون أن يخترعوا هذه الاشياء لانفسهم ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال - كما اعتقد - بسيطة جدا ربما كانوا قد فعلوا ذلك لو كان قد استمر تقدم المجتمعات الانسانية بمعدل سرعة تدرجية تطويرية لابد أن كانت قد ظهرت الظروف - آجلا أو عاجلا فى هذا المضمار التطورى - التى تتطلب تلك الاختراعات والتخصصات وتنشأ القوانين التى فرضتها الفرصة أو المصادفة وهذا يقدم لنا أن وجهة النظر الثالثة الأخيرة الهامة فى طريقة معرفة الاصل فى قيام

المجتمعات المتحضرة كانت ثورة بل كانت فى الواقع سلسلة من سبع ثورات .. كانت كل ثورة تسير فى الطريق ذاته فى جوهرة وبالقرب منه فى الواقع ، وكانت نتائج كل ثورة كنتائج الثورات الأخرى على السواء .

ولقد وجدنا عندما حدثت الثورات انها حدثت عندما ترك البدائيون الملاجئ الباقية التى كانوا يلجئون اليها فى المناطق الصحراوية ويبحثون عن مأوى جديد فى وديان النهر أو أى مكان آخر من الأماكن الهائلة التى كان الماء فيها وافرا . ولقد عرفنا لماذا حدثت الثورات ؟ لقد حدثت لأنه لم توجد الموارد - المادية الكافية لعلول سكانها واستهدفت حياة هؤلاء السكان لأعظم الأقطار ، ولم يعد بإمكانهم البقاء على قيد الحياة ، وكان هذا التغيير الذى حدث يتطلب قيام ثورات .. وحدثت هذه الثورات السبع بسرعة عظيمة .

وحدثت هذه الثورات منذ أن شعر الناس أنهم وقعوا فى هذه الظروف من وقت تركهم لمواطنهم السابقة والوقت الذى بدعوا فيه تكوين المجتمعات المتحضرة فى المواضع الجديدة التى هاجروا اليها ، وللاستطيع أن تقيمه أى زمن من هذين الزمنين على وجه الدقة ، ولدنيا من الأسباب ما يحتملنا على الظن أنه فى معظم الحالات ان لم يكن كلها أن المجتمع المتحضر لم يظهر إلا بعد أن قضى الناس وقتا ما يمكن أن نقدره ببضعة أجيال أو حتى بقرون - فى أطراف تلك المواضع أو فى المناطق الأخرى المتاخمة لها أو على الحافة ، وربما قضوا هذا الزمن يتعلمون كيف يعيشون فى هذه الأماكن ، ولكن لا يشك أحد فى أن الوقت الذى كانوا يحتاجون إليه للقيام بهذه التجارب كان محدودا إذا ما قارناه بالمدة التى قضتها المجتمعات البدائية أو حتى بالمدة التى قضتها المجتمعات المتحضرة ذاتها .

وكانت نتائج هذه الثورات - إذا ما نظرنا اليها من الخارج لأول وهلة - عظيمة بقدر ما كان الزمن الذى استغرقته صغيرا ، كانت النتائج فى كل حالة من هذه الحالات هى تجمع المئات معا وتكثلم معا ، وربما كانوا يتكثلون أيضا بالآلاف لكى يكونوا مجتمعا واحدا .

ولكن التكتل كان أكثر من مجرد الضم أو الجمع .. كان التكتل شكلا من أشكال التركيز فى الدافع الدينى للمجتمع الذى تحدثنا عنه والذى يعلق « أميل دور كيم » كل هذه الأهمية عليه .

لقد عرض « هنرى برجسون » رأيا له علاقة بهذا الموضوع . انه يتصور أن هناك فرقا بين الديانة الساكنة التى توجد لربط أفراد المجتمع

بعضهم ببعض ولكى يبقى هذا المجتمع متيناً ضد الفرباء وبين الديانة
الديناميكية التى تفتح المجتمع لجميع البشر لمجتمع واحد ، وهذا وصف
صحيح لما حدث حتماً فى الثورات التى علينا ان نعرض لها .

لقد اكتشفنا كيف أن عبادة الماء فى جميع الاحتمالات وفى جميع
الحالات قد أصبحت الانجيل الجديد الذى كبر واتسع وحل مكان
الديانة الساكنة القديمة بالشكل الذى صوره برجسون الى حد كبير
جداً .

وكيف أن فى كل مجتمع جنينى التكوين قبلت المجتمعات البدائية
الانجيل الجديد ذاته . ولقد رأينا أيضاً فى بعض حالاتنا السبع شيئاً لم
يحدث أن «استرعى نظر «برجسون» وهو الفنون التشكيلية للدنة التى
استخدمت فى الديانة الجديدة لتمثيلها فى رموز وخلق الطراز البدائى
الخاص لكل مجتمع معبر عن طموحه ومثله العليا .

غير أن «برجسون» لم يبين الى أى حد ذهب اليه ثبات المجتمع ،
لقد اكتفى بأن قال ببساطة : أن المجتمعات المتحضرة أصبحت كما كانت
المجتمعات البدائية مجتمعات مغلقة وهذا مايمكن ان يحمل على الظن
بأنه قد حدث الثبات التام . والقوة التامة ، ومن الصحيح بلا ريب أن
التجميد الدينى قد مات تدريجياً بعد أن تمت الثورات السبع على قدر
ماثم منها عادت الديانة ساكنة من جديد كانت العبادة ذات أهمية دقيقة
لقد كانت حيوية فى زمنها الحاسم البات وقصد الانسان المتحضر أشياء
أخرى ووجد مايدفعه فى الواقع ليحمل بيئته الطبيعية الجديدة شيئاً
فشيئاً تحت سيطرته، وزاد تحكمه فى هذه البيئة الطبيعية زيادة متواصلة
وجعلها تكيف هذه البيئة ذاتها طبقاً له بالأحرى أكثر مما يكيف نفسه
لبيئته ، وكان هذا فى الحقيقة أعظم عمل استمر الانسان يعمل به وتميز به،
ونجاحه فى هذا العمل المتواصل هو الذى يلهمه كل يوم ، وهو الذى يفتنه
كل يوم ، ولاهم للانسان سوى أن يجعل بيئته الطبيعية هى التى تكيف
ذاتها للانسان أكثر مما يكيف هو ذاته لهذه البيئة .

ولكن مجتمعاته المتحضرة تكشف عن عدم الاستقرار الى درجة
عجيبة تماماً أو جديرة بالاعتبار حقاً . . ان تدعيم تلك المجتمعات أو
تثبيتها لم يكن بالتأكيد كاملاً . ان فنون هذه المجتمعات كانت حقيقة
قوية فى الأزمنة المحدودة على الأقل ، وكانت تحتفظ وتنى بكل طريقة
النمط المميز لمجتمعه . وان المجتمعات المتحضرة ماكانت تكاد تعد

مجتمعات على الإطلاق لولا نجاح هذه الفنون ولولا مظاهر هذه الأساليب الواضحة ، ولكن هذه الفنون لا تملأ إلا عن الأمان والطموح .. ولكن الآثار والأعمال المجيدة تأتي بعد التطلع والأمان ، وحتى في المظاهر الخارجية في الشكل السياسي نجد أن المجتمعات المتحضرة قد بلغت الوحدة فقط في القرون المتأخرة من كل دورة من وجودها وفي المراحل الأولى من الدورة كانت مشهورة بعدم اتحادها وفي بعض الأوقات بارزة بالنضال الحربي المهلك على نطاق مريع .

ولقد انحدر كل مجتمع متحضر عند نهاية كل دورة من تاريخه إلى التقهقر وهناك برزت منه أو مالت إلى البروز وحدات صغيرة مشابهة تماما للمجتمعات البدائية التي كانت قد تكتلت معا في الأصل لتكوين المجتمعات السبعة المتحضرة الأولى ، أما المنطق في هذا فواضح تماما وقد أصبح الآن معروفا . تكونت المجتمعات المتحضرة الأولى عند انهيار المجتمع المتحضر جاءت مبادئ « برجسون » لتطبق من جديد فعلا ومبادئ « دور كيم » للأخذ بها حقا .. هذا ما وقع في ذلك الحين تماما قامت ديانة جديدة وقامت ثورة جديدة كان قد بدأ الانتعاش ... الانتعاش الدوري فعلا وأعيد خلق المجتمع أو خلق مجتمع جديد عن طريق التكتل .. تكتل بقايا المجتمع القديم .. وأراض جديدة وشعوب جديدة أيضا .

ولكن تاريخ هذه الأحداث الهامة المتكررة بشكل دوري هو تاريخ المجتمعات المتحضرة كما تمت وتطورت بعد قيامها وحتى اليوم ، ويمكن أن ينتهي هذا الكتاب على ذلك بسؤالين من ذلك التاريخ : هل مجيء المجتمعات المتحضرة أدخل في عصر من حظ الإنسان أن يكون انتقاليا فحسب ، عصر لم يكن به أي مجتمع راسخ رسوخا مأمونا بل كان مجرد سلسلة من المحاولات لتكوين المجتمعات ؟

وإذا كان الأمر كذلك فهل ستكون المحاولات في النهاية ناجحة أو غير ناجحة ؟

تم الكتاب

٢٠٠٥

الموضوع	الصفحة
الفصل الاول :	
الانسان المتحضر وتاريخه .. ٣	
الفصل الثانى :	
المجتمعات الزراعية الأولى .. ٢٥	
الفصل الثالث :	
واديان النهر ٥٧	
الفصل الرابع :	
أمريكا الوسطى وكريت .. ٩٣	
الفصل الخامس :	
الأديان الجديدة ١١١	
الفصل السادس :	
الحاقمة معنى ظهور المجتمعات المتحضرة ١٤١	

الدار القومية للطباعة والنشر

هذا الكتاب

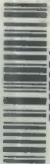
يتضمن الكتاب دراسة جديدة
لأصل المجتمعات المتحضرة وعرضا
مقارنا للتيارات الحضارية في
مناطق مختلفة في العالم ، كما
يعرض الكتاب للإساطير المختلفة
وارتباطها بنشأة الحضارة ، وقد
عنى المؤلف بصفة خاصة بالقارة
الافريقية ودورها كاصل مبكر من
أصول الحضارة .

العدد ٩٩

الثمن ٢٠

الكتاب العربي للطباعة والنشر

Bibliotheca Alexandrina



0237621

